فلسطين أرض الرباط

السنة الثالثة | العدد التاسع | 1441 هـ / 2020م

وترجل الفارس

افتتاحية العدد
رئيس التحرير

الكفاح المسلح بين المقدس الوطني والمحرم الوطني
محمد أبوجبارة

المجتمع الفلسطيني في القدس بين سيناريوهين
مازن الجعبري

السلفية المعاصرة من المركز إلي الهامش
د. كمال حبيب

الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والصين هل بدأت
جهاد ابو راس

لقاء العدد
حوار مع د.رمضان عبد الله شلح
فلسطين هي البوصلة

مجلة فصلية

تصدر عن
مركز فلسطين للدراسات والبحوث
PALESTINE CENTER FOR STUDIES AND RESEARCH

مركز فلسطين للدراسات والبحوث
PALESTINE CENTER FOR STUDIES AND RESEARCH

مجلة فصلية

تصدر عن

مركز فلسطين
للدراسات والبحوث

مدير المركز:
د.رياض عبدالله ابو راس

جميع الحقوق محفوظة لمجلة فلسطين
أرض الرباط ©

السنة الثالثة

1441هـ – 2020م

غزة – فلسطين

الآراء الواردة في هذا العدد تعبر عن
وجهات نظر كاتبيها
ولا تمثل بالضرورة آراء مركز فلسطين
للدراسات والبحوث او
"مجلة فلسطين أرض الرباط".

تصميم واخراج فني
سائد حسونة

تنفيذ
أشرف قاسم

رئيس التحرير:
- ثابت العمور

هيئة التحرير:
- تيسير الغوطي
- عامر خليل
- د/ عبد المجيد العيلة

الهيئة الاستشارية:
- د/ أشرف الصوفي
- د/ أنور أبو طه
- د/ إيهاب أبو منديل
- د/ صبحي شبير
- عبد العزيز الميناوي
- د/ وليد القططي
- يونس أبو العمرين

التنسيق والمتابعة
- خميس الهسي

مركز فلسطين للدراسات والبحوث
PALESTINE CENTER FOR STUDIES AND RESEARCH

تصدر عن
مركز فلسطين للدراسات والبحوث

9

فلسطين
أرض الربـــــاط

للتواصل مع مجلة فلسطين

palmagazine19@gmail.com

مجلة فلسطين

0599541439

مركز فلسطين للدراسات والبحوث

أنشئ مركز فلسطين للدراسات والبحوث بقطاع غزة في العام 1416 الموافق 1995م، كمؤسسة بحثية غير ربحية مستقلة للمساهمة في تنمية الوعي الفكري والسياسي في المجتمع الفلسطيني.

يهتم المركز بدراسة وبحث القضايا والمتغيرات والملفات السياسية والفكرية والاقتصادية والأمنية والعسكرية والاجتماعية المطروحة، والتي تتقاطع مع القضية الفلسطينية كقضية مركزية بأبعادها الثلاثة العربية والإسلامية والدولية.

يهدف المركز لتوفير بيئة أكاديمية وعلمية موضوعية منفتحة أمام الباحثين والمهتمين والكتاب والمفكرين، من خلال عقد اللقاءات والندوات والمحاضرات والندوات المتخصصة.

في إطار إسهاماته الفكرية والثقافية يُصدر المركز مجلة فلسطين ارض الرباط كمجلة فصلية سياسية أكاديمية موضوعية؛ كرافد مهتم بتنمية وإثراء الوعي السياسي.

دعوة للكتابة:

يسعدنا في هيئة تحرير مجلة "فلسطين ارض الرباط" دعوة الباحثين والمفكرين إلى الكتابة في المجلة. ونتمنى على الراغبين بالمشاركة أن تكون المقالات والبحوث التي يرسلونها أصيلة لم يسبق نشرها ووفق القواعد التالية:

ترحب المجلة بإسهام المفكرين والباحثين والأكاديميين من جميع الدول العربية. على أن يتبع البحث أو الدراسة الأصول العلمية المتعارف عليها في البحث العلمي والأكاديمي و تحديدا ما يتعلق بالتوثيق والمصادر والمراجع. وتتم الموافقة على نشر المادة بعد إجازتها من هيئة تحكيم المجلة، وتحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة وفق خطة التحرير.

المحتوي

افتتاحية وترجل الفارس..... 6

أولا/ الدراسات:

الكِفاح المسلّح بين المقدّس الوطنيّ والمُحرّم الوطنيّ..... 9

علم النفس السياسي في العالم العربي..... 20

السلفية المعاصرة من المركز إلي الهامش..... 27

المجتمع الفلسطيني في القدس بين سيناريوهين: الصمود والاندماج..... 34

ثانيا/ المقالات:

فتاوي التطبيع في عصر علماني..... 55

قراءة جيوسياسية لتطبيع ابن زايد مع اسرائيل..... 60

الاطماع الإسرائيلية في المياه العربية والدور الاثيوبي..... 65

في دلالات موجة التطبيع الجديدة..... 71

ثالثا / ملف العدد وترجل الفارس:

أولا: مرايا محمد الفاتح

هاني عابد..... 76

ما بعد النكبة الثالثة..... 79

محمود خواجا..... 82

غزة في قلب العرب..... 86

بعد القدس الخيانة ترتكب العرب..... 89

هل تستقيل الوردة من عطرها..... 93

والنعم يا من تركتم لنا الوصية..... 97

أخر كلمة للدكتور رمضان ذكرى النكبة عام 2017 100

ثانيا: في رثاء الدكتور رمضان شلح

رمضان عبد الله: القائد المفكر والمناضل الواقعي..... 107

رمضان شلح في ذمة الله وداعا أيها الأخ والصديق..... 112

فلسطين حزينة على فراقه..... 116

رمضان شلح، الرجل الذي كرس حياته لفلسطين..... 118

رمضان شلح...وأخيراً قررت الرحيل أيها القائد النبيل!..... 124

رمضان شلح.. القيادة في ظروف صعبة..... 126
رحيل رمضان شلح..... 131
رغم رحيلك الحزين.. خيمتك لا زالت تظللنا..... 133
خولة تجيب محمد الفاتح..... 136
في رثاء أمين الجهاد والمقاومة في فلسطين وقمرها البهيّ..... 137
الشّهيد رمضان شلح إنّه "ناسِكُ" الثّورة الفِلسطينيّة وواحدٌ من أصلب رجالاتها..... 141
ابا عبد الله سلاما..... 145
رحيل القائد رمضان شلّح.. رجل المواقف..... 147
الدكتور رمضان شلّح الفكرة والثورة..... 152
طوبى لمن فقدنا جسده ولم نفقد منهجه .. الدكتور رمضان شلح..... 155

رابعا : لقاء العدد:

حوار الدكتور رمضان مع مجلة الدراسات الفلسطينة خريف 2014..... 157

خامسا : قراءة في كتاب:

أفول الغرب..... 188

سادسا : ترجمة خاصة:

الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والصين.... هل بدأت بالفعل ؟!..... 193

افتتاحية

وترجل الفارس

لم يكن الدكتور رمضان عبد الله شلح عاديا على الإطلاق، وكيف يكون عادياً وهو رفيق درب الرجل الاستثنائي في الزمان والمكان، كيف يكون عادياً وهو يكمل مشوار الشقاقي الشهيد، عندما ترجل الشقاقي رحمه الله عام 1995 كانت الأجواء ملبدة بغيوم السلام والتسوية ووهم السلطة وبناء الدولة الفلسطينية ولو على شطري غزة وأريحا، كان السلام قد هجم على الوعي وعلى الفكر وأمسك بتلابيب المشهد الفلسطيني، فكان التحدي الأول، أن تقود حركة كحركة الجهاد الإسلامي ولم تتعدَ العقد الثالث والنصف من عمرك إلا قليلا، نعم عندما تحمل الدكتور رمضان شلح مسؤولية الأمانة العامة لحركة الجهاد الإسلامي كان عمره 37 عاما فقط، وكان حاصلا على الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي من لندن شمال بريطانيا ولم يتجاوز 25 عام من عمره ، ثم أستاذ لدراسات الشرق الأوسط في جامعة جنوب فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية مطلع التسعينات. وشاب في مقتبل عمره وقد فتحت له الدنيا أذرعها، ورغم ذلك لم يلتفت ولم يستحضر حسابات الذات وغلب العام على الخاص، فعاد إلى الشام ليقود سفينة الجهاد الإسلامي ولتستمر السيرة الجهادية الثورية التي خطها ووضع نواتها الشهيد الشقاقي ولتتغلب ذات الشوكة على ما سواها. ورغم الهجوم الذي تعرضت له الحركة من الذين لم يكن أمامهم من خيار إلا السلام والتسوية، لم يصطدم مع أي طرف وغلب الوحدة وحدة الوطن والفكر والأمة على ما سواهما لكن لم يكن ذلك على حساب خيار المقاومة والاشتباك مع الاحتلال.

لم يستقر له الحال حتى اندلعت انتفاضة الأقصى بعد خمس سنوات فقط على توليه الأمانة العامة، فحضرت حركة الجهاد الإسلامي وجناحها العسكري سرايا القدس كممارسة وحضر ما حذر منه الدكتور رمضان شلح كفكر من أن التسوية تسير في طريق مسدود، فكانت انتفاضة الأقصى شاهدا على صوابية ما قاله الرجل ونادى به، فعاد المشهد الفلسطيني بكل مكوناته إلى خيار المقاومة والاشتباك مع الاحتلال ، فقدمت حركة الجهاد الإسلامي سلسة من العمليات النوعية المتفردة التي أكملت ما خطه الشقاقي ورفاقه رحمهم الله فكانت

السرايا المظفرة امتداداً لقسم التي أقسمت على الثأر مستحضرة الإيمان والوعي والثورة. مُحدثة نقلة نوعية في الحالة الفلسطينية منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضي.

وفي زمن الانقسام وزمن الاقتتال الفلسطيني – الفلسطيني نجا بحركة الجهاد عن الاصطفاف وعن الاقتتال ، وعاد ليقول لا مخرج إلا بالوحدة الوطنية الفلسطينية، وعلى الرغم أن الحركة لم تكن طرفا في الانقسام أو السلطة أو الحكم أو الانتخابات ولم يتبدل موقفها بتبدل أمنائها العامين من المشاركة في السلطة أو الانتخابات تحت حراب الاحتلال، إلا أن الرجل قال وحضر كل لقاءات المصالحة في القاهرة، بل ذهب بعيدا عندما قدم مبادرة لا للتصالح بين فتح وحماس وفقط ولكن لتكون خارطة طريق للمشهد الوطني الفلسطيني كله وتعيد بناء المشروع الوطني الفلسطيني بمختلف مشاربه، ولترتيب البيت الفلسطيني على قاعدة الجهاد والثورة والمقاومة بدلا من التفريط والتنازل.

لم يكن رحمه أمينا عام لحركة مجاهدة فقط، بل كان مفكرا وشاعرا وكاتبا، ولم يعفه تخصص الاقتصاد من التعمق في الأدب، ولم تغنه الانجليزية عن الإمساك بتلابيب اللغة العربية وبحورها وتراكيبها ومفرداتها. وكان ملتزما مع صحيفة الاستقلال بزاوية مرايا والتي اختار أن يكتب اسمه محمد الفاتح.

كثيرة هي المحطات وطويل هو المشوار الذي رسمه وخطه وسار فيه الدكتور رمضان شلح رغم التحديات الداخلية والعربية والإقليمية والدولية.

جمعتني به بفضل الله وتوفيقه عدة لقاءات، كم كان متواضعا، كان هو أمين عام حركة الجهاد الإسلامي وما استحضر هذه الهالة في لحظة من اللحظات، كنت اسأله فيجيب باستفاضة، كان قريبا ودودا حبيبا لطيفا كريما لا يضجر بل وهو من هو لا يُقاطعك إطلاقا، ويسألك ويستمع إليك ، كان منفتحا على كل الآراء والأفكار، كنت أجد عنده ضيوفا إسلاميين ويساريين وقوميين ، كان يسأل عن أصدقاء قُدم ويحرص على لقائهم والاجتماع بهم كلما زار القاهرة ، لم تشغله لقاءات المصالحة أو التهدئة عنهم، سألني مرة عن دكتور مصري من الصحبة القديمة فأخبرته انه يدرس في إحدى الجامعات التركية فطلب رقمه وحرص على أن يهاتفه ويطمئن عليه.

كل الكلمات واللحظات والذكريات لا تف الدكتور رمضان شلح حقه، كل الرثاء وكل الحزن لا يكفيه، حتى البكاء أقل منه، لم يكن أمينا عاما فقط بقدر ما كان أخاً وصديقاً وإنساناً ومفكراً وشاعراً . رحل الدكتور رمضان رحمه الله مبكرا كنت قد طلبت منه واقترحت عليه الشروع في كتابة مذكراته ويومياته، فاخبرني أن هذا سيكون مشروعه القادم، ووعدني بالاشتراك في ذلك واخبرني أن باحثا قوميا كان قد طلب منه ذلك فهمس لي أنت أبدا وأولى بالمذكرات... لكنها سنة الحياة وأقدار الله ولا نقول إلا ما يرض الله، إنا لله وإنا اليه راجعون رحمة الله عليك أبا عبد الله.

أتذكر كلماته العالقة التي سمعتها منه مباشرة عندما ختم كلمته في مؤتمر التهدئة نوفمبر 2012 وكان رحمه الله قد قدم خالد مشعل في المؤتمر قبله، فقال "لا تسترخوا، ابقوا مستنفرين، ثقوا بأنكم أمام غد مشرق بعد اليوم، فأنتم أجبتم على السؤال الذين طالما طرحناه، وهو كيف يمكن أن تتحرر فلسطين؟".

رئيس التحرير

الكِفاح المسلّح بين المقدّس الوطنيّ والمُحرّم الوطنيّ

قراءَة في فكر الرّاحل الدّكتور رَمضَان عَبد الله شَلّح

• بقلم: محمد أبوجبارة

ليس من المُبالّغ فيه القولُ أنّ أدبيّات الثورة الفلسطينيّة المُعاصرة وخاصّةً في انطلاقتها الأولى أكّدَت على الكفاح المسلّح بأنّه الطريق الأصوب في تحرير الأرض وطرد المحتل واستعادة الحقوق.

وقد غدا – آنذاك – شعارُ الكفاح المسلّح برّاقاً وهّاجاً، فالتفّ حولَه عشرات الآلاف من المتطوّعين داخل الأرض المحتلّة، من محيطها وخارجها، بل ومن شتّى أصقاع الأرض، وأخذت وتيرةُ التدافعِ على القتال والتسابقُ للاستشهاد ترتفعُ، وأخذت الحماسةُ تُجاه الكفاح المسلّح تزداد بما لا يحملُ شكّاً أنّه قد أضحى مفهوماً مقدّساً لا يجوزُ المساسُ به.ووصفُ الكفاح المسلّح بالقدسيّة صوابٌ بعينهِ، فإجماع أبناء الشّعب الفلسطينيّ على مُعتقدٍ واحدٍ يسهّلُ مهمّة التحرير، ويُسرّعُ في جِلاء المحتلّ، فكيفَ بكَ إن كان المعتقدُ مُقدّساً، وكان هدفُ المقدسِ مقدسٌ؟

ولكن مع مرور الوقت بدا هذا الكفاحُ المسلّح "المقدّس الوطنيّ" وكأنّ وعكةً ألّمت به، وبات يُخشى أن يُفقد بها، فظهرَت عليه الخلخلةُ، وأخذ يهوي في منحنى التراجع، فتراجعَت أهميّتهُ فاقداً الزّخمَ الّي اكتسبهُ بالعرق والدموع والدماء، ليتحوّل من "أسلوبٍ وحيد" إلى أسلوبٍ رئيسيّ، بما يوحي لكَ أن اشكالاً وأساليب أُخَرى قد زاحمَت الكفاح المسلّح، وطفَت على السطح على حسابهِ، ولم يقف الأمر

عنـد هـذا الحـدّ، بـل اسـتمرّ التراجـعُ إلى أن أمسـى الكفـاحُ المسـلّح لـدى منظّمـة التحريـر أسـلوباً محرّمـاً، وظهـرَ أمـام الجميـع أنّ هـذا الأسـلوبَ يتيـمٌ لا ظهـرَ لـهُ، أسـلوبٌ مضطهـدٌ مُلاحَـقٌ مَطلـوبٌ رأسـهُ، وكـما تنبّـأ الدكتـور رمضـان قبـل عقدَيـن تامّيـن مـن الزمان،وصـلَ هـذا الأسـلوبُ إلى التنـازل المُسـمّى بالتفـاوض، وقـد أُعلـن عـن فشـل هـذا التحـوّل بـل قـد أُعلنـت الهزيمـة عـلى لسـان أمـين سر اللجنـة التنفيذيـة لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية المعروف بلقـب "كبـير المفاوضـين"، أحـبّ الألقـاب إليـه، عندمـا كشـف عـن حجـم التنـازلات التـي ترتقـي إلى مرتبـة تبديـد وطعـن "المشروع الوطني الفلسـطيني" عـلى نحوٍ يصعب الاسـتنتاج أن مكسـباً مـا وإن قـلّ سـيحصل عليـه الفلسـطيني مـن طاولـة المفاوضـات، فعـلى مسـيرة ربـع قـرن مـن العـار المُسـمّى "أوسـلو" يعـترف عريقـات لبـن كسـبيت رئيـس تحريـر صحيفـة معاريـف الصهيونيـة اليمينيـة أن المفاوضـات انتهـت إلى "لا شيء"1، ومـا كان ذلـك ليكـون لـو أنّ قداسـةً شرعيـةً كانـت مُضفـاةً عـلى الكفـاح المسـلّح الفلسـطيني،ووقفت في وجـه عُريقـات رادعـةً لـه عـن التنـازل والتخـاذل.

يعتقـدُ الراحـلُ الدكتـور رمضـان عبـد الله شـلّح - كـما هـو حـال مُعتقـدي المنهـج الإسـلامي في الـصراع - أنّ الـصّراع مـع العـدوّ الصهيـونيّ مقـدّسٌ، لأنّـهُ وإن كان مقدّسـاً وطنيّـاً في إحـدى مُسـمّياته، فهـو في أصـل وضعـهِ جهـادٌ في سـبيل الله تعـالى، فالرجـلُ يؤصّـلُ للـصراع في سـياق المفهـوم الإسـلاميّ، وبعبـارةٍ أُخـرى لـو طرحنـا سـؤالاً بسـيطاً عـلى أبنـاء الكفـاح المسـلّح، إذا مـا أردتـمُ اسـتمراريّة الكفـاح عـلى نحـوٍ يحصـدُ الثمـرات المرجـوّة، فـما هـو الأسـاسُ الفكـريّ والعقائـديّ للكفـاح المسـلّح؟ لا أعتقـدُ أنّ إجابـةً مقنعـةً سـتطرقُ الأذهـان، إذ لـو وُجـدَت لكانـت عـلى صورتهـا الإسـلاميّة التـي يُعاندونهـا، هنـا نسـتطيعُ القـولَ: إنّ الأسـاس الفكـريّ والعقائـديّ الإسـلاميّ هـو الضامـنُ لاسـتمراريةّ العمـل المسـلّح، وهـذا مـا جـاء بـه مؤسـس حركـة الجهـاد الإسـلامي في فلسـطين وأمينُهـا الأوّل الدكتـور فتحـي الشـقّاقي، إذ كان الطّـرحُ الإسـلاميّ منـذ إعـلان قيـام دولـة الاحتـلال حتـى أواخـر السـبعينيات ومطلـع الثمانينيـات غائبـاً، ولم يكـن غيابـهُ ذاتيّـاً، إذ لا يخفـى عـلى الجميـع أنّ منظمـة التحريـر وفي كل أماكـن وجودهـا تعمّـدت تغييـب مصطلـح "الجهـاد في

سبيل الله"وأنّى لها هذا؟ ولم يكُن آنذاك من مسوّغٍ يدفعُ الفلسطينيّ للإحجام عن طرح المشروع الإسلاميّ بجرأة، كما فعلَ الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله، فالمشروعُ الإسلاميُّ أثبتَ صوابية طروحاته مقارنة مع الطروحات الآخرى على سمتوى النتائج.

لعلّ التخوّفَ أصابَ القوم إذ لم تتعرض شعيرة من شعائر الإسلام للتشويه والتوظيف كما تعرّضت شعيرة الجهاد، إما من جهة المفهوم والتصوّر أو من جهة التطبيق، بل حتّى مجرد ذكر هذا المصطلح (الجهاد) كان ولا يزال يثير الرّيبة عند البعض، ويتحاشى الكثير في بعض البلدان الحديث عن هذه الشعيرة والحث عليها أو ربما تلاوة النصوص التي تحث على الجهاد في سبيل الله تعالى، بل بلغ الأمر مداه حينما خُيّل للكثير أن هذا المصطلح من أدبيّات "التكفيريين"المصنوعين على أعين الغرب والصهاينة، والحقيقة التي لا شك فيها ولاريب أن أهل الحق والسّنة أولى بهذه الشعيرة، وأن هذه الشعيرة من مفاخر الشريعة العظيمة، وأن الدولة المسلمة لا عزّ لها ولا منعة دون هذه الشعيرة، غير أن المشكلة تتلخص في كيفية تقديم هذه الشعيرة للناس تقديماً صحيحاً، كما جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يؤكدُ الدكتور رمضان رحمهُ الله تعالى أنّ الحث على الجهاد في الكتاب العزيز قد بلغَ مبلغاً عظيماً، حتى وصف الله عز وجل الجهاد بأنه عملية مقايضة بين المجاهد في سبيل الله وبين الله، فالمجاهد هو البائع والمشتري هو الله، والسلعة هي الروح، والثمن هو الجنة «**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**»"التوبة111"أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بلغ أيضا في سنّته مبلغاً عظيماً في الحثّ على الجهاد حتى سماه «ذروة سنام الإسلام»، وفي حديث آخر تمنى صلى الله عليه وسلم أن ينال الشهادة في سبيل الله المرة تلو المرة كما في الحديث الصحيح «والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما

أحملهـم عليـه مـا تخلفـت عـن سريـة تغـزو في سـبيل الله، والـذي نفـسي بيـده لـوددت أني أقتـل في سـبيل الله، ثـم أحيـا، ثـم أقتـل، ثـم أحيـا، ثـم أقتـل، ثـم أحيـا، ثـم أقتـل»[2].

وقولـه صـلى الله عليـه وسـلم (تَضَمَّـنَ اللهُ لِمَـنْ خَـرَجَ فِي سَـبِيلِهِ، لا يُخْرِجُـهُ إلاَّ جِهَـادٌ فِي سَـبِيلِي، وإِيـمَانٌ بِي وَتَصْدِيـقٌ بِرُسُـلِي فَهُـوَ ضَامِـنٌ عـلَيّ أَنْ أُدْخِلَـهُ الجَنَّـةَ، أَوْ أَرْجِعَـهُ إِلَى مَنْزِلِـهِ الَّـذِي خَـرَجَ مِنْـهُ بِـمَا نَـالَ مِـنْ أَجْـرٍ، أَوْ غَنِيمَـة، وَالَّـذِي نَفْـسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ مَـا مِـنْ كَلْـمٍ يُكلَـم فِي سَـبِيلِ اللهِ إلاَّ جَـاءَ يَـوْمَ القِيامَـةِ كَهَيْئَتِـهِ يَـوْمَ كُلِـم، لَوْنُـهُ لَـوْنُ دَم، وَرِيحُـهُ رِيـحُ مِسْـكٍ، والَّـذِي نَفْـسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ لَـوْلا أَنْ أَشُـقَّ عَـلَى الْمُسْـلِمِينَ مَـا قَعَـدْتُ خِـلاف سَرِيَّـةٍ تَغْـزُو فِي سَـبِيلِ اللهِ أَبَـدًا، ولكِـنْ لاَ أَجِـدُ سَـعَة فَأَحْمِلَهُـمْ وَلاَ يَجِـدُونَ سَـعَةً، وَيَشُـقُّ عَلَيْهِـمْ أَنْ يَتَخَلفـوا عنِّـي، وَالـذِي نَفْـسُ مُحَمَّـد بِيَـدِهِ، لَـوَدِدْتُ أَنِي أُغـزَوَ فِي سَـبِيلِ اللهِ، فَأُقْتَـل، ثُـمَّ أُغْزَو، فَأُقْتـل، ثُـمَّ أُغـزُوَ، فَأُقتل،وَعَنْـهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: مَـا مِـنْ مَكلـومَ يُكْلَـمُ فِي سَـبِيلِ اللهِ إلاَّ جَـاءَ يَـوْمَ القِيامَـةِ، وكَلْمُـهُ يَدْمـى: اللـوْنُ لـونُ دمٍ والريـحُ رِيـحُ مِسْـكٍ. متفـقٌ عليـهِ.)[3]

فهـذا الحديـث وغـيرهُ يسـتدلّ بـه الدكتـور رمضـان رحمـه الله في فضـل الجهـاد في سـبيل الله وبقـول الله تعـالى ((: وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِيـنَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُـونَ [آل عمـران:169] فهـم عـلى خـير عظيـم ولهـم فضـل كبـير، ولهـذا قـال عليـه الصـلاة والسـلام: إن الله جـل وعـلا تضمـن يعنـي" ضمـن "لمـن خـرج في سـبيله، لا يخرجـه إلا الجهـاد في سـبيله، والتصديـق برسـله أنـه إن توفـاه يدخلـه الجنـة، وإن ردهُ ردهُ سـالماً مع ما نـالَ مـن أجـرٍ أو غنيمـةٍ، وأنّ مـا مـن مكلـوم يُكلـم في سـبيل الله إلا جـاء يـوم القيامـة وكلمـه يعنـي جرحـه يدمـي يعنـي يسـيل دمـا اللـون لـون الـدم والريـح ريـح المسـك شـهادة لـه يـوم القيامـة بأنـه قتـل في سـبيل الله، فهـو عـلى خـير إن عـاش، وإن مـات فهـو شـهيد لـه الجنـة والكرامـة إذا أخلـص لله وصـدق لله وجاهـد في سـبيله لا ريـاء ولا سـمعة، ولهـذا أخـبر النبي ﷺ أن المجاهـد مضمـون عنـد الله جـل وعـلا أنـه إن توفـاه أدخلـه الجنـة، وإن رده رده سـالما مـع مـا نـال مـن الأجـر أوالغنيمـة التـي نالهـافي سـبيل الله ، وفي الحديـث الآخـر يقـول ﷺ: مـا مـن ميـت يمـوت لـه عنـد الله خـير يتمنـى الرجـوع إلى الدنيـا إلا الشـهيد فإنـه يتمنـى أن يرجـع إلى الدنيـا فيقتـل عـشر مـرات لمـا يـرى عنـد الله مـن فضـل الشـهادة وأجـر أصحابهـا)

فينبغي للمؤمن أن تكون عنده نية صالحة وعزم صادق على الجهاد إذا تيسر، ولهذا قال النبي ﷺ: من مات ولم يغزُ، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق فالمؤمن يضمر النية الطيبة، والجهاد في سبيل الله إذا تيسر، وله أجره عند الله.

وبعد هذا – الأساس المتين الذي يرتكز عليه فكرُ الدكتور رمضان –هل يمكن شرعاً وعقلاً أن تبلغ هذه الشعيرة تلكم المنزلة وهذا المقام العظيم ثم بعد ذلك تكون بهذا الفتور والتغييب الخافت لدى المسلمين عموماً ولدى أبناء الشعب الفلسطيني خصوصا؟ بل بكل أسف كان حضور المصطلح الجهاديّ يثير الريبة والتوجس في بعض الأحيان، وتعدى الأمر إلى أبعد من هذا، وذلك بمحاولة إيجاد علاقة عضوية بين الجهاد والإرهاب عند من غاب عنهم الفقه والرشد، وتماهوا مع دعايات الأعداء!

لقد عدّ الدكتور رمضان رحمه الله تعالى الجهلَ في فقهِ مفهوم الجهاد سبباً رئيساً في الإحجام عنهُ، ما ترتّب عنه الانتماء إلى جماعاتٍ ومذاهبَ شتّى، واعتقاد مُعتقَدها أيّاً كان، ثم الدفاعَ عنهُ والتصديّ لمواجهيه، إذ لا نزالُ حتّى اليومَ نتوَهّمُ قتالاً دائراً ودماءً مُسالةً إذا ما سمعنا بمصطلح "الجهاد".

(...قد يطرح البعض مفهوم القوميّة، وقد قلنا يوماً بقوميّة المعركة، وليتها ظلّت كذلك –حتّى الميثاق الذي ندافع عنه اليوم لم يحمل فكرة قوميّة المعركة– الذين صاغوا الميثاق الوطنيّ لم يعجبهم أنّ الشعب الفلسطينيّ، «جزءٌ لا يتجزّأ من الأمّة العربيّة، يشترك معها في آمالها وآلامها وكفاحها»شطبوا هذا الكلام وكأنّهم كانوا يحضّرون لما يحدث اليوم، أنْ ننفصل عن العرب ونرتمي في أحضان إسرائيل.

البعد القوميّ –لمقدّس القوميّ–، شُطب مبكراً والآن لحق به «المقدّس الوطنيّ»، ولم يبق أمامهم إلّا المقدّس الدينيّ، الذي يرون في عودته إلى ساحة المعركة خطراً كبيراً يلاحقونه باسم «مكافحة الإرهاب»لذلك وحتّى لا نصبّ الحَبَّ في طواحين الأعداء، يجب أنْ ندرك أنّ بروز التيار الإسلاميّ ونهوضه بعبء الجهاد والمقاومة في فلسطين أو

جنوب لبنان لا يشكّل تحدياً لأحدٍ في القوى الحيّة في الأمّة، وهو لا يطرح شعار إسلاميّة المعركة كنقيضٍ لشعار وطنيّة أو قوميّة المعركة، بمعنى أنّه لا يُلغي البعد الوطنيّ أو البعد القوميّ للمعركة، بل يتكامل معهما، فهي معركةٌ وطنيّةٌ قوميّةٌ إسلاميّةٌ...)

إن مفهوم الجهاد في الإسلام مفهوم عظيم وشامل، فهو الأقوى الذي يستمدّ القوّة من بحرٍ لا ينضَب، يؤتى أصحابهُ قوّةً إلهيّةً، كما حدثَ مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم وأصحابهُ في غزوة بدر، و يكون مرة قتالاً، ويكون مرة صلحاً، ويكون مرة سلماً، ويكون مرة هدنة، وقد سمى الله عز وجل صلح الحديبية «فتحاً مبيناً»، وهو صلح لم ترق فيه نقطة دم واحدة! فقال سبحانه: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»، أما قتال العدوّ بحد ذاته فليس هو مما يُرغب فيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا تتنموا لقاء العدو واسألوا الله العافية»، بل قبل ذلك في القرآن الكريم حينما رغب الله تعالى بالجهاد في سبيله فقال سبحانه: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» ثم في آخر الآية ندب إلى السلم وحث عليه فقال سبحانه: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها»، وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه يوصيه أن يختار في حالة الفتنة والاشتباه خيار السلم، فيقول له " كما في مسند الإمام أحمد ": «إنه سيكون بعدي اختلاف فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل».

إذاً وجبَ العلمُ على أبناء الثورة الفلسطينية أن لا حرجَ - بعد فقهِ الجهاد على وجهه- أن يكونَ الجهادُ مقدّساً وطنيّاً، وأن يكونَ المقدّسُ الوطنيُّ جهاداً، أوعلى هكذا في أحد مُسمّياته على الأقلّ، فلا مسوّغ للخجل والإحجام عن مشروعٍ أثبتَ في التاريخ أنّ المقاومة إن لم تكُن جهاداً تضعضعت ولانَ جانبُها، وأصبحت ترى المساومةَ تخرقُ جدرانها، ويستدلّ الدكتور رمضان في ذلك بثورة عام 1936م،(... إنّ بذرة المساومة التي نعاني منها اليوم قد زُرعت مبكّراً. وأستحضر هنا مثالاً واحداً من التاريخ، في واحدةٍ من أنصع صفحات النضال؛ وهي: ثورة 1936 والإضراب الكبير الذي قيل: إنّه أطول إضرابٍ في تاريخ الثورات.

كلّكم يعرف كيف تدخّل الزعماء والملوك العرب؛ لإجهاض تلك الثورة بندائهم الشهير لشعب فلسطين حيث دعوه إلى «الإخلاد إلى السكينة»، والأمل بأنْ تُحلّ المسألة بالطريق السلميّ بالرهان على «صديقتنا» بريطانيا!، كما عرّفها أصحاب الخطاب، أمام القتل والذبح والإرهاب الذي مارسه المشروع الصهيونيّ بدعمٍ من الاستعمار البريطانيّ، الشعب مدعوٌّ إلى الإخلاد للسكينة بدل المقاومة.

هذا الخطاب وجد استجابةً، بل إنّ شعار «الإخلاد إلى السكينة» كان له أنصارٌ مثّلوا نهج المساومة، بل الطابور الخامس في أوساط الشعب الفلسطينيّ...)[5]

وبالنظر إلى "المقدّس الوطني" في فكر الدكتور رمضان رحمه الله تعالى تجدُ أنّ الرجلَ قد أظهرَ الفارقَ الذي لو اتُّخذَ بالحسبان لتغيّر وجه الصّراع ولربما كان قد انتهى، وقد طرحَ ذلكَ وبجرأةٍ لم يعهدُها غيره، إذ كانَ الطرحُ في دمشقَ المحكومة بالعَلمانيّة عندما دُعي "رحمه الله "من قِبل المنتدى الحضاري وحاضَرَ حول : ((مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة))[6] وبدقّة واضحة جاء كلامهُ في سياق التأكيد على أنّ دحرَ الاحتلال من بقعةٍ ما لن يتأتّى إلا بالجهاد، ودخل إلى توصيف هذا الجهاد الذي لا يختلف مع من يُسمّيه مقاومةً، وقدّم نظرة سريعة للمقاومة فلسطينياً بوصفها قد نشأت تحت اسم "الكفاح المسلح" ثم ما لبثت أن أضحَت مقدّسا وطنياً، فتزلزلَ هذا المقدّسُ الوطنيّ كما مرّ معنا، وهنا وبحكمته المعهودة تطرّق إلى المقدّس الوطني باعتبارهِ جهاداً في سبيل الله، مأخوذاً من كتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

(...إنّ «المقدّس الوطنيّ» لا يمكن أنْ يواجه عدوّاً في معركةٍ تقوم على «مقدّسٍ دينيٍّ» عقائديٍّ توراتيٍّ تلموديٍّ بغضّ النظر عن تقييمنا لهذا المقدّس إنْ كان صحيحاً أم أنّه يقوم على الخرافة والأسطورة كما نعتقد، فالعدوّ جاءنا حاملاً مقدّساً دينيّاً يحشد اليهود الذين كنّا نسميهم شذاذ الآفاق؛ ليقاتلونا تحت راية «المقدّس الدينيّ» الذي أباح لهم اغتصاب أرضنا وتشريدنا وقتلنا وكلّ ما فعلوه بنا حتّى اليوم، فهل يمكن

لرايـة المقـدّس الوطنـيّ أنْ تصمـد في مواجهتهـم؟ ربّـما كان مـن الممكـن لـو أنّ الجماعـة قـرّروا الصمـود إلى النهايـة؛ لكـنّ هـذا لم يحـدث للأسـف، فـإذا تعـذّر ذلـك، لمـاذا نـصرّ عـلى مواجهتهـم بالمقـدّس الوطنـيّ ونحـن نملـك المقـدّس الدينـيّ الـذي لا يأتيـه الباطـل مـن بين يديـه ولا مـن خلفـه؟، هـذا هـو السـؤال الجوهـريّ الـذي يجـب أنْ نطرحـه هنـا...) [7]

يتّضـح وضوحـاً لا لبـسَ فيـه أنّ "المقـدّسَ الوطنـيَّ" عديـمُ الصمـودِ مـا لم يكُـن جهـاداً مضمونـةٌ اسـتمراريتهُ، وإشـارةُ الدكتـور رمضـان إلى المعتقـد التـوراتيّ التلمـوديّ لـدى الصهاينـة تضـعُ المتبنـينَ للكفـاح المسـلّح في قفـص الإحـراج، وهُنـا يـأتي بملحوظـةِ بعـدم جـدوى الإصرار عـلى مواجهـةِ المقـدّس الدينـيّ بالمقـدّس الوطنـيّ كملحوظـةٍ دقيقـة بـاتَ مـن الواجـبُ الإلحـاحُ عـلى طرحهـا.

(...إنّ الكفـاح المسـلّح عندمـا نُحِتـتْ لـه هـذه التسـمية واسـتعيرت مـن أدبيّـات وتجـارب شـعوبٍ أخـرى ضمـن إطـارٍ فكـريٍّ مـاديٍّ لا مـكان فيـه للمقـدّس الدينـيّ، لم يراعِ خصوصيّـة الشـعب الفلسـطينيّ كشـعبٍ عـربيٍّ مسـلمٍ، والعلاقـة بـين العروبـة والإسـلام، علاقـةٌ لا تنفصـم، وكذلـك هـي العلاقـة بـين الوطنيّـة والإسـلام، نحـن بـما نملـك مـن تاريـخٍ وحضـارةٍ لم تكـن تنقصنـا أدواتٌ أو مناهـج في المواجهـة مـع الغـازي الأجنبـيّ، وهـذه الأرض تشـهد بذلـك، فهـي مليئـةٌ بعظـام الشـهداء، وجماجـم الأعـداء الذيـن طحنتهـم الأمّـة كغـزاةٍ طامعـين فيهـا، فالأمّـة دومـاً وكـما حـال الأمم الحـرّة واجهـت الغـازي الأجنبـيّ بأعـزّ وأقـدس مـا تملـك، بأرواحهـا ومقدّسـها الدينـيّ، هـذا المقـدّس الدينـيّ اسـمه في عقيدة الأمّـة وشرعهـا «الجهـاد»، وهـو في الديـن الإسـلاميّ الركـن السـادس مـن أركان الإسـلام، وقـال عنـه النبـي صـلّى الله عليـه وسـلّم: «إنّـه ذروة سـنام هـذا الديـن...) [8]

إذن الجهـاد في الإسـلام -الكفـاح المسـلّح في أدبيّـات الثورة الفلسـطينيّة-هو: مقدّسٌ دينـيٌّ كـما هـو حـال الفرائـض الإسـلاميّة (...فعندمـا يقـول القـرآن: ﴿**كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الصِّيَـامُ**﴾، نـراه يسـتخدم الصيغـة نفسـها في الجهـاد فيقـول: ﴿**كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الْقِتَـالُ**﴾،

والقتال هو: الجهاد، والآيات التي تتحدّث عن فرض الجهاد وأحكامه كثيرةٌ، وكذلك السنّة والسيرة وتاريخ الإسلام كلّها حافلةٌ بالأحكام والأحداث التي تطرح الجهاد كـ «مقدّسٍ» في ذاته، فلا تُضفي عليه القداسة اليوم، كما حدث مع المقدّس الوطنيّ ثمّ تحرّمه فيما بعد...) [9]

بعد تسليط الضوء على هذا الأُسّ الهامّ، يتساءل الدكتور رمضان عن طبيعة تعامُل الحاكم أو القائد مع الجهاد كمقدّس دينيّ، هل بإمكانه أن يُقحمهُ في السياسةِ؟ أو أن يضعهُ على طاولة المفاوضات؟ أو أن يستبدلهُ ؟

(...المشكلة بدأت عندما استُبعِد المقدّس الدينيّ، وعندما استُبعِد الجانب العقائديّ، بما يحمله من مخزونٍ روحيٍّ تعبويٍّ من المعركة، وعندما لم يتمّ تداول هذه الأداة(الكفاح المسلّح) من منظور الدين وضمن مفهوم الحكم الشرعيّ الذي هو في صلب عقيدة الأمّة وانتمائها، وُضع الكفاح المسلّح لقمةً سائغةً للناس ليرفعه مَنْ يرفعه ويشطبه مَنْ يشطبه، وعندما يُطرح الكفاح كجزءٍ من الدين اسمه "الجهاد" يصعب على الناس التفريط فيه؛ لأنّهم يأثمون، أمّا عندما يناقش الكفاح المسلّح في ظلّ أوسلو، أو في ظلّ وثيقة أبو مازن-بيلين ماذا يقولون لك؟، نحن غير قادرين على مواجهة قوّة إسرائيل، العرب لم يساعدونا..، الاتحاد السوفييتيّ انهار..، موازين القوّة في غير صالحنا..، وغيرها من الحجج...) [10]

هَب أنّ الجهادَ اتُّخذَ مُقدّساً على ما وضعهُ الله تعالى عليه، كيف كان سيُنظر إلى التنسيق الأمنيّ ، والتعاون الاقتصادي، والتخاذل التربويّ، الحرام هو الذي يردع المسلمَ عن التعامل مع العدوّ، لأنّ " العيب"لا يكفي المرءَ إنْ كان مسلماً، وما إن تدخل الحسابات الماديّة والمصطلحات الوطنية البعيدة عن دائرة الحكم الشرعي فستجرّ القدمَ إلى مستنقع الحرام،وهذا يوضّح لنا موقف الدكتور رمضان من مفهوم «المصلحة الوطنيّة» الذي يُعدّ في هذا السياق مصلحةً شرعيّةً، تضمن لأبناء شعبنا تقديمَ مصلحتهم الوطنيّة فعلاً لا حبراً على الورق.

(...إذا كانـت هـذه المصلحـة غـير مضبوطـةٍ بضوابـط شرعيّـةٍ وأخلاقيّـةٍ، فهـي سـتأكل «المقـدّس الوطنـيّ»، وتلتهـم الكفـاح المسـلّح، وتبـدّد كلّ إنجازاتـه بـل تهديهـا للعدوّ،المصلحـة الماديّـة التي تلبس ثـوب الوطنيّـة سـتفتح البـاب عـلى مصراعيـه للتطبيـع مـع العـدوّ؛ لأنّ الاقتصـاد والرخـاء والمنافـع هـي العناويـن المطروحـة لتسـويق فكـرة التطبيـع، لذلـك «المقـدّس الوطنـيّ» بمحتـواه الماديّ والمصلحـيّ لا يصمـد في وجـه التطبيـع إنْ لم يشـجّعه، فقـط المقـدّس الدينـيّ، ومفهـوم الحـرام هـو الـذي يمكـن أنْ يوصـد الأبـواب في وجـه التطبيـع...) [11] هـذا هـو التوضيـح الدقيـق للفـرق الدقيـق بـين المصلحـة الوطنيّـة بمفهومهـا الـذي لا ضابـطَ لـه وبـين المصلحـةِ الوطنيـة المضبوطـة بالقواعـد الشرعيّـة.

نخلـصُ إلى أنّ رؤيـة الدكتـور رمضـان تعتمد أنّ الكفاحَ المسـلّح بتجربته الفلسـطينيّة أثبـت أن لا ثبـاتَ لـهُ تحـت رايـةٍ نهايتُهـا متوقّعـة، والمقاومـة بمفهومهـا الجهـاديّ لـن يؤتـى منهـا إلا إحـدى الحُسـنيين، فهـي الرؤيـة الأصـوب لاسـتمرار المقاومـة، فهـل يسـتطيعُ الكيـانُ الصهيونيُّ-بطموحـهِ التوسّـعيّ الـذي لا يقـف عنـد حـدّ جغرافيّ-مجابهـةَ الأمّـة التي حـدّدت مهمّتهـا فاختـارت الإسـلامَ بشريعتـه، والقـرآن بسـننه؟

إن رؤيـة الدكتـور رمضـان الواضحـة، واسـتشرافه المسـتقبليّ للوصـول إلى تحريـر كامـل فلسـطين، اسـتمدّها مـن القـرآن الكريـم ومـن التاريـخ الـذي أمـرَ القـرآنُ الكريـمُ باعتبـاره، وأنّ بدايـة المـشروع البدايـةَ الحـق لـن تتـم عـلى وجههـا إذا لم تُـدرك الشـعوبُ والحكومـات في عالمنـا العـربيّ والإسـلاميّ أن العـدو الصهيـونيّ لم ولـن يخشـى رايـةً يومـاً خـلا رايـة التوحيـد، وأنّـه عـلى جهوزيّـة منقطعـة النظـير لتسـويق بـل وتقديـم الدعـم لأي رايـةٍ أخـرى توهّـمَ رافعوهـا أن التحريـر والنـصرَ آتٍ عـلى أيديهـم.

وبنـاءً عليـه أتـى تفسـيره- رحمـه الله- على نحوٍ يضـع الفارق بـين مقدّسٍ وطنـيّ يؤخذُ عـلى مُدّعيـه أنهـم حولـوه إلى مُحـرّم وطنـيّ تؤتـى المسـألةُ الفلسـطينية مـن قِبلـه، مـع اعتـداد البعـض بقدسـيّته الوهميـة -القادمـة في ظـل غيـاب المقـدّس الحقيقـي -التـي لا ظهـرَ لهـا،

وبين مقدّسٍ وطنيّ تكفّل الله عزّوجل برعايتهِ إلى أن يُظهر أهلَهُ بوعدٍ قطعهُ على ذاتهِ العليّة، فباتَ من المُشاهَد بعد إخضاع المسألة الفلسطينية للمنهج التجريبي أن لا تجربةَ أجدَت النفع في الصراع مع هذا العدوّ المجرم إلا الامتثالَ في هذا الصدد لتوجيهات القرآن الكريم دون سواه، ليبقى المقدسُ الوطنيّ مقدساً حتى النصر وبعده.

المصادر والمراجع:

1 انظر "صائب عريقات في بكائيّاته" صحيفة الرأي الأردنية 2018/ 9/ 16م.

2 رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة

3 رواهُ مسلمٌ في صحيحه وروى البخاري بعضهُ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

4 أنظر كتاب "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح

5 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

6 على مدرج جامعة دمشق في خريف عام 1998م.

7 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

8 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

9 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

10 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

11 "مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة" للدكتور رمضان شلّح.

- القرآن الكريم
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي
- مستقبل فلسطين بين نهج المقاومة ونهج المساومة د. رمضان شلّح
- "صائب عريقات في بكائيّاته" صحيفة الرأي الأردنية 2018/ 9/ 16م.

علم النَّفس السّياسي في العالم العربي : قراءة في أفكار علي زيعور

• ريتا فرح
باحثة لبنانية في علم الاجتماع

يعتبر علم النّفس السياسي من التخصصات الأكاديمية الحديثة. لم تُطرح مساقات له في الجامعات الغربية قبل سبعينيات القرن المنصرم، علماً أن من كتبوا حوله، درسوا تأثير علم النفس في السياسة منذ عشرينيات القرن المنصرم. في العالم العربي يُعد التأسيس لميدان علم النفس السياسي من الضرورات العلمية، نظراً لأهمية هذا الحقل المعرفي في تفسير الظواهر السياسية المركبة والمعقدة، لا سيما تلك المرتبطة بتشريح بنى الاستبداد السياسي والديني والعلاقة التبادلية بينهما، وفهم سيكولوجيا الجموع؛ غير أن غالبية الجامعات عندنا تتفادى تخصيص مواد حول علم النفس السياسي، خوفاً وتوجساً، هذا إذا لم نتحدث عن مخاوف عامة من علم النفس لدى العديد من الصروح الأكاديمية.

إنَّ المشتغلين في علم النّفس السياسي عربياً، عددهم قليل جداً. يمكن الإشارة إلى بعض الأعلام نذكر منهم " على سبيل المثال لا الحصر – المحلِّل النفسي اللبناني عدنان حب الله (ت 2006) صاحب "جرثومة العنف: الحرب الأهلية في صميم كلّ منا" (دار الطليعة، 1998)؛ والأكاديمي اللبناني محمد أحمد النابلسي الذي نشر مجموعة من الكتب في تحليل السياسة والذات العربية من بينها: "النفس المقهورة: سيكولوجية السياسة العربية" (دار النهضة العربية، لبنان، 2009)؛ وعالم النفس المصري مصطفى صفوان "أحد كبار المحللين النفسيين من مدرسة جاك لاكان– صاحب "لماذا العرب ليسوا أحرارا" (دار الساقي، 2012) والذي له إسهامات لافتة في ميدان تفكيك الاستبداد والسلطة المحتكرة في العالم العربي، ونشر عملاً مشتركاً مع حب الله، تحت عنوان "إشكاليات المجتمع العربي: قراءة من منظور التحليل النفسي" (المركز الثقافي العربي، 2009).

علم النَّفس السّياسي العربي: عوامل الانهزام الدَّاخلي

في "التحليل النفسي وعلوم النفس والفلسفات النفسانية: توكيدية وأنسنة في الشخصية والنحناوية كما في التواصلية والعقل" (دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، 2009) يقدم البروفيسور اللبناني في الفلسفة النفسية علي زيعور، مقاربات مهمة حول "علم النفس السياسي العربي". تسعى هذه المقالة إلى الإضاءة على بعض أفكار زيعور التي تضمنها الفصل الثاني من الكتاب "ما بعد تأسيس ميدان علم النفس السياسي".

يلاحظ زيعور "أن علم النفس السياسي العربي، نشأة وتكرس، في سياق تاريخي متحرك بسلسلة من عوامل الانهزام الداخلي؛ وفي مواجهة عدوانية الاستعمار؛ ثم، وعلى نحو خاص، في الصراع مع الاستيطاني المتسلح بدولٍ متوسعة تمددية، ومهتمة بمصالحها الإمبراطورية، وبالاستغلال الاقتصادي السياسي- كما النفسي الفكري- المترابط مع مطامع الحركة الصهيونية".

يقترح صاحب "التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية" على المدرسة العربية في علم النفس والتحليل النفسي ضمناً، مجموعة من القطاعات الطباقية، يدرجها على النحو الآتي:

المرحلة التأسيسية الأطروحية.

- البطل والرئيس العُصابي والزعيم المرضي.
- البطل السياسي الكوني الراهن: انجراحاته وانشطاراته.
- سيكولوجيا السياسة العربية ومستقبل انجراحاتها وأعدائها.
- قطاعات المعتقلات والمخابرات: برمجة الإنسان ثم إلغاء معناه.
- المعافى المعافي والمنجرح.

مصطفى زيور: انطلاقة علم النَّفس السّياسيّ العربيّ

إنَّ تأسيس علـم النفـس السـياسي في العـالم العـربي، جـاء عـلى يـد العـالِم المـصري مصطفـى زيـور (ت 1990)، مؤسـس قسـم علـم النفـس في جامعـة عـين شـمس عـام 1950، وهـو أول قسـم لعلـم النفـس في الجامعـات العربيـة. يشـير زيعـور إلى أن نجـاح زيـور – الرائـد في العقـل الجامعـي العـربي– ابتـدأ في الغـرب، حـين تـرأس عيـادة جامعـة باريـس، وعمـل فيهـا كمحلـل نفسي، وبرز كمؤسـس في الطـب "النفـس بدني". وقـد يكون نجاحـه الأبـرز متمثلاً ليـس فقـط بمنتوجـه، وبنشـاطه كجامعـي ملتـزم؛ بـل أيضـاً بـما تخرج عـلى يـده مـن طـلاب، غـدوا في مجـال التحليـل النفسي، عمالقـة، خدمـوا في الغـرب بنجـاح وشـهرة، نذكـر مـن هـؤلاء مصطفـى صفـوان، سـامي عـلي، أحمـد فـؤاد فائـق.

شـكل كتـاب مصطفـى زيـور " في النفـس : مقـالات مجمعـة في التحليـل النفسي"(مسـاهمات ومقـالات زيـور) فاتحـة انطلاقـه في علـم النفـس السـياسي العـربي، خصوصـاً في تحليلـه لـــ "التعصـب"، كظاهـرة نفسـية اجتماعيـة سياسـية مرضيـة. يقـول: " التعصـب يـؤدي وظيفـة خاصـة تتلخـص في التنفيـس عـما يعتلـج في النفـس مـن كراهيـة وعـدوان مكبـوت، وذلـك عـن طريـق عمليتـي النقـل والإبـدال، دفاعـاً عـن الـذات وعـن مـن تحبـه. فالمتعصـب إذن يجنـي في موقفـه كسـباً، غـير أن هـذا الكسـب لا يختلـف عـما يجنيـه العُصـابي مـن سـلوكه الشـاذ، أي إنـه كسـبٌ وهمـي ناقـص يفـوت عـلى صاحبـه فرصـة حـل إشـكاله حـلاً رشـيداً واقعيـاً مجديـاً".

يـرى زيعـور أن غـرض علـم النفـس السـياسي ومقصـوده، يتحـدد في اسـتقراء التعريفـات والموضوعـات التـي ظهـرت عـلى يـد المؤسسـين أو الآباء. وعـبر اسـتعادته لزيور يؤيـد قولـه عـن لـزوم اسـتبعاد المفاهيـم والاصطلاحـات الفنيـة، حتـى يكـون ذلـك الميـدان، في متنـاول أكـبر عـددٍ مـن القـراء، وذلـك لصلـة موضوعـه بالأحـداث الراهنـة، وخصوصـاً مسـألتي "الحـرب النفسـية" و "الـروح المعنويـة".

الشَّخصيَّة العربيَّة: الاستبداد والقمع السّياسي

يجترح صاحب "المدخل إلى التحليل النفسي والصحة العقلية" مصطلحات نفسية جديدة، لا تخلو من التعقيد، فنجده يتحدث عن "النحناوية" (أي النحن) هذا إلى جانب حفره أو تعريبه لبعض مفاهيم علم النفس في الغرب، حيث يسجل له قدرته على التوليف والجمع والابتكار. إن علم النفس السياسي، كميدان معرفي " كما يلفت زيعور- "ليس هدفه التطوير المعرفي فحسب، وإحصاف النفسانيات من حيث هي علم عام، وبحث نظري، بل وأيضاً، من أجل أن ينهض علماء النفس العرب إلى مستوى المسؤولية والوعي بأن علم النفس يقدم أضواء تنير الطريق إلى المستقبل، وإلى تنمية المواطن والوطن والفكر واللغة، وإلى ربط العملي والقول والممارس بثورات العلوم والتكنولوجيا والصحة النفسية للشخصية والمجتمع، للسياسة والمستقبلانية" .

يقدم علي زيعور في مجموعة القطاعات الطباقية المذكورة أعلاه تحليلاً نفسياً لمجالات عدة. ففي تحليله للشخصية العربية الراضخة للاستبداد والقمع السياسي "أو حتى الديني- يلاحظ "أن التصورات الايجابية عن الحياة والكون (التراث، السياسة الآخر) حالة نفسية عند الراشد السوي، تعاد إلى تجربة السنوات الأولى من العيش مع الوالدين، في فضاء عائلي محب ومتعاطف، متوازن وسوي، بلا حرمان أو نقص في الحنان والاطمئنان والاحتماء. أما الطفولة المذنبة المؤثمة أو الآثمة، فهي منتوج التربية العائلية غير المعافاة، والأبوة المؤثمة والمعاقبة والقامعة، المخطِّئة المقرِّعة والمراقبة والمحاسبة بقسوة وهيمنة. ذلك الفضاء المقلق ينبت شخصية تطيع وتنصاع، تخاف وتستسلم، أكثر مما هي تجابه أو تُقاوم، ويبني علاقة"رضوخية إرضاخية" ومشاعر بالذنب (...) هنا التأثيم الذاتي المتكون في اللاوعي عبر التجارب الطفلية، يوجه السلوك ويفسر الرغبة اللاواعية بالاعتراف، أو بالاستسلام أمام الرئيس أو الجلاد ".

والحال تغدو الشخصية التي نمت على هذا النمط من التربية راضخة للاستبداد مطيعة للحاكم المستبد. إن ثقل الاستبداد على الذات العربية لا يتعلق بالموروث الاستبدادي، السياسي والديني، فحسب، تترك التربية دوراً كبيراً في تنميط الشخصية وانقيادها إلى الطاعة، كما أن السلطان السياسي يعمل على تأبيد "الراهن السياسي" في سبيل توطيد سلطته، لذلك يلجأ إلى الاستعانة بالوسائل كافة بغية تعزيز بقائه في الحكم لا سيما في الأنظمة العربية التي يحكمها العسكر. يستخدم مصطفى صفوان مصطلح "الدولة البدائية الحديثة" للدلالة على الأنظمة الاستبدادية السائدة في العالم العربي، محدداً خصائصها، فهي أولاً، تكرس ما أسماه "الاعتقاد الطبيعي بنظام المقدس"، وثانياً، لا تقبل اقتسام السلطة، وثالثاً، ترفض أي ضبط حقيقي لسلطة الحاكم، ورابعاً، تلهث وراء ضمان الاستقرار واستمرار الحكم على حساب الاستقلال الوطني والنمو الاقتصادي وبناء الإنسان.

الجبَّار الأميركي: فحولة البطل وإخصاؤه للآخر المناهض

يقدم زيعور مقاربات نفسية في تحليله لبعض "الشخصيات النرجسية والعظماوية العدائية" مثل الرئيس الأميركي الأسبق جورج دبليو بوش، انطلاقاً من الصورة العلائقية بين الابن والأب. وفي إطار الأحداث الكونية وتحديداً واقعة 11 أيلول (سبتمبر) 2001، يرى أن هذه "الواقعة، هي كارثة (على مستوى الفهم الشعبي)، أما في التصورات والملابسات الناجمة، فإنها طرحت أسئلة أو أثارت مشكلات مؤجلة متعلقة بالبطل السياسية الأميركي، من حيث هويته وأمراضه، فكره ورسالته (...) جرحت الصدمة المفاجئة، البطل الكوني، وخلخلت لحظته التاريخية بحيث انتكس بُعده التاريخي، وانغلب الحاضر، واضطربت تصوراته عن المستقبل، وعن فهمه للزمان". وفي سياق تفسيره لقرار الحرب على أفغانستان الذي اتخذته واشنطن، يلفت زيعور إلى أن "الجبار الإمبراطوري [الأميركي] الخرافي، لم يتوقف عن التعجرف؛ هنا تتركز أساطيره المتدفقة حول نجاح كاسح جعله يحظى بنفوذ سياسي عالٍ، وتفوق في

القدرات والمهارات (...) ولكأنه بطل يبحث عن عدوٍ لا يجده، فيتحدى كأنه يطالب العالم بتقديم ضحية ليتسلى بالحروب الصغيرة، وبالحضارات المتعددة المستوى. وهذا، مع تصنيف الدول إلى تابعة ومارقة، وإلى مؤيدة لنظامه القيمي وهدفه، لأن يصبح سيداً للعالم بأجمعه. يرد هذا البطل الخرافي الكوني الفشل إلى التخلف في الدول المعادية له، وليس إلى عدم صلاحية نظام العولمة". لقد انعكست النرجسية الأميركية في ما يسميه زيعور " فحولة البطل وإخصاؤه للآخر المناهض"؛ أي الآخر الرافض للهيمنة الأميركية، ولعل أفلام الغرب الأميركي تبرهن على حاجة البطل "الكاوبوائي" إلى الانتصار، إلى عدوٍ يؤثم ويُعاقب ويُباد (...) بغية التوسع والتوكيد الذاتي كما النحناوي".

نحو تأسيس "قطاع المعتقلات والمخابرات" في ميدان علم النَّفس السّياسي

يشدد زيعور على ضرورة الاهتمام بـ "نفسانية السياسة العربية المعاصرة" وانجراحاتها وأعدائها، فهذا المشروع يؤسس اختصاصاً أكاديمياً مكرساً، ومراكز مستقلة للبحث والتحليل، هو أبرز ما يخلص إليه ميدان علم "النفسياسي" داخل المدرسة العربية الراهنة في علم النفس والتحليل النفسي. وعليه فإن أول خطوات ذلك المشروع " كما يقترح زيعور- تتبلور عبر دراسة الخصائص المعرفية والإمكانات التطبيقية، على الفاعلية، أي على الأدوات أو المناهج وجهاز الإنتاج.

قد يكون اقتراح علي زيعور لـ "قطاع المعتقلات والمخابرات" ضمن تخصصات علم النفس السياسي في العالم العربي من بين أهم المقترحات، في سبيل فهم الآثار النفسية والجسدية والانفعالية التي تظهر على المعتقلين في سجون المخابرات العربية. أسست الأنظمة العربية الاستبدادية جبروتها السياسي على الطغيان وملاحقة المعارضة السياسية وامتلأت المعتقلات بمئات سجناء الرأي، ولا ريب أن المقاربة النفسية لانتشار المعتقلات في العالم العربي، خصوصاً في العقود الأخيرة تسمح بتناول ظاهرة القمع السياسي من مفاصل عدة على مستوى الآليات والوظائف والأدوار والنتائج. إن "القهر التعذيبي [الذي يتعرض له المعتقل] المُستهدِف لجسد المعتقل وتبخيسه،

وتفكيـك صورتـه ووظائفـه وحاجاتـه، عمليـات تفقـد التـوازن أو الاسـتقرار النفـسي والقـدرات عـلى التفكـير السـويّ والسـلوك الحضـاري المكتسـب، وتفـكك تاليـاً الطبقـات العليـا مـن الشـخصية، فتتحكـم عنـد ذلـك المكبوتـات الطفليـة أو الذكريـات اللاواعيـة عن الأب القـاسي، والمشـاعر بالذنـب، والخـوف مـن العقـاب أو مـن التأثيـم والتقريـع".

خـرج عـلي زيعـور في مؤلفاتـه الكثـيرة في ميـدان علـم النفـس بنظريـات وأفـكار جديـدة، تتجـاوز المجـال السـياسي إلى التربـوي والتاريخي والإنـاسي والخطـابي. لقـد غطـت مقارباتـه ليـس الشـخصية العربيـة وانجراحاتهـا فحسـب، بـل مروحـة واسـعة مـن القضايـا الرئيسـة في المجتمـع والثقافـة والديـن. لقـد قرأ العـوارض والأمراض السياسـية والاجتماعية بعيـون التحليـل النفـسي. تشـكل خلاصاتـه في علـم النفـس السـياسي العـربي قفـزة لافتـة في هـذا الحقـل العلمـي الـذي يحتـاج إلى اهتـمام ودعـم مـن قبـل الدوائـر الأكاديميـة ومراكـز الأبحـاث، بغيـة إدراك كليـة الظواهـر السياسـية بـدل التكتـم عليهـا والسـكوت عنهـا وطمرهـا.

السلفية المعاصرة من المركز إلي الهامش الأسباب والدلالات والنتائج

• د:كمال حبيب
أكاديمي مصري متخصص في الفكر السياسي والحركات الاجتماعية وعلم الاجتماع الديني

في الكتاب الصادر عام 2015 م والذي أحدث جدلا كبيرا داخل الأوساط السلفية المعاصرة بعنوان " ما بعد السلفية ،،قراءة نقدية في الخطاب السلفي المعاصر " ، يقدم مؤلفاه المصريان أحمد سالم وعمرو بسيوني حفرا داخل مسيرة السلفية منذ جيلها الذي بني معمارها العقدي والمنهجي والسلوكي وهو جيل الإمام أحمد بن حنبل (241-164 هـ -780 855 م) ، ويري الكاتبان أن السلفية كمنهج شائع في أوساط المسلمين يختلف عن تلك التي أسسها أجيالها المختلفة منذ أحمد بن حنبل.

يقولان " ما بين العقيدة كحياة والعقيدة كعلم ، من الواضح أن الاشتغال العقدي شهد تحولا منذ طبقة أحمد وإلي طبقة بن تيمية (728-661هـ -1263-1328م) ، وهو ما كان له أعظم الأثر علي طبيعة الاشتغال العقدي عند السلفية المعاصرة " ، ويشير إلي أن ذلك كان له أثرا سلبيا علي السلفية المعاصرة من حيث نزوعها للجدل السجالي والمعارك التي لا يُراعي فيها مناسبة الزمان والمكان وطبيعة التحديات والخصوم ، مع تقصير في مسألة نشر الدين العام والعقيدة بما هي عمل وحياة وآثار سلوكية لا بما هي جدل وكلام .

ويشير المؤلفان " السلفية المعاصرة ظلت تعيش خصومات أحمد وابن تيمية، وتنشرها علي مستويات من الناس لا ينبغي أن تُنشر فيهم ، وتشتغل بها بأوزان نسبية لم يكن من الصواب أن تُعطي لها "

السلفية هنا أوسع وأقدم من الوهابية- التي هي فرع يري نفسه مشتغلا في مركزها ، وإن كنا نري أنه اشتغل في سياقات تتعارض تماما مع مناهج السلفية التي تُثبت الإسلام للناس عامة ولا تنزع للتكفير وتعذر بالجهل باعتباره عارضا من العوارض التي تمنع تكفير مسلم إلا بعد إقامة الحجة القاطعة البنية عليه .

واجهت السلفية بطابعها النصي وانغلاقها علي مقولات الإمام أحمد باعتبارها صحيح الدين وأن ما يخالفها يحكم عليه بالابتداع وحتي الكفر- أزمة ظهور أبي الحسن الأشعري (324-260هـ- 874 - 936م)، واكتمال المذهب الأشعري في القرن الخامس الهجري وهو مذهب يزاوج بين احترام النص وإعمال العقل في فهمه ، وقد واجه الأشعري اتهامات كبيرة من السلفية التي يمثلها الحنابلة في ذلك الوقت وحين ألف كتابه " الإبانة في أصول الديانة " لم يقبله الحنابلة ورفضوه وهجروا الرجل بل إن التمسك بالعتيق كما كان يُطلق الحنابلة جعلهم يتهمون غيرهم بالزندقة ،، وفي هذه الفترة من القرن الرابع الهجري ستجد النقول عن المبتدعة وذمهم وترك التعامل معهم حتي بلغ الأمر بتكفير الأشاعرة .

ستصبح هذه النقول تقريبا هي سند السلفية المعاصرة في مواجهة مجتمعاتها باعتبار أن هذه المجتمعات متلبسة بممارسات دينية وعبادية مختلفة عن النسق المغلق الذي ارتضته السلفية لنفسها ولكافة المسلمين معيارا يجب التزامه وإلا فالتفسيق والتبديع وربما حتي التكفير كما هو الحال مع فئات كثيرة كالصوفية والأشعرية ،، كما أن تمثل حالة الافتراق في الأمة وتقسيمها علي أساس المعيار العقدي للسلفية العتيقة في القرنين الثالث والرابع الهجري والتي وصلت عندهم إلي ألف وثمانمئة فرقة كلها خارجة عن الإسلام الصحيح بالمعيار السلفي وهو ماجعل الأمة موضوعا للتمزيق والتقسيم والتشريح والتجريح والاستعلاء عليها من قبل من كان أن يفترض أن يكونوا هداة لها آخذين بيدها إلي معارج الوصول والقبول استنادا إلي مفهوم الرحمة والقول الحسن البليغ .

مع صعود المنهج الأشعري الذي يوازن بين العقل والنقل وبين إثبات الصفات والتأويل وإدخال الجدل الكلامي والتفلسف كأداة في مواجهة تحديات الفرق الأخري كالمعتزلة والشيعة وغيرهما بأساليبها، وانتشار المذهب في كافة أصقاع العالم الإسلامي متجاوزا المذاهب الفقهية التقليدية فكان هناك أشاعرة مالكية وشافعية وحنفية، فإن السلفية تراجعت منذ القرن الخامس الهجري خاصة مع احتمائها بالسلطة الحاكمة لمواجهة خصومها الأشعريين ، ولم يُقدر لها الصعود إلا مع مجئ ابن تيميه في القرن السابع والثامن الهجري والذي عاصر الدولة المملوكية والهجمة المغولية علي العالم الإسلامي وكذلك الهجمة الصليبية ،،

ابن تيمية هو باني المعمار السلفي بتمامه فهو أول من تحدث عن توحيد الألوهية والقضايا المتعلقة بنقضه مثل النذر والذبح والدعاء وذلك لوجود الدولة الفاطميه في مصر (567-358ه 1171-969م)، قبل مجئ ابن تيمية والأيوبيين ومن ثم فإن دينها الإسماعيلي كان يقوم علي اعتبار قضايا الطواف حول مقابر الصالحين وبناء القباب عليهم والدعاء عندها والذبح والنذر لهم جوهرية ، وسوف يلتقط الوهابيون بعد ذلك هذا المعني المركزي من الرجل ليعتبروه فيما بعد جوهر دعوتهم.

كان بن تيمية هو الرافد الأساسي لأفكار محمد بن عبد الوهاب (1115-1206ه- 1791-1703م)، وكانا الاثنان معا هما الرافد الأساسي للسلفية المعاصرة رغم أن "سلفية الاسكندرية في مصر "مثلا تحاول أن تبتعد عن وصفها بالوهابية لما في الأفكار الوهابية من تشدد جعلهم يكفرون الناس بسبب ما يعتبرونه نواقضا للتوحيد دون أن يعذروهم بالجهل، فمن جهل التوحيد فقد كفر بلا إعذار .

ورغم إشارة بعض السلفيين إلي أن مقاومة المبتدعين والمخالفين ودحض أفكارهم وبيان غلطهم هونوع من الجهاد وهو ما جعل البعض يشير إلي أن الجهاد باعتباره عملا حركيا قد يكون فيه تجاوزا وحظا للنفس خاصة ولو كان من يجاهد له سلطة ويستند إلي قوة وسطوة. لكننا الآن مع مقدم الوهابية كفرع عن السلفية تترفد من المذهب الحنبلي وتعتبر نفسها امتدادا له-وإن كان البعض ينازعها في ذلك- وتترفد من أفكار بن تيميه فإنها الحركة الأولي التي تنتسب للسلفية التي تستند إلي

السيف والقتال لإجبار الناس علي الدخول في دعوتهم ليس باعتبارهم مسلمين ولكن باعتبارهم كفارا ومشركين -كما أوضحنا تفصيلا من قبل .

ورغم أن المؤلفين للكتاب الذي اتخذناه منطلقا لتحليلنا وفهمنا لتحولات الظاهرة السلفية وهما سلفيان " أحمد سالم وعمرو بسيوني " قد اعتبرا الوهابية تحققا سلفيا باعتبارها تترفد من الحنبلية والتيمية(نسبة إلي بن تيميه) فإنني أخالفهما في ذلك وأعتبرها شذوذا كاملا عن المنهج السلفي المعتبر الذي يمثله أعلام كأحمد بن حنبل وأحمد بن تيميه ،،ذلك أنه لم يسبق لأحد ممن مثلوا السلفية أن خرج علي المسلمين بالسيف مقاتلا لهم معتبرا جموعهم في القري والحواضر والمدن مشركين وكفارا كالكفار الأصليين يُذفف علي جريحهم ويُقتل مدبرهم وتسبي ذراريهم وتُنتهب أموالهم - وفي بعض الحالات تم سبي النساء .

ولا ريب أن الوهابية خلعت البيعة المعقودة للدولة الإسلامية التي كانت قائمة في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية وتحالفت مع محمد بن سعود لتحقيق سلطة سياسية لما تصورت أنه الدين الذي يجب أن يُجبر الناس علي تمثله وإقامته ،، رغم أن بن حنبل لم يخرج علي سلطة المأمون ولم يفعل كما فعلت بعض التمثلات السلفية من بعده في الاستناد إلي السلطة السياسية لردع والانتصار علي مخالفيها من الأشاعرة علي وجه الخصوص ، كما لم يفعل ابن تيمية مع دولة المماليك التي التزم بطاعتها وعدم الخروج عليها واعتبرها كما وصف "الطائفة المنصورة " التي يُقاتل خلفها ويقوم الناس بأمرها لحمايتها لدار الإسلام .

السلفية المعاصرة التي ظهرت في السبعينيات في العالم الإسلامي وتبلورت كحركة تأثرت بالدعم السعودي لهذه السلفية الذي اعتبرتها السعودية أحد أهم أدواتها في سياستها الخارجية ضد الدولة الناصرية ،وليس مستبعدا الدور السعودي في السماح للسلفية في مصر بالانتشار والصعود في سياق التقارب المصري-السعودي-الأمريكي في مواجهة الشيوعية وفي مواجهة الثورة الإيرانية التي قامت علي الشاطئ الآخر للخليج العربي ،،وبلغت تلك السلفية بمشاربها المختلفة أقصي صعود لها في التسعينيات ثم بلغت منتهي صعودها مع تأسيسها للأحزاب السياسية بعد نجاح

ثورات الربيع العربي المؤقت ،، بيد إن قمة هذا المد الاستراتيجي يعود مرة أخري للانزواء والانكماش ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

أولا: داء التفرق فحجم التشظي والتناحر والتفرق بين التيارات السلفية يجعلنا نتكلم عن سلفيات متصارعة وليس سلفية منسجمة متوافقة .فهناك السلفية الجامية والسلفية الجهادية والسلفية الحركية والسلفية السرورية ،، كما أن الطبيعة التكوينية للتيارات السلفية باعتبارها عقدية تقوم علي التشرذم والتشظي فلا تجد إلا قليلا من يمكنهم التوافق علي خطوط فكريه جامعة فضلا عن تأسيس لعمل مشترك .

ثانيا: عدم القدرة علي الإجابة علي الأسئلة المعاصرة والوقائع الجديدة والتعامل معها عبر مقولات مقولبة وجاهزة ولم تعد تشفي غليلا أو تريح عليلا ويكفي أن السلفية مثلا تتحدث عن تحطيم التماثيل واعتبار التلفزيون رجسا من عمل الشيطان واعتبار صوت المرأة عورة وأنها يجب أن تبقي حبيسة المنزل وأنها يجب أن تكون سببا لإسعاد زوجها دون مراعاة لحالها والاهتمام بشأنها ،، وعلي مستوي التعامل السياسي فإن السلفية تري الانتخابات شركا والأحزاب السياسية عملا جاهليا وأن الديموقراطية دين .

ثالثا: وجود بدائل منافسة أكثر قدرة علي الانفكاك من الطبيعة ا لمغلقة للصيغة السلفية ومن أهم تلك البدائل الأشعرية، وظهور ممثلين لها مثل " علي جمعه " في مصر ، وحسن السقاف وهو محدث ومتكلم أردني تتلمذ علي يد محمد سعيد رمضان البوطي ، وسعيد عبد اللطيف فوده وهو متخصص في العقيدة وعلم الكلام علي المنهج الأشعري ، وفي السعودية ظهر " أبو محمد صالح الأسمري " وهو ينتقد السلفية ويوسع من مفهوم أهل السنة والجماعة ويلحق بهم الماتريديه والأشعرية ويدعو للتمذهب ويعتبر التصوف مرتبة عالية في الدين ، وتعمل الأشعرية علي الاشتغال بالدرس التراثي في مباحثه الفقهية والعقدية والأصولية واللغوية بحيث يبدو أكثر تماسكا مما تقدمه السلفية .

رابعا: تدهور الصورة السلفية بعد النهايات المفزعة للتيارات القتالية والتي أدت إلي ظهور "داعش" تحت مسمي دولة الخلافة الإسلامية ،،كما أن القاعدة قد فقدت جاذبيتها وتأثيرها بعد موت مؤسسها ورمزها الأساسي أسامة بن لادن ولم يعد هناك من يمكنه أن يملأ الفراغ الذي تركه ،، كما أن تنظيم داعش المنقسم علي القاعدة قد كال لقادتها الاتهامات واعتبرهم خارجين علي التنظيم وأصدر عليهم أحكاما وصلت لحد التكفير ،، كما أن التيار القاعدي نفسه وأخواته لم يعد قادرا علي تحقيق مقاصده بانصرافه لمواجهة دوله وهو ما يستثيرها دون أن يجرحها ،، ومن ثم صار مشروعا يائسا أكثر من كونه مشروعا لمواجهة الغرب أو نموذجا لتحقيق الدولة الإسلامية .

خامسا: غياب الرموز العلمائية والدينية التي منحت القبول والمصداقية والانتشار للسلفية المعاصرة وأهم تلك الرموز" عبد العزيز بن باز " و"محمد بن صالح العثيمين" و" محمد ناصر الدين الألباني" ، وترك الثلاثة خلفهم فراغا لم يستطع أحد أن يملأه بعدهم ، ولو اتخذنا مصر علي سبيل المثال فإن سبعة أسماء مثلت رموزا لسلفيتها هم "ياسر برهامي" و" محمد إسماعيل المقدم " و" محمد عبد المقصود " و"أبو إسحق الحويني" و" مصطفي العدوي"و"محمد حسان" و"محمد حسين يعقوب"، وقد فقدوا جميعا تأثيرهم ولم يعودوا صالحين لتقديم أنفسهم كرموز موثوق فيها للتيار السلفي .

سادسا: فقدان السلفية المعاصرة لموارد الدعم المالي التي كانت تأتيها بشكل أساسي من الخليج ،، كما أن الموارد التي حصلت عليها السلفية من شبكات الداعمين لم تحسن إدارتها وتوظيفها عبر مشاريع وقفية مثلا متجاوزة للمشايخ والطبقات المحيطة بهم من المريدين وطلاب العلم والمرافقين والمنتفعين .

سابعا: تحولات السلطة وموقفها من التيارات السلفية فلم تعد تنظر إليها باعتبارها أساسا لشرعيتها كما هو الحال في السعودية التي تري أن الوهابية أصبحت عبئا عليها وأن صيغتها التي قبلتها الدولة السعودية بالانتشار ضمن مؤسسات الدولة للسيطرة علي العناصر المتشددة في المجموعات التي كانت تمثل تحديا للدولة من " إخوان من أطاع الله" لم تعد صيغة ممكنة وأنها فقدت جدواها وأنها لم تعد صالحة

لمنح شرعية أو بناء صورة جاذبة أو تقديم أجوبة للأجيال الجديدة التي اهتزت ثقتها بقوة بالحالة السلفية وبالتيارات الإسلامية عامة بعد ما جري من أحداث مهولة بعد ثورات الربيع العربي .

الخلاصة:

أن السلفية تنتقل من المركز إلي الهامش وذلك لعدم قدرتها علي منح ما كانت الدول والمجتمعات تحتاجه منها ،، خاصة ما يتعلق بعجزها عن كسر الصيغة العقدية المغلقة التي تضعها في مواجهة مجتمعها في حالة التيارات الدعوية والإصلاحية السلمية وتضعها في مواجهة دولها في حالة التيارات القتالية التي تري السيف هو لغة التفاهم التي لا لغة غيرها، ويبدو أن تحولات السلطة والدولة بعد استثمارها في السلفية كمصدر للشرعية كما هو حال السعودية أو عامل توازن وتنفيس للمجتمع كما هو حال مصر لم تعد مقتنعة باستمرار تلك الصيغة وأنها تبحث عن بدائل دينية أكثر انفتاحا وقدرة علي بناء توافقات واستجابات لتحديات هائلة لم تعد السلفية قادرة علي أن تواجهها أو تستجيب لشروطها ومتطلباتها .

المجتمع الفلسطيني في القدس بين سيناريوهين: الصمود والاندماج

• مازن الجعبري
باحث في جمعية الدراسات العربية

مقدمة

المجتمع المقدسي على مفترق مفصلي، بين الحفاظ على هويته السياسية والثقافية وبين الاندماج في النظام الإسرائيلي. كم هائل من المتغيرات الجيوسياسية والاجتماعية والاقتصادية في القدس. والسؤال، أين نقف من هذا التغيير؟ خاصة الجيل الشاب في مجتمعنا، وما هي القوى الكامنة لدينا؟ وما حجم نقاط الضعف في البنية المجتمعية؟ وهل نحن بصدد الدخول على نموذج جديد يشبه المدن المختلطة في فلسطين كيافا وعكا وحيفا؟ أم لا يزال فينا زخم من الصمود والثبات والتمسك بهويتنا الثقافية والإنسانية.؟

إن المؤسسات الأهلية في القدس أمام واقع وتحديات جديدة، بين الحفاظ على استقلاليتها أو الرضوخ للشروط والإجراءات الإسرائيلية، وبين تحديد أولوياتها السياسية والبرامجية أو القبول بشروط التمويل السياسية المتنكرة لحقوق الشعب الفلسطيني في نضاله المشروع، كما أن المؤسسات الفلسطينية أمام خيار التعافي والاستمرارية في عطائها أو الإذعان للفساد والترهل الإداري.

والسؤال أين نقف حالياً؟ خاصة المؤسسات الفلسطينية المخترقة من الشبكة العنكبوتية الإسرائيلية في مختلف القطاعات: التعليم والصحة و التجارة الداخلية و المواصلات والنقابات العمالية. وهل ما زال هناك متسع من الفضاء والقدرة للإفلات

من قبضة الأسرلة؟ أم أن خيار الاندماج والاستفادة من منظومة الاحتلال ستحافظ على وجودنا في القدس وخاصة القطاعات الحيوية مثل الصحة والمواصلات والبنية التحتية.

تحاول هذه الورقة المفاهيمية وصف واقع المجتمع الفلسطيني في القدس، والمدى الذي نجح او فشل فيه الاسرائيليون من إضعاف البنية للمجتمع المقدسي، وما هي السيناريوهات المفترضة لتوجهات المجتمع المستقبلية، وتأثير كل ذلك على البقاء الفلسطيني في القدس.

نظرية إستراتيجية الهوية واستراتيجيات التثاقف

هناك العديد من الدراسات التي تفسر ديناميات الهوية والاندماج الاجتماعي، ولكننا سنركز في هذه الورقة على نظرية واستراتيجيات التثاقف لجون بيري والتي نعتقد انها تقدم تفسيراً نظرياً للتكيفات النفسية والاجتماعية بين مجتمعين وثقافتين، الأول مسيطر (مُحتل) والثاني تحت الاحتلال.

1- مفهوم المثاقفة Acculturation

ركزت هذه النظرية على المهاجرين الذين يصلون الى مجتمعات جديدة وعادة يلجأون إلى إستراتيجيات تثاقفية تتحدد بمستويين:

أولا: المستوى النفسي المتعلق بالتحديات والصعوبات والمشاكل النفسية التي يمر بها المهاجر في المجتمع الجديد.

ثانيا: المستوى الموقفي Attitude، ويعتبر من أهم المستويات الذي تدفع الفرد لتحديد توجهاته بناءاً على موقفه من ثقافته الأم وموقفه من ثقافة المجتمع الآخر المسيطر.

لذلك مصطلح المثاقفة له معان متعددة وقد تم تداوله بين العديد من الانثروبولوجيين، وعلماء الاجتماع وعلماء النفس، ويهدف الى محاولة فهم العلاقة

المتبادلـة بـين كيانـات ثقافيـة متنوعـة، وكيفيـة تبـادل التأثـير والتأثـر الثقـافي خاصـة بـين مجموعـة مسـيطرة ومهيمنـة تسـعى الى تصديـر ثقافتهـا المتفوقـة وقيمهـا الى المجموعـة الأخـرى، التـي عـادة مـا تكـون ضعيفـة وتابعـة للمجموعـة الأولى. لذلك تشـير المثاقفـة "الى العمليـات والآليـات التي بمفعولها تتأثر جماعـة بشريـة معينـة وتتكيـف جزئيـاً او كليـا مـع مكونـات ثقافـة جماعـة بشريـة اخـرى هـي في اتصـال معهـا".

2-استراتيجيات التثاقف.

يلجـأ الافـراد حسـب نظريـة جـون بـيري الى اسـتراتيجيات هوياتيـة مختلفـة في أثنـاء عمليـة التثاقـف، وذلـك يعـود بشـكل اسـاسي الى موقفـه مـن ثقافـة مجتمعـه الاصـلي والى موقفـه مـن ثقافـة المجتمـع المُسـيطر، ويتحـدد هـذا الموقـف مـن خـلال متغيريـن:

أولا: الرغبة بالحفاظ على الهوية الثقافية الاصلية.

ثانيا: الرغبة بالاختلاط مع المجتمع المُسيطر وتبني ثقافته وقيمه.

أمـا الموقـف مـن العمليـات والاليـات والتفاعـلات الثقافيـة، فإنهـا تتـم عـبر اربـع إسـتراتيجيات حسـب جـون بـيري

الاولى: الانغـلاق (الانعـزال) اي القـرار بالحفـاظ عـلى الهويـة الأصليـة وعـدم الاندمـاج بتاتـا مـع ثقافـة الاخـر.

الثانيـة: الاندماج(المشـاركة) وتعنـي الحفـاظ عـلى الهويـة الأصليـة، وفي الوقـت نفسـه التواصـل مـع المجتمـع المُسـيطر وتبنـي خصائصـه الثقافيـة (اي التوفيـق بـين الثقافتين)

الثالثـة: الابتـلاع الكامل(التماهـي) وذلـك بالتخـلي عـن الثقافـة والهويـة الأصليـة لصالـح ثقافـة المجتمـع المُسـيطر.

الرابعـة: التهميش(ثانـوي) وهـي التخـلي عـن الثقافـة "الأم"وبنفـس الوقـت عـدم الاندمـاج او التعاطـي مـع المجتمـع المُسـيطِر.

ولكـن في الحالـة الفلسـطينية في القـدس، يظـل السـؤال هـل مـا زال سـيناريو اسـتراتيجية المقاومـة والصمـود متاحـا وممكنـاً مـن اجـل الحفـاظ عـلى الهويـة والثقافـة الفلسـطينية؟

تطورات السياسة الاسرائيلية في القدس

إن الاسـتراتيجيات والاهـداف الاسرائيليـة في القـدس لم تتغير منـذ نشـوء المشروع الصهيـوني وقيـام الدولـة اسرائيليـة عـام 1948 واحتـلال باقـي فلسـطين بـما فيهـا الجـزء الشرقـي مـن المدينـة عـام 1967 وهـو تحويـل المكان مـن مدينـة عربيـة الى مدينـة يهوديـة، لتكـون قلبـاً وعاصمـة للشـعب اليهـودي في فلسـطين. ولكـن الإسرائيليـين، وفي سـياق اسـتراتيجية طويلـة الأمـد، تميـزت بالثبـات والتواصـل، والاسـتمرارية، مـع التغيـر مـن سياسـتها واجراءاتهـا وفقـا للسياسـة الدوليـة وبصراعهـا مـع الفلسـطينيين ولكنهـا حافظـت عـلى تغيـر الطابـع العـربي للمدينـة مـن خـلال الاسـتمرار في الاسـتيطان والاسـتيلاء عـلى منـازل الفلسـطينيين في القـدس، وتغيـر البنيـة التحتيـة خاصـة في شـطري المدينـة المقسـمة، ومصـادرة الأراضي، وتقييـد عمليـة البنـاء للفلسـطينيين، وعـزل القـدس عن الضفـة الغربية وقطـاع غـزة ضمـن اسـتراتيجية ثابتـة لم تتوقـف منـذ عـام 1948.

أمـا بعـد توقيـع اتفـاق اوسـلو عـام 1993 فقـد ادخلـت تغيـرات كبـيرة في القـدس، كعـزل المدينـة بشـكل كامـل لقطـع اي تواصـل جغـرافي وانسـاني بين سـكان المدينة المقدسـيين وأهلهـم الفلسـطينيين في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، كـما عملـت عـلى منـع اي نشـاط وتدخـل للسـلطة الفلسـطينية ومنظمـة التحريـر في القـدس، وأغلقـت عـشرات المؤسسـات مثـل بيـت الـشرق، والغرفـة التجاريـة، وتدريجيـا انتقلـت للتدخـل في تغيـر البنيـة التحتيـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للمدينـة، والتـي شـملت السـيطرة عـلى القطـاع الصحـي والمواصـلات، وتدرجـت في تغيـر منهـاج التعليـم الفلسـطينية الى إسرائيليـة، في خطـة متسـارعة رصـدت لهـا ملايـين الشـواكل، للسـيطرة بشـكل كامـل عـلى التعليـم خـلال الاعـوام القادمـة وإضعـاف اي بنيـة فلسـطينية في القـدس مثـل النقابـات والتعليـم العـالي الفلسـطيني.

وأما الفترة التي تلت عام 2015 وما صاحبها من هبات فلسطينية متواصلة في القدس، بدأت حكومة الاحتلال باستخدام سياسة القبضة الحديدية في القدس، بتكثيف الاعتقالات، وهدم المنازل، وابعاد الفلسطينيين، ومنع النشاطات الفلسطينية في القدس، بما فيها الانشطة الرياضية، والفنية والاجتماعية، وبالتوازي مع ذلك، وعلى اثر الشعور بفقدان السيطرة، وبهدف فرض السيادة على المدينة، رصدت اسرائيل ملايين الشواكل لفرض الاسرلة على المدينة تحت سياسة الاحتواء للفلسطينيين.

وفي محاولة لإيهام المقدسيين بتحسين مستوى المعيشة لديهم، تم زيادة وتوسيع المراكز الجماهيرية. ومكاتب الشؤون الاجتماعية، وادخلت الشرطة الجماهيرية، وزادت الخدمة المدنية، وفتحت المجال للطلبة الفلسطينيين للدراسة في الجامعات والكليات الإسرائيلية، بالإضافة إلى فتح عشرات المراكز والمعاهد الإسرائيلية، وضاعفت الاستيلاء على المنازل الفلسطينية، وواصلت اقتحاماتها بشكل مكثف في المسجد الأقصى، فأنهت الوصاية الهاشمية، وتعمل على تقليص صلاحية الاوقاف الاردنية بهدف السيطرة على المسجد الاقصى وتقسيمه وفرض السيادة الاسرائيلية على المكان.

ووصولاً إلى اعتراف الرئيس الأمريكي بالقدس عاصمة لدولة الاحتلال بتاريخ 6/ 12/ 2017 ونقل السفارة الأمريكية إلى القدس بتاريخ 14/ 5/ 2018 دفع الحكومة الإسرائيلية لوضع خطط وميزانيات لتهويد المدينة بشكل مكثف وعلني، بالتركيز على مشاريع ضخمة مثل اعتماد القطار الهوائي بالقرب من المسجد الأقصى، والحدائق التوراتية في سلوان ومد سكة الحديد من تل ابيب الى البلدة القديمة، واغلاق مديرية التربية والتعليم في القدس، ومنع اي نشاط فلسطيني رسمي اوغير رسمي في القدس، وبناء الاف الوحدات الاستيطانية في القدس، ومشاريع ضخمة في البنية التحتية لربط المستوطنات البعيدة عن مدينة القدس، ومحو الخط الاخضر الفاصل بين القدس الشرقية والغربية وزيادة الضغط الشرطي والامني على المسجد الاقصى ومضاعفة عدد المقتحمين الصهاينة للمكان واستمرار اسرائيل تجنيد سياساتها وبرامجها مستفيدة من اعتراف دول العالم بان القدس عاصمتها.

ومع بداية العام بإعلان خطة السلام الامريكية المعروفة باسم صفقة القرن بتاريخ 2020/ 1/ 28 عكس الاستراتيجيات والنوايا الاسرائيلية والامريكية من موضوع القدس ولم يأت بجديد على الفلسطينيين، فيما يخص القدس سوى النية لاخراج ٪50 من حملة هوية القدس، ومصادرة حقهم في الإقامة، وهم يقطنون حاليا خارج حدود بلدية الاحتلال، وخارج الجدار العنصري من حقوق الإقامة في القدس والسماح لاسرائيل بالسيطرة على المسجد الأقصى واستبعاد أي دور للأردن في الأماكن المقدسة وفق معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية عام 1994.

تذييل القطاعات الفلسطينية في القدس:

إستطاعت حكومة الاحتلال ومؤسساتها من اخضاع القطاعات الفلسطينية كليا أو جزئيا لسيطرتها، وتمت التبعية بفعل الاجراءات والقوانين الاسرائيلية المفروضة على المدينة، وضعف قدرة القطاعات الفلسطينية على الصمود خاصة في قطاع المواصلات والصحة وحاليا في قطاع التعليم او بفعل عوامل داخلية لها علاقة بالارادة والسياسة الفلسطينية في القدس بسبب التزامها بالاتفاقات الموقعة مع اسرائيل وفقدان الارادة السياسية لمواجهة الاحتلال في القدس.

سوف نستعرض باختصار ما تعرضت له هذه القطاعات الحيوية من افراغ وطنيتها وبالتالي تبعيتها لعجلة الاحتلال الاسرائيلي في المدينة بطريقة تخدم سياق تقديم الورقة البحثية وللدلالة على اهداف البحث:

قطاع التعليم :

يعتبر من اهم القطاعات الاستراتيجية الفلسطينية في القدس لما يحتويه من معاني تربوية اجتماعية وثقافية، يرتبط بشكل مباشر بصقل وبناء وعي وشخصية أجيال كاملة من الفلسطينيين، وتنشأتهم على الانتماء لوطنهم وقضيتهم، وهو القطاع الذي ساهم بشكل كبير في النضال الفلسطيني الطويل والمستمر مع هذا الاستيطان ألاحتلالي، والقدس لها رمزيه ووزن في هذا النضال لانها تمثل قلب ووجهة الشعب

الفلسطيني والصراع عليها على الوجود والهوية السياسية.

إن اسرائيل وبحكم تجربتها الاستعمارية على الاراضي الفلسطينية عام 1948 وبعد احتلالها باقي فلسطين في عام 1967 حاولت تطبيق نفس السياسة على التعليم في القدس، عام (1969-1968) عملت اسرائيل بعزيمة للسيطرة على التعليم في القدس ولكن بسبب صمود ورفض الفلسطينيين تراجعت عن هذا الاجراء ولكنها أبقت تدخلاتها بخطوات لا تحدث ردود فعل عند الفلسطينيين وعادت بقوة الى هذه الممارسة بشكل كبير عام 2010 عندما قامت بحذف مواد وتغيير في المنهاج الفلسطيني المطبق في مدارسها بكل ما يتعلق بقضايا فلسطينية وطنية وهي تسيطر بشكل مباشر على 42٪ من قطاع التعليم في القدس(82 مدرسة أهلية تتلقى الدعم من البلدية ما عدا 12 مدرسة) وثانيا تجنيد المدارس الخاصة من خلال تقديم المساعدات المالية التي تتجاوز 40 مليون دولار سنويا وهذا القطاع يمثل ما نسبته 40٪ من قطاع التعليم، وعلى اثر تسلم نفتالي بينيت المستوطن المتطرف لوزارة التربية والتعليم(2019-2015) أعلن عن اجراءات جديدة تتضمن ادخال المنهاج الاسرائيلي على المدارس الفلسطينية وبناء عشرات المدارس الجديدة وفتح المئات من الروضات وزيادة الميزانيات بقرار الحكومة الإسرائيلية بتاريخ 2018/ 5/ 13 بمبلغ 445 مليون شيكل وتم الاعلان عن خطة لمدة خمس سنوات تستهدف سيطرة اسرائيل على التعليم ورفع نسبة الطلاب الذين يدرسون المنهاج الاسرائيلي.

لم تكتف حكومة الاحتلال بذلك بل فتحت عشرات المعاهد التعليمية واعترفت بالتوجيهي (الثانوية العامة الفلسطينية)، لاستيعاب مئات الطلاب الفلسطينيين، واتاحت المجال أمامهم للتعلم مع إعفاءات من الأقساط، بالإضافة إلى حوافز أخرى، كما وسعت دائرة ادخال الطلاب في عشرات معاهد التعليم العالي والمتوسط بما فيه مراكز التأهيل للمعلمين وعدد من مراكز تعليم اللغة العبرية وربط العديد من شهادات هذه المراكز بالوزارات الاسرائيلية مثل العمل والاقتصاد وربط التعليم بالخدمة المدنية والخدمات البلدية.

أن قرار إسرائيل إغلاق مكتب مديرية التربية والتعليم التي تعمل تحت رعاية دائرة الأوقاف الإسلامية بتاريخ 2019/ 11/ 20 كان مفاجئاً، وغير متوقع، وذلك لأننا نقلل بطبيعتنا من الإجراءات الإسرائيلية التي تتم خلال فترة طويلة ولان ما يميز عملنا هو ردة الفعل ومحاولة التأقلم واحتواء أثار النشاطات الإسرائيلية العدائية، ولكن سياسيا يمكن تفسير الإجراء الإسرائيلي انه بداية لمرحلة جديدة من التعامل مع موضوع التعليم الفلسطيني وإخضاعه كليا للإدارة والسياسة الإسرائيلية، كما ان صفقة السلام الأمريكية وفرت الشرعية لإسرائيل فيما يتعلق بالقدس، وكان الإغلاق ضربة لرعاية الأوقاف الأردنية لمديرية التربية والتعليم في القدس، وللأسف تم القبول بذلك فلسطينيا وأردنيا.

القطاع الصحي:

تشكل المستشفيات الفلسطينية الركن الاساسي للقطاع الصحي في القدس، ولكن إسرائيل تسيطر على هذا القطاع بشكل كبير، فالتأمين الصحي الاسرائيلي أصبح إلزاميا لكل سكان القدس منذ عام 1995 الذين تعتبرهم حكومة الاحتلال مقيمين في دولة اسرائيل.

فالقطاع الصحي في القدس، والمتمثل في 6 مستشفيات أصبح معتمدا أكثر على التأمين الصحي الإسرائيلي أو التحويلات التي تتم عبر وزارة الصحة الفلسطينية، مثلا مستشفى المطلع ٪91 من ميزانيته تعتمد على التحويلات من وزارة الصحة الفلسطينية ومستشفى المقاصد ٪65 تقريبا بينما المستشفى الفرنساوي والهلال الاحمر اكثر من ٪90 من ميزانيته تعتمد على التحويلات من صناديق المرضى الإسرائيلية، علماً بان أكثر من ٪80 من الموظفين في المشافي بحاجة الى تصاريح للدخول الى القدس، بالإضافة إلى ارتباطها بشكل وثيق مع متطلبات الصحة الاسرائيلية بما فيها الانظمة والتراخيص بما فيها العديد من الصعوبات في هذا المجال.

القطاع الصحي في القدس هش وضعيف، يعاني من ازمات مالية متتالية لعدم انتظام التحويلات المالية من وزارة المالية الفلسطينية، التي تقدر بملايين الشواكل سنويا، مما خلق عجزاً مالياً جعل المستشفيات تعتمد اكثر على الدين من البنوك، وبعض المستشفيات تتلقى الدعم من وزارة الصحة الإسرائيلية، او الاتحاد الاوروبي بمعدل 15 مليون دولار سنويا، بتاريخ 10.9.2018 قرر الرئيس الامريكي ترامب وقف المساعدات المالية المخصصة لدعم المستشفيات وقيمتها 25 مليون دولار امريكي مما أدى الى تفاقم الازمة المالية وزيادة العجز المالي في المستشفيات.

ولا نغفل أن القطاع الصحي الفلسطيني في القدس يعاني من الازمات المالية، والترهل الاداري والبشري، بالاضافة الى اعتماده أكثر على النظام الصحي الإسرائيلي، وان كان ما زال يستقبل الالاف من المرضى الفلسطينيين من مناطق الضفة والقدس الا ان ذلك وضعه في ازمات وعجز مالي دائم مما دفعه للاقتراض من البنوك ومديونية مرتفعة للشركات التي تقدم الخدمات والمواد الطبية والغذائية للمستشفيات.

قطاع المواصلات:

القدس كانت قبل الانتفاضة الاولى مركز أغلب السفريات العمومية الى جميع مناطق الضفة الغربية وغزة ولكن على أثر إجراءات الاحتلال بتقييد الحركة الى القدس واغلاقها بشكل كامل بعد توقيع اتفاقية اوسلو عمدت سلطات الاحتلال الى تقليص عمل الشركات الفلسطينية في القدس ولكن أبقت شركات الباصات المرخصة في القدس على اغلب خطوط الاحياء العربية وتدريجا بسبب التراخيص والحاجة المالية تم ربط شركات المواصلات في القدس مع وزارة المواصلات الاسرائيلية.

إستطاعت السلطات الإسرائيلية السيطرة والحاق هذا القطاع بقوانينها وانظمتها وقامت بترتيب وضع الشركات الفلسطينية العاملة مثل تغيير مسارات الباصات بحيث تتوافق مع باصات شركة ايغد وكذلك تنظيم الارقام للخطوط ، وفتح المجال امام الشركات للحصول على مساعدات من وزارة الاتصالات الإسرائيلية، وتسهيلات

من البنوك الإسرائيلية، ويتوقع أن يتم تغيير طرق الباصات حسب الخطوط والمسارات وكذلك دمج شركات الباصات تحت مسمى "شركة الباصات الموحدة" وتوحيد الزي الموحد والتذكرة الذكية. ويعد هذا القطاع مثالاً على ما ستؤول اليه اوضاع القطاعات الفلسطينية المختلفة في القدس، فهذا القطاع الحيوي الذي يمثل شريان القدس لباقي المدن تعرض للتهميش والابتلاع، ومن المتوقع ان يتقلص التدخل الفلسطيني فيه بفعل التدخلات الإسرائيلية، وعوامل السوق والفرق في الخدمات والاستعدادية عند الجانب الأخر.

القطاعات الأخرى:

الحديث عن باقي القطاعات مشابه بالوصف لما تطرقنا اليه سابقا، وخاصة قطاع الاسكان والبنية التحتية الذي خظع منذ البداية للاعتبارات الامنية السياسية عند سلطة الاحتلال، وهي تسيطر عليه تماما اداريا وقانونيا والذي يعاني من ازمة في السكن وارتفاع تكاليف الشقق، وعدم توفر مشاريع التخطيط، ومشكلة تنظيم وتسجيل الأراضي، ومصادرة المساحات في القدس، بالاضافة الى وجود عوامل داخلية، مثل عدم توفر التمويل للبناء، وانقسام جمعية الاسكان لاسباب سياسية داخلية، بالاضافة الى عدم وجود حاضنة مالية لشراء الشقق عند العائلات المتوسطة والشابة وارتفاع جنوني للشقق لطمع رجال الاعمال الفلسطينيين، وأيضا اعمال الترميم خاصة في البلدة القديمة، رغم مواصلة الترميم من عدد المؤسسات المحلية والدولية الا ان هذا الحيز ما زال اسير البيروقراطية والاعتبارات الخاصة وانعدام التنسيق بين المؤسسات العاملة وعدم توفر الشروط المعمارية والمهنية عند بعض المؤسسات وعدم توفر دراسات الجدوى والتغذية الراجعة وعدم توفر القوى البشرية المدربة للابنية القديمة.

يعد قطاع السياحة عماد القطاع الخدماتي في القدس، الا انه ما زال ضعيفا ولا يستطيع المنافسة، وان كان يحتكر السياحة الاسلامية إلا أن مساهمتها لا تزيد عن 12٪ (65-70 مليون شيكل لعام 2019) من دخل السياحة في القدس ويعود ذلك إلى العديد من العوامل ولكن هذا القطاع مرتبط بوزارة السياحة الاسرائيلية قانونيا ويستفيد من الدعم المالي والخدماتي للبنوك الاسرائيلية.

سـمحت السـلطات الإسرائيليـة مؤخـراً بفتـح فـروع للبنـوك العاملـة في مناطـق السـلطة الفلسـطينية في القدس(داخـل الجـدار العنـصري) بمنطقة الضاحية(شـمال القدس) وهـي مصنفـة منطقـة سي، وهـذا مـؤشر عـلى مـدى التنسـيق وتبـادل الفائـدة بـين الجانبـين وزيـادة توثيـق العلاقـات خاصـة مـع طبقة الكمبـرادور الفلسـطينينة والتي تعمـل في القدس وفقـا للقوانـين والاجـراءات الاسرائيليـة، وغـير معـروف حتـى الان مـدى مسـاهمة البنـوك المذكـورة في انعـاش الحركـة التجاريـة والاسـتثمارية في مركـز مدينـة القـدس التـي تعـاني مـن اجـل البقـاء وتواجـه خطـر الاغـلاق في ظـل الحصـار ونفـاذ الامكانيـات التجاريـة والماليـة.

أمـا شركـة كهربـاء القـدس، اقـدم الـشركات الفلسـطينية في القـدس، والتـي تشـغل مئـات المقدسـيين، وتمتـد الى الضفـة الغربيـة، فتشـتري الكهربـاء مـن السـلطات الإسرائيليـة، وتبيعهـا لمشـتركيها، فهـي تقـوم بـدور الوسـيط، ممـا جعلهـا عُرضـة للهـزات، بسـبب الديون المتراكمـة عـلى السـلطة الفلسـطينية وسرقـة التيـار الكهربائـي، وتعـرض خدماتهـا للانقطـاع المسـتمر مـن المصـدر الإسرائيـلي، ممـا يعـرض وجودهـا للخطـر وعـدم قدرتهـا عـلى تطويـر خدماتهـا في مجـال الطاقـة والاتصـالات الضوئيـة ممـا يجعلهـا منافسـة للـشركات الفلسـطينية المحتكـرة للسـوق الفلسـطيني.

امـا الاقتصـاد الفلسـطيني في القـدس فعـماده السـياحة والمبيعـات بالمفـرق، ويصـارع للبقـاء تحـت نـير التحديـات المفروضـة عليـه وخاصـة الاجـراءات الإسرائيليـة، والمنـاخ الاسـتثماري الضعيـف وتـدني حجـم الاسـتثمار، وتـسرب راسـمال الى خـارج القـدس، ويشـكل العمـل في المناطـق الإسرائيليـة المصـدر الرئيـسي للدخـل، بـما نسـبته 54٪ أيليهـا مخصصـات التأمـين الوطنـي الإسرائيـلي التـي تمثـل 21٪ مـن مصـادر الدخـل ومـن ثـم الرواتـب والأجـور مـن القطـاع الخـاص وتبلـغ نسـبتها 13٪ .

في الوقـت الحـاضر هنـاك سـيطرة إسرائيلية على شـبكات الميـاه والشـوارع والكهرباء،

وتقوم بعملية تطوير شاملة خاصة في الجزء الشرقي من المدينة، الامر الذي يجعل الفلسطيني في حيرة من امره فهو يرى الاحتلال يوفر الخدمات للفلسطينيين، مقابل عدم قدرتهم على السيطرة على ما يملكون.

أخيرا خلال العشرين العام الأخيرة تم إعداد مجموع من الدراسات القطاعية في القدس:

- إستراتيجية القطاعات المتعددة للقدس الشرقية 2003.
- وخطة التنمية القطاعية الإستراتيجية 2006.
- التنمية في القدس الشرقية وخطة التنمية الإستراتيجية القطاعية –2011 2013.
- الخطة الإستراتيجية للتنمية القطاعية في القدس 2022–2018.

كل الدراسات السابقة كانت بتمويل أجنبي وتهدف إلى تحديد أولويات القدس من خلال مشاريع لم ينفذ منها أكثر من 10٪ وبالتالي الفلسطينيين لم يكن لهم أي رؤية سياسية شمولية في القدس، " بينما تخطط إسرائيل لعام 2050، فإن "تصور" السلطة الفلسطينية للقدس يعود إلى عام 2010 حين نشرت الخطة الإستراتيجية للتنمية متعددة القطاعات بالقدس الشرقية للأعوام 2013–2011. أمّا خطة التنمية الوطنية الحالية لعامي 2016–2014 الصادرة من السلطة الفلسطينية فترجع ببساطة إلى خطة عام 2010. وفي حين تتحدث القيادة الفلسطينية عن القدس الشرقية، التي احتلتها إسرائيل وضمتها بشكل غير قانوني سنة 1967، باعتبارها عاصمة دولة فلسطين ومنطقة تنمية ذات أولوية، فإن 0.44٪ فقط من ميزانية السلطة الفلسطينية لعام 2015 قد خُصِّصت لوزارة شؤون القدس ومحافظة القدس (نور عرفة، 2016، شبكة السياسات الفلسطينية).

المؤسسات الاهلية في القدس:

لعل قطاع المؤسسات الاهلية من اهم القطاعات الفلسطينية في القدس التي قدمت وما زالت تقدم العديد من الخدمات للسكان الفلسطينيين في كافة المجالات الصحية والقانونية والخدماتية والاقتصادية، بالاضافة الى حفاظها على الهوية والثقافة الفلسطينية، وهي في الساحة الأمامية لمواجهة التغول الاسرائيلي في المدينة ولكن هذا القطاع الحيوي والمهم ما زال يواجه العديد من التحديات التي تشكل خطر على استمرار عمله .

أبرز التحديات والصعوبات

- التحدي الاصعب هو استمرار العمل في القدس وفقا للمصلحة الفلسطينية، والسلطات الاسرائيلية تشدد القيود على المؤسسات حيث قامت باغلاق العشرات منها وتحظر العمل والنشاطات في مجالات مختلفة بالاضافة الى الاقتحامات ومحاولة تقييد عملها في مدينة القدس.

- إعتماد المؤسسات الاهلية على التمويل الخارجي، مما ادى الى ظهور مؤسسات للتمويل، معظمها ناقل للبرامج الغريبة والبعيدة عن احتياجات المجتمع الفلسطيني، مما خلق فجوة كبيرة ما بين المجتمع والمؤسسات الاهلية ونشوء عدم ثقة وتشكيك بمصداقية المؤسسات وتحول العمل الأهلي جزئيا إلى سوق مزايدات وترويج وشراء برامج على حساب قيم العمل الاهلي والوطني واحتياجات الناس الحقيقية.

- التدخلات التمويلية السياسية من قبل المانحين، وتدجين الاحتياجات المجتمعية لبرامجها وأهدافها، مما جعل المؤسسات الاهلية جسماً بيروقراطياً محكوماً بتعليماتها، مما اوجد طبقة من المتنفذين اصحاب ايدلوجيات الانجزة وكتبة المشاريع حاملي ثقافة مجتمعية جديدة متعالية عن العمل الجاهيري.

- الامتداد الفئوي والفصائلي الى المؤسسات وبالتالي أثر ذلك على الحوكمة، وطريقة اتخاذ القرار، وصعوبة التنسيق بين المؤسسات والترهل الإداري، وجمود الهياكل الإدارية، وشق المؤسسات ونسخ مؤسسات شبيهة للمنافسة.

وضع المؤسسات الاهلية الفلسطينية في القدس لا يختلف كثيرا عن باقي القطاعات فهو يعاني من قلة الموارد ومضايقات الاحتلال ولكن برأي الاصعب هو الترهل والتكلس الداخلي الذي يجعل هذا القطاع مبعثر وضعيف ويستجدي الدعم والتمويل مقابل التنازل عن القيم الذي قام عليها هذا القطاع الأهلي.

بلدية القدس من تقديم الخدمات الى إستعمار القدس

بلدية القدس بالتعاون مع بقية الوزارات، وباسم وزارة القدس والتراث، وتخصيص بلدية القدس بميزانيات وزارية حكومية، مما جعلها من البلديات التي تشكل الوعاء والاداة التنفيذية لسياسة الحكومة الاسرائيلية الاستيطانية في القدس، فأصبحت الرمح المتقدم في تغيير الهوية السياسية للمدينة، بامتلاكها أدوات وقوة قانونية في عقاب السكان خاصة في المجال التنظيمي وحق السكن، وكذلك قدرتها على التخطيط فيما يتعلق باقامة المستوطنات ومصادرة الاملاك الفلسطينية وهدم المنازل وتطبيق نظام عنصري لمنفعة الاغلبية اليهودية.

منذُ عام 2014 وعلى اثر الهبات الجماهيرية المتتالية في القدس، واستشهاد عشرات الفلسطينيين، واعتقال المئات، وفشل اسرائيل في وضع البوابات الالكترونية على ابواب المسجد الأقصى، وفتح مبنى بيت الرحمة، مما ادى حدوث تحول في السياسة الاسرائيلية في القدس وخاصة في فترة رئيس البلدية الليكودي اليميني نير بركات(2008-2018):

سياسة الاقصاء والطرد الناعم:- والتي توافقت مع قرار الحكومة الاسرائيلية في "خطة تعزيز الامن الشخصي والتطوير الاقتصادي-الاجتماعي في القدس لصالح عموم سكانها"، والتي هدفت بشكل كبير الى تعزيز القمع والبطش بالفلسطينيين تصل الى حد القبضة الحديدية للتعامل مع الهبات الجماهيرية المتواصلة في القدس توازيا مع تعزيز الاستيطان وهدم البيوت وزيادة قوات الامن بالالاف.

سياسة الاحتواء وتقديم التسهيلات:- وجاءت على اثر قرار الرئيس الامريكي ترامب بالاعتراف في القدس عاصمة اسرائيل في نهاية عام 2017 والتي احدثت تغيير كبير في التوجهات الحكومية في القدس واعلان "خطة متعددة السنوات ابتغاء تقليص الفجوات الاجتماعية-الاقتصادية والتطوير الاقتصادي في شرقي القدس" ، حيث تم رصد ميزانية مقدارها نحو ملياري شيكل لعدة سنوات، وبذلك توجهات اسرائيل الاستراتيجية في القدس توافقت مع مخطط 2050 الذي يرى القدس"وجهة سياحية متقدمة تكنولوجيا ذات أغلبية يهودية تقطنها اقلية فلسطينية"والتي يقوم على تنفيذها حاليا رئيس البلدية المتدين موشية ليون(2018).

المؤسسات الاسرائيلية وتطبيع الاحياء الفلسطينية

دولة الاحتلال بحاجة الى تطوير ادواتها طول الوقت للوصول الى أهدافها، خاصة ما يتعلق بمدينة القدس، وفرض هيمنتها المطلقة عليها، ومع التطورات السياسية الاخيرة التي تعمل كلها لمصلحتها رصدت ملايين الشواكل لاسرلة وتهويد مدينة القدس، تُعتبر المراكز الجماهيرية احدى ادوات بلدية القدس في الخاصرة الفلسطينية بسبب تواجدها داخل الاحياء الفلسطينية، ويعمل فيها فلسطينيين من السكان، وبالتالي تم توسيع صلاحيتها الخدماتية كبوابة للاتصال مع البلدية في الأمور الخدماتية والتنظيمية، وتقديم الشكاوي بالإضافة إلى نشاطاتها داخل المدارس التابعة للبلدية ،ونشاطات ثقافية، ولقاءات مع الجانب الاسرائيلي لتعمل كبلدية مصغرة بين السكان، بالاضافة الى النشاطات الاغاثية والطواريء الموجودة في معظم الاحياء الفلسطينية، ويعمل فيها عشرات الفلسطينيين، وترافق ذلك مع تطوير الشؤون الاجتماعية بالتعاون مع الشرطة، ومتابعة مئات الملفات الخاصة بالسكان، من العنف الى التسرب من المدارس، واحتواء المعتقلين الاحداث بالتعاون مع قسم السلوك في الشرطة، ولديهم العديد من البرامج الخاصة بالأسرة الفلسطينية.

واستفاد الاسرائيليون من تجنيد مئات العرب داخل فلسطين المحتلة 48 لتوسيع الشرطة الجماهيرية، والتي تعمل بشكل وثيق مع السكان من خلال المخاتير والمدارس والمؤسسات، لربط السكان بشكل كامل بالمؤسسة الإسرائيلية، وتتدخل الشرطة الجماهيرية في فض النزاعات بين السكان ولقاءات اجتماعية دورية مع ممثلي السكان.

كذلك لم تغفل السلطات الاسرائيلية حاجة السكان الاقتصادية فادخلت مؤسسة ماطي القدس(مركز تطوير المبادرات والمصالح التجارية) حيث يقدم الصندوق تمويل للمشاريع الصغيرة، ويوفر قروض مالية بشروط ميسرة، بالإضافة إلى ورشات ودورات الاعمال ويعمل بسياسة ممنهجة بين القطاع التجاري في القدس.

تعمل هذه المؤسسات على العديد من البرامج والنشاطات، مثل الخدمة المدنية (بديل عن الخدمة في الجيش)، ويستهدف الشباب خاصة في قطاع التعليم، ويتم ربطهم مع المؤسسات الإسرائيلية، مع حوافز مادية وفرص عمل في البرنامج، وايضا برنامج (ميلا) الذي يستهدف فئة الشباب الذين لديهم ملفات امنية، وتشرف عليه الشرطة الجماهيرية بالتعاون مع مدارس بلدية الاحتلال، بالاضافة الى العديد من البرامج التي تستهدف احتواء الشباب ودمجهم في التدريب المهني.

تعدد المرجعيات الوطنية وتهميش المؤسسات الوطنية

يمكن رصد التحولات الجارية في القدس على صعيد المرجعيات الوطنية واداء المؤسسات الوطنية المختلفة في سياق الوضع الفلسطيني العام منذ تشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية بعد توقيع اتفاق اوسلو عام 1992 وكل مجريات الاحداث بحقيقة الانقسام الفلسطيني وظهور سلطتين واحدة لفتح والثانية لحماس ووصول عملية السلام الى طريق مسدود، وتبدد الحل السياسي بفعل السطوة الإسرائيلية، والضعف الفلسطيني، بحيث اصبحت فلسطين كلها محتلة، وجهود لتصفية القضية الفلسطينية بشكل نهائي.

حافظت القدس حتى عام 2001 على مركزية العمل فيها، خاصة بوجود بيت الشرق وقيادة فيصل الحسيني، الذي شكل مرجعية فردية ومؤسساتية من القدس وللقدس ولكن بوفاته يوم 2001/ 5/ 31 وإغلاق بيت الشرق في 2001/ 8/ 9 من نفس العام وبداية الانتفاضة الثانية تم تدريجيا تغييب مركزية القدس في العمل الوطني وأيضا مبكرا كان هناك محاولات فلسطينية لاضعاف مركزية القدس من خلال انشاء وزارة شؤون القدس واستحداث منصب محافظ القدس.

ولكن في التحليل السياسي واجه العمل الوطني والمؤسساتي في القدس معضلتين رئيسيتين رسمت حدود العمل السياسي والمؤسساتي في القدس:

أولا: فلسطينيا

- بتوقيع اتفاق أوسلو عمليا تنازل الفلسطينيين عن العمل في القدس وان كان رسميا وذلك بموافقتهم على تأجيل المفاوضات حول موضوع القدس الى المرحلة النهائية.

- المستوى الرسمي الفلسطيني لا يوجد لديه الارادة السياسية بالعمل في القدس بسبب الاتفاقيات مع إسرائيل وايضا تعقيدات العمل في القدس وعدم القدرة على توفير الميزانيات المطلوبة لهذا العمل.

- انعكاس الحالة السياسية الفلسطينية في الضفة وغزة على العمل في القدس وخاصة العمل الفئوي والفصائلي والصراعات الداخلية والمنافسة على الامتيازات والمناصب والسيطرة وشراء الذمم وتجنيد الاعضاء لاظهار القوة السياسية.

أعتقد ان هذه الاسباب الرئيسية والتي تجسدت على الارض من خلال وجود مجموعة من المؤسسات الرسمية، مثل وزارة شؤون القدس، ومحافظة القدس والمؤتمر الشعبي، واللجنة العليا ومسؤول ملف القدس في اللجنة التنفيذية ووحدة القدس في ديوان الرئاسة، وكلها لها طابعها الفئوي وتداخل الصلاحيات وعدم وجود خطط للقدس وايضا انعدام الميزانيات للعمل في القدس، والتنافس فيما بينها ويقتصر عملها في اغلب الاحيان على دور المراسل بين المواطن والمسئولين في رام الله.

أما هيئة العمل الوطني والأهلي في القدس التي تشكلت عام 2011 ، والمكونة من القوى الوطنية والإسلامية والمؤسسات الأهلية في القدس، وعدد من الشخصيات المقدسية المستقلة، باعتبادها جسم وطني ائتلافي تشاركي لمتابعة الهموم الوطنية في القدس وتعمل للحفاظ على الوجود الوطني في القدس كانت عُرضة أيضا لمتلازمة المعضلات الفلسطينية، فيما يتعلق بالعمل الحزبي والفئوي وتداخل الأجسام المختلفة الرسمية وغير الرسمية ومحاربة البعض لها جعلها ضعيفة وغير منتظمة ولكن بقيت مستمرة.

ثانيا: اسرائيليا

لم يخف الاسرائيليون مطلقا اهدافهم في القدس، ولم تتوقف ابدا من العمل على تحقيقها حتى اثناء المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، ولم تهتم بموقف المؤسسات والدول الاخرى في موضوع الصراع على القدس، وتعاملت مع المدينة منذ احتلال القسم الثاني في عام 67 على انها عاصمتها الموحدة.

كما وظفت اتفاق اوسلوا لمواصلة تحقيق اهدافها في القدس، من خلال مجموعة إجراءات، مثل اغلاق المدينة وعزلها عن الضفة الغربية منذ عام 1992 وسن قوانين في الكنيست لمنع عمل السلطة في القدس واغلاق المؤسسات السيادية في القدس، مثل بيت الشرق والغرفة التجارية والمجلس الاعلى للسياحة والعشرات من المؤسسات التي تم إغلاقها بدواعي مختلفة من وزير الامن الداخلي وما زالت هذه العملية جارية حتى هذه اللحظة.

- لا يسمح بأي عمل فلسطيني رسمي في القدس وتقوم حاليا بمنع الانشطة الرسمية للمحافظة ووزارة شؤون القدس واللجنة التنفيذية وتلاحق العاملين في الاجهزة الامنية الفلسطينية.
- أغلقت اسرائيل عشرات المؤسسات الاهلية الوطنية الفلسطينية وما زالت

مستمرة في هذا النشاط وذلك بهدف تقليص العمل الفلسطيني في القدس وربط خدمات السكان بالمؤسسة الاسرائيلية وخاصة في مجال التعليم والثقافة والخدمات.

■ وقف ومنع النشاطات الفلسطينية الرمزية الوطنية او المجتمعية وهذا تطور في الاجراءات الاسرائيلية بمنع النشاطات الرياضية والثقافية وحتى الاجتماعية لتفكيك البنية الثقافية والاجتماعية الفلسطينية وبالتالي تقوية الاسرلة والتطبيع الاسرائيلي داخل المجتمع الفلسطيتني.

وبالتالي الجهد الفلسطيني والوطني يتبدد في المدينة سواءا الرسمي او الشعبي، وعلى صعيد المؤسسات غالبيتها هجر المدينة، والجزء الاخر يصارع الوجود، وبعضها يعمل بفعل الموافقة على طلب المانحين بتجريم النضال الفلسطيني، وبعضها الاخر يستفيد من الدعم الإسرائيلي وتعمل بثبات لتحويل الهوية السياسية للقدس الى يهودية وعاصمة موحدة لدولة الاحتلال.

الخلاصة

في تقرير مراقب الدولة 2019 ذكر ان المواطنين العرب لديهم نزعتان"الرغبة في الانخراط الاقتصادي في اسرائيل، ومشاعر العداء وعدم الانتماء" وهذا لخص رؤية اسرائيل للمشكلة والحل مع الفلسطينيين في القدس، ان تحسين الاوضاع الاقتصادية والخدمات والمساواة سيؤدي الى تعزيز الامن القومي لدولة إسرائيل وبالتالي دمج السكان في مفاصل الدولة تدريجيا والذي سيؤدي حسب ادعائهم الى التقليل من العداء لدولة الاحتلال بين السكان.

إن سياسة Win-Win المتبعة في القدس منذ عدة سنوات يجب النظر اليها بالاطلاع على قضايا حيوية اخرى وردت في نفس التقرير السابق(22000 فلسطيني يحملون الجنسية الاسرائيلية ونحو 3000 هم سكان مؤقتون من اصحاب لم الشمل)

خلال شهر تشرين الثاني 2017(تم تقديم 3000 طلب للحصول على المواطنة منها 640 طلب قدم في عام 2014).

ما تم الاشاره اليه بعض الارقام الرسمية والتي عادة لا نستطيع الحصول عليها ولكن هذا كان عام 2017 فماذا بعد الاعتراف الامريكي بالقدس عاصمة لدولة الاحتلال، لا يوجد لدينا مصادر للمعلومات ولكن بناءا على ما ورد اعلاه هناك الاف الطلبات للحصول على الجنسية الاسرائيلية.

لقد تفاجأنا عند التحضير للدراسة من عدد النقابات العمالية الاسرائيلية العاملة بين الفلسطينين في القدس، والتي يوجد فيها الاف الاعضاء الفلسطينيين، نقابة العمال معاً(جمعية نقابية اسرائيلية تهتم بحقوق العمال في دولة الاحتلال ولديها عدة مكاتب في الناصرة والقدس) لديها عدد الاعضاء المشاركين من القدس 1555 عضو، بالإضافة إلى المئات الأعضاء في الهستدروت ونقابات المعلمين وغيره الذي يشير الى تزايد نسبة الاندماج عند الفلسطينيين القدس.

إن استقبال رئيس بلدية القدس وضباط الجبهة الداخلية خلال جائحة كورونا في بلدة الثوري من قبل المركز الجماهيري وبشكل ملفت والطريقة التي يستقبل فيها السكان المساعدات من بلدية الاحتلال، والترحيب بتدخلات الشرطة الجماهيرية، والانتشار الواسع لمؤسسات التعليم الاسرائيلية في القدس وتفضيل الدراسة فيها من قبل العائلات الفلسطينية يضاف الى الحقائق والاشارات الاخرى ان الكثير من الأمور تتغير ويجب أن نخرج رؤوسنا من الرمال للتفكير ووضع الردود المناسبة لها.

أعتقد اننا في مرحلة الاندماج اي في الوقت الذي نحافظ فيه على هويتنا الثقافية والقومية نسعى بنفس الوقت للتفاعل والاستفادة من المجتمع الاخر المسيطر والمهيمن، وعمليات الاسرلة المفروضة على السكان ما زالت تواجه بالموقف الصلب لتمسكنا بهويتنا وقضيتنا وهذا الذي يدفع المقدسيين للاستمرار في التصدي والمقاومة الجماهيرية لتهويد المدينة ولكن هذا لا يتناقض مطلقا مع الاندماج حسب نظرية المثاقفة لجون

بـيري، عـدم وجـود نمـوذج فلسـطيني عـام يمكـن الاعتـماد عليـه في التصـدي والصمـود ستستمر عملية الاسرلة والاندماج للتكيف مع الواقع الحالي ولكن اذا خسرنا الموقف من قيمنا وهويتنا فسوف ندخل مرحلة التماهي وهي الاخطر على مستقبلنا كشعب له هويته القومية والثقافية والحضارية المختلفة.

ان المؤسسات الفلسطينية في القدس تشهد مرحلة تحول ستتحول فيها الى اجسام ضعيفة أو هامشية أو فانتازيا أو تعمل بالأجر عند الممولين، إن قبول بعض المؤسسات الفلسطينية بالشروط السياسية للمانحين وخاصة الاتحاد الاوروبي ودول اخرى بالاضافة الى قيام عدد من المؤسسات بنشاطات تطبيعية من اجل توفير التمويل يشكل اقسى ضربة للعمل الاهلي في القدس وذلك بسبب ان قرارات الموافقة هي رضوخ للقبول بالمال مقابل المصلحة الوطنية وسيكون له تأثير كبير على هوية المؤسسات الفلسطينية ووجودها في القدس وسيكون مدخل للاندماج بسلطة وارادة وقوة المحتل.

السيناريوهات المستقبلية الاسواء في حالة استمرار الحقائق الحالية وخاصة انتقالنا للمطالبة بالحقوق والمساواة في الخدمات، وعدم التفريق بينها وبين مطالبة المحتل القيام بواجباته حسب القانون الدولي، وهناك نموذج الاحزاب الفلسطينية في الداخل الفلسطيني المطالبين بالمواطنة والمساواة وكأن أسرائيل دولة كل المواطنين وان الفلسطيني يستطيع الحصول على حقوقه من خلال المشاركة الديمقراطية والمواطنة دون الاخذ بعين الاعتبار الصراع التاريخي وطبيعة هذا الكيان الاستعماري، ونماذج المدن الفلسطينية في الداخل عكا وحيفا ويافا أقرب نموذج الى مسار القدس الشرقية في الوقت الحالي.

ان واقع المجتمع الفلسطيني في القدس الذي لا يوجد فيه مكان لاستراتيجية المقاومة ضمن المعطيات السياسية الحالية، ولكن ما زال يحتفظ بطاقات تؤهله للقيام بردات افعال وهبات متتالية غير منتظمة سوف يكون معرض اكثر حسب المؤشرات والمغيرات لبداية مرحلة الاندماج القصري والطوعي، واننا في منعطف اذا ما تجاوزناه لا يمكن العودة الى الوراء.

فتاوى التطبيع في عصر علماني

بقلم: حسن أبو هنية
كاتب صحفي من الاردن

ينطوي تاريخ الدولة الدكتاتورية العربية الما بعد كولونيالية على سجل حافل من المواقف الخيانية المخزية اللا أخلاقية تجاه القضية الفلسطينية، في عصر علماني يقوم على انفصال السياسي عن الأخلاقي، فما الحاجة إلى تدنيس "الفتوى" التي تعد الأساس الأخلاقي في المجال الديني الإسلامي لتبرير ودعم عقد اتفاقيات سلام مزعوم وتطبيع مذموم بين الدول العربية الإسلامية والكيان الكولونيالي الاستعماري العنصري المدعو "دولة إسرائيل"؟ ولماذا تحتاج الطغم الحاكمة في البلدان العربية الإسلامية إلى مفتين في الشريعة الإسلامية لإصدار فتاوى في قضايا سياسية أقرتها السلطة السيادية للدولة، التي لا تمل من التأكيد على فصل السياسي عن الديني؟

تلك الأسئلة وغيرها أثيرت بعد أن أصدر رئيس مجلس الإمارات للإفتاء، الشيخ عبد الله بن بيه، حكما بجواز السلام والتطبيع بحجة أن "العلاقات والمعاهدات الدولية تعد من الصلاحيات الحصرية والسيادية لولي الأمر، شرعا ونظاما". وإذا كانت العلاقات والمعاهدات تتعلق فعلا بالسلطة السيادية، فلماذا الفتوى أصلا؟ وهل السلطة السيادية، وهي مفهوم سياسي وقانوني يختص بالدولة الحديثة، تنحصر بولي الأمر وهو مفهوم شرعي يختص بالحكم الإسلامي؟ تلك هي تركيبة غرائبية في عوالم الفتوى المعاصرة، تقوم على بلاغة خطابية بائسة، تضفي مشروعية على المستبد والدكتاتور بمنحه صفة ولي الأمر، في الوقت الذي يصف هو نفسه كحاكم لنظام سياسي حديث تتوزع فيه السلطة السيادية للدولة بين الأجهزة التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ليست المرة الأولى التي تصدر فيها فتاوى تجيز اتفاقات الخزي والعار تحت مسمى السلام، وهي للمفارقة تصدر دوما بعد إبرام الاتفاق. فقد أصدر مفتي الديار المصرية جاد الحق علي جاد الحق عام 1979 فتوى مماثلة بعد توقيع مصر اتفاقية مع إسرائيل، وبعدها أصدر مفتي عام المملكة العربية السعودية عبد العزيز بن باز عام 1995 فتوى شبيهة بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، وسوف تصدر دور الإفتاء في العالم العربي فتاوى مماثلة إذا قرر "ولي الأمر" الدخول في ركب العار.

مؤسسة دار الإفتاء هي إنتاج كولونيالي، فقد أسست دار الإفتاء المصرية عام 1895 في ظل الاستعمار البريطاني، ثم أصبحت جزءا من المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية في الدولة العربية الما بعد كولونيالية. وبحسب الباحث جاكوب سكوفجارد بيترسون، تمثل دار الإفتاء شكيمة الإسلام الرسمي المفضلة للتكييف بين الدولة والدين، والتي تحدد حلولا داخل إطار عمل قوانين الدولة السارية. ومفتي الديار واحد من كبار المفكرين، يسعى لتقديم النظام القائم على أنه طبيعي وعادل ومعطى رباني.

شكلت الفتوى صلب نظام العدالة الأخلاقي للشريعة طوال فترة الحكم الإسلامي، لكن وظيفتها تبدلت وانقلبت إلى نقيضها في العصر العلماني أساسا. فبعد خضوع العالم الإسلامي بداية القرن التاسع عشر للاستعمار الأوروبي، وتفكيك النظام الاجتماعي السياسي الاقتصادي الذي كانت تنظمه الشريعة هيكليا، أُفرغت الشريعة من مضمونها حسب البرفيسور وائل حلاق، واقتصرت على تزويد تشريعات قوانين الأحوال الشخصية في الدولة الحديثة بالمادة الخام. وحتى في هذا النطاق الضيق، فقدت الشريعة استقلالها ودورها كفاعل اجتماعي لمصلحة الدولة الحديثة.

وتشير عزة حسين في كتابها "سياسات تقنين الشريعة"، إلى أن سيرورة تقنين الشريعة جرت وفق عملية فرض وتفاوض معقدة، تقاسمته النُّخبتان الكولونيالية والمحلية، والتي أفضت إلى معضلة مركزة القانون الإسلامي، وتقسيمه إلى نطاقين؛ يختص أولهما بشؤون التجارة وجباية الضرائب والإنتاج "المادي" الذي يخدم السياسات الاستعمارية، ويقتصر الآخر على الأمور الدينية الثقافية من الشعائر وأحكام الأسرة والمواريث وغيرها.

فالنخب المحلية التي ساهمت في تقنين الشريعة، قامت بذلك خدمة لمصالحها في الهيمنة والسيطرة، حيث خدمت عملية تقنين الشريعة ومركزتها مصالح نخب محلية بعينها اتفقت مع أهداف وغايات السلطة الكولونيالية ومصالحها، وصعدت بها إلى أعلى سُلَّم السلطة والثروة، وهي عملية أفضت إلى اختفاء نخب محلية أخرى كعلماء الشريعة، أو أجبرتها على تغيير نظرتها إلى نفسها ودورها. فقد تضافرت عمليات التقنين، والمأسسة، وإحكام السلطة الحاكمة لسيطرتها على الدولة في هذه السرديات، حسب سامي زبيدة، لتجريد المؤسسات الإسلامية من سلطتها والنخب المستفيدة منها؛ لصالح إدارة جديدة وهيكلية قانونية تديرها الدولة العلمانية والنخب الكولونيالية.

يرى البرفيسور المرموق وائل حلاق في كتابه "نشأة الفقه الإسلامي وتطوره" أن الفقه الإسلامي لم يكن أبدا آلية بيد الدولة، وأنه ظهر باعتباره مؤسسة مستقلة أنشأها رجال أتقياء وطوروها، وهم من شرعوا دراسة الفقه وبلورته باعتباره نشاطا دينيا. ويرى أن المفتي كان بمنزلة خبير ومسؤول قانوني تجاه المجتمع الذي عاش فيه، وكان الواجب الأساسي للمفتي هو إصدار الفتاوى، وهي إجابات قانونية شرعية عن مسائل تطرح عليه. وكانت استشارة المفتي مجانية، وهو ما يعني أن النصيحة القانونية كانت متوافرة بسهولة لكل الناس، الفقراء والأغنياء.

ويشير حسين عجرمة إلى أن المحكمة تتمحور بالأساس حول "الحقيقة"، أما الفتوى فتعمل وتتمحور بالأساس حول "المصالحة". ففعل القانون ومن ثم فعل المحكمة هو فعلٌ له تبعات ماديّة وتنفيذية قصرا بخلاف الفتوى، فمسعى المفتي بالأساس هو محاولة تأطير خُلقيّ من خلال المسألة المطروحة أمامه يقدمها للأطراف المتنازعة، وقد تكون لها تبعات مادية أو لا تكون.

يمكن فهم لجوء الأنظمة الدكتاتورية لطلب الفتوى لتبرير فعل لا أخلاقي، لكن ما هي مبررات المفتي؟ ففي كتابه "الحرب والسلام والعلاقات الدولية في الإسلام المعاصر: فتاوى في موضوع السلام مع إسرائيل"، توصل إسحاق رايتر، من معهد القدس لأبحاث إسرائيل، إلى أنه لم يكن الدعم الرسمي عن طريق فتوى يصدرها علماء الدين مطلوبا في حينه من الناحية القانونية الشرعية، ولكنه تبين على

الرغـم مـن ذلـك أنـه بسـبب الهجـوم الـذي شـنته أوسـاط الإسـلام الأصـولي بالـذات، ثمـة حاجـة ماسـة لفتـوى شرعيـة تدعـم أعـمال الحاكـم.

تعتـبر الشريعـة الإسـلامية قاعـدة ثقافيـة مقبولـة في المجتمـع العـربي الإسـلامي. لذلـك، ومـن أجـل مواجهـة الأطـراف المتشـددة الأصوليـة، يتعين عـلى الحاكـم "التحـدث بلغتهـم"، وهـي لغـة الشريعـة. في هـذا السـياق، ثمـة أهميـة كبـيرة، عـلى المسـتوى الإعلامـي، للفتـوى التـي تقـدم الدعـم لموقـف الحاكـم وتضفـي الشرعيـة عـلى سياسـته، وقـد أريـد منهـا أن تليّن وتقلـص معارضـة الجماهـير لعقـد معاهـدات السـلام مـع إسرائيـل، ولكـي يصبـح بالإمـكان إقامـة علاقـات طبيعيـة معهـا بعـد التوقيـع عـلى الاتفاقيـة.

الأمـر الـذي يحتـاج إلى مزيـد مـن الـدرس والتأمـل هـو حـال المفتـي ذاتـه الـذي يصـدر فتـوى لا أخلاقيـة باسـم الإسـلام الـذي ينتمـي إليـه، ومعرفـة دوافعـه ومبرراتـه. ذلـك أن الأخـلاق هـي المجـال المركـزي للإسـلام، كـما يؤكـد الفيلسـوف المغـربي طـه عبـد الرحمـن، وقـد حاجـج إدوارد سـعيد عـلى مـدى عقـود عـلى أن فلسـطين مسـألة أخلاقيـة قبـل أن تكـون سياسـية، واسـتطاع أن يعيـد تكييـف القضيـة الفلسـطينية لـدى قطـاع عريـض مـن مثقفـي العـالم، ويغـير وعيهـم لهـا مـن مجـرد قضيـة صراع سـياسي بمفهومـه الـدارج وأبعـاده الضيقـة؛ إلى قضيـة إنسـانية الدفـاع عنهـا واجـب إنسـاني لأنـه دفـاع عـن قيـم أخلاقيـة كالحـق والعـدل والحريـة في الحيـاة.

بمكـن فهـم دوافـع الإمـارات وبقيـة الأنظمـة الدكتاتوريـة في حرصهـا عـلى التطبيـع مـع المسـتعمرة الاسـتيطانية اليهوديـة عـلى أرض فلسـطين، فقـد باتـت هـذه المسـتعمرة الوكيـل الوحيـد للإمبرياليـة الأمريكيـة في المنطقـة، وترغـب هـذه الأنظمـة بالحصـول عـلى الرضـا الأمريكـي مـن خـلال الكيـان الإسرائيـلي، بعـد أن أمطرتهـا أمريـكا بتهـم دعـم الإرهـاب بعـد هجـمات أيلـول/ سـبتمبر، وهـي تسـعى منـذ ذلـك الوقـت للبرهنـة عـلى أنهـا مـع السـلام وضـد "الإرهـاب"، وهـو مصطلـح يكافـئ في القامـوس الأمريكـي والإسرائيـلي "الإسـلام".

ويتجسـد "الإرهـاب" حسـب هـذا المعجـم في حقبـة مـا بعـد الربيـع العـربي بالجمهوريـة الإيرانيـة الإسـلامية، والحـركات السياسـية الإسـلامية، والمقاومـة الفلسـطينية،

بينما يتجسد "السلام" وتتحقق الديمقراطية في ذات القاموس بـ"إسرائيل". ولا يكفي أن تعلن القطيعة مع الإرهاب، بل لا بد من ملاحقته وحربه، ولا يجدي التغني بمحبة السلام بل يجب التحالف مع معسكره.

تلك هي لعبة المفاهيم وانقلاب القيم، عندما يصبح كيان استعماري عنصري إرهابي رمزا للسلام. فالمستعمرة الإسرائيلية قامت على أسس إرهابوية عنيفة أصلا، حيث انخرط اليهود بتشكيل عصابات منظمة، مارست كافة أشكال الإرهاب وأصناف القتل والجرائم والتطهير بحق الشعب الفلسطيني. فقد قامت إسرائيل على سرقة الأراضي والتي تسمى رسميا بـ"الضم" وطرد السكان. وقد وُصم الصهاينة بـ"الإرهابيين" من طرف الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية آنذاك، ثم انقلبت المفاهيم وأصبحت المستعمرة الإرهابية الإسرائيلية تنعت أمريكيا وأوروبيا بـ"الديمقراطية"الوحيدة في المنطقة، رغم تأكيداتها على هويتها العنصرية والعرقية دون مواربة تحت مبدأ "قومية الدولة".

خلاصة القول أن تدنيس الفتوى التي تعد الإطار الأخلاقي المميز للشريعة، واستخدامها في تبرير ممارسات وسلوكيات لا أخلاقية من التطبيع مع كيان غير طبيعي، بعد فاجعة أشد من تطبيع الإمارات وأخواتها، ولا يقلل من فداحة فتوى الديني في العصر العلماني وجود فتاوى مضادة، إذ قد تنقلب إلى ضدها، فقد قال مفتي عام سلطنة عمان، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: "إن تحرير المسجد الأقصى، وتحرير جميع الأرض من حوله من أي احتلال؛ واجب مقدّس على جميع الأمة، ودَين في رقابها جميعا يلزمهم وفاؤه، وإن لم تواتهم الظروف وتسعفهم الأقدار، فليس لهم المساومة عليه بحال، وإنما عليهم أن يدعوا الأمر للقدر الإلهي، ليأتي الله بمن يشرفه بالقيام بهذا الواجب"، وهو لا محالة حاصل. فهل تنقلب فتواه إذا قرر ولي الأمر؟ تلك هي الكارثة.

* عن موقع (عن عربي 21)

قراءة جيو-سياسية لتطبيع ابن زايد مع «إسرائيل»

• بقلم: سعيد الشهابي
كاتب صحفي من البحرين

يوم أسود في تاريخ المنطقة، وعنوان آخر للسقوط والانحدار السياسي والقيمي. ومدخل جديد للصراع الداخلي في أوساط الأمة. ذلك ما يعنيه قرار دولة الإمارات إقامة علاقات دبلوماسية علنا مع الكيان الإسرائيلي.

هذا القرار الذي أعلنه الرئيس الأمريكي في إحدى تغريداته يوم الخميس الماضي ثم أكده محمد بن زايد، يعتبر تحديا لعدد من الأمور: **أولها**: منطق الحق الذي يرفض الاعتراف بالظلم والنهب والاستيلاء على حقوق الآخرين، ابتداء بحق الحياة، مرورا بالوطن وصولا إلى الحرية والكرامة. **ثانيها**: العرب والمسلمون قاطبة، فهناك إجماع لم يهتز برغم العمل الحثيث من قوى الثورة المضادة، على قداسة قضية فلسطين خصوصا أنها أرض الرسالات وملتقى الأديان وحاضنة المسجد الأقصى والأرض التي باركها الله في قرآنه المجيد. **ثالثها**: أهل فلسطين، كبشر وشعب وأرض وتاريخ ونضال. **رابعها**: القانون الدولي الذي كان مرجعا لقرارات دولية تجرّم الاحتلال وتقر حق العودة والذي كان في حقبة ما سندا لقرار دولي يساوي بين الصهيونية والعنصرية. **خامسها**: الجامعة العربية التي كانت تلم كلمة العرب وتتصدى، ولو سياسيا ونظريا، للاحتلال الإسرائيلي وتجمع قدر الإمكان الموقف العربي وتحتضن قضية فلسطين كقضية محورية جامعة. **سادسها**: مجلس التعاون الخليجي الذي يفترض أن يكون جامعا لدول الخليج الست ومنسقا لمواقفها، والذي يفترض كذلك ان يتوافق في مثل هذه القرارات المهمة. **سابعها**: مشاعر الأمة وأحاسيسها وكرامتها. فبرغم هزائمها العسكرية المتكررة الا انها

صمدت بوجه الاحتلال عقودا وافرزت مجموعات مقاومة حطمت كبرياء الاحتلال وكشفت هشاشته عند مواجهة ابناء الامة. **ثامنها**: منح رئيس وزراء العدو دعاية مجانية برغم تحديه المتواصل للأمة والشعب الفلسطيني والموقف الدولي الرسمي، وتطرفه اليميني الذي شجع المتطرفين على اقتحام باحات المسجد الأقصى يوميا واقدم على ما لم يفعله سابقوه بضم أراض من الضفة للكيان المحتل.

رسميا ما يزال هناك «صراع عربي - إسرائيلي». ورسميا أيضا ما يزال هناك «مقاطعة عربية» للمنتجات الإسرائيلية. وطوال ثلاثة ارباع القرن بقي الصراع قائما، يشتد تارة ويخفت اخرى، ولكنه لم يختف يوما، ولا يتوقع أن يتلاشى تماما لسبب بسيط: أن الحق ينتصر والباطل مهزوم وإن طال به الامد. فليس لدى «إسرائيل» من مستلزمات الصراع سوى القوة العسكرية والأمنية، وتفتقد شرعية الحق وسند القانون والحجة المنطقية. فما الذي دفع حكام الامارات لتجاوز «الخطوط الحمراء» المرتبطة بالقضية المحورية للامة، لتتصدر قطار التطبيع مع كيان لم يخف اطماعه التوسعية يوما.

فقد أعلن احتلاله الكامل لمدينة القدس واستدرج أمريكا لنقل سفارتها الى المدينة المقدسة، ويواصل اتصالاته مع دول اخرى للقيام بخطوة مماثلة، يعتدي على الدول العربية وينتهك سيادتها بشكل مستمر (تونس، مصر، لبنان، سوريا، العراق). ومؤخرا أعلن الكيان على لسان رئيس وزرائه قرار ضم مرتفعات الجولان متحديا القرارات الدولية وفي مقدمتها 242 و 338. وفي غياب الموقف العربي او الدولي الرادع أعلن قراره ضم أراض من الضفة الغربية ايضا. ويتذاكى حكام الامارات عندما يدعون أن اقامة العلاقات الدبلوماسية مع «إسرائيل» جاء بعد أن حصلوا على وعود إسرائيلية بـ «تعليق» قرار الضم، وليس الغاءه. ولكن المسؤولين الإسرائيليين أعلنوا على الفور أنهم لم يعطوا وعودا لأحد بوقف الضم. وتجدر الاشارة الى ان من غير المستبعد ان يكون قرار اقامة العلاقات جاء انتقاما من الفلسطينيين الذين أعلنوا قبل اسابيع رفض «مساعدات» إماراتية وصلت عبر مطار بن غوريون. فقد فهموا، كما فهم غيرهم، ان تلك «المعونات» استخدمت لتغطية تسيير الرحلات الجوية بين ابوظبي

وتل أبيب. يومها قال الفلسطينيون بإباء: نرفض المساعدات التي تأتي عبر الاحتلال، مؤكدين أن البطون الجائعة أكثر عفة وكرامة وإباء من ذوي الاجسام الممتلئة التي تختزن ارواحا خالية من المبادئ والقيم.

من اين بدأ هذا الصلف السياسي الذي يسعى لتحقيق احلام رموزه بتحدي الامة وثوابتها والتعدي على قيمها ومقدساتها؟ ربما ليس جديدا أن حكام الامارات اكثر الحكام العرب استهدافا للمشروع التحرري العربي ـ الإسلامي، فلم يطيقوا يوما الرموز الإسلامية خصوصا المحسوبة على اتجاه «الإسلام السياسي». ولكن كان هناك توقع بان يكون اغتيال الشهيد الفلسطيني، محمود المبحوح، قبل عشرة اعوام، بأحد فنادق دبي دافعا لموقف اماراتي متشدد ازاء الكيان الإسرائيلي الذي انتهك سيادتها، خصوصا بعد أن ثبت ضلوع جهاز «الموساد» في جريمة الاغتيال. يومها ارتفعت اصوات اماراتية تهدد بملاحقة القتلة اينما كانوا، ولكن ما ان اتضحت هويتهم، وأنهم إسرائيليون يحملون جوازات سفر مزورة عندما ارتكبوا الجريمة عن سبق إصرار وترصد، حتى تغيرت سياسة الدولة بشكل غير مسبوق. وفجأة بدأ حكامها يقتربون تدريجيا من الاحتلال. من الصعب تحديد نقطة البدء ولكن ربما كان «الربيع العربي» نقطة التحول في الموقف. فمنذ ذلك الوقت تشكل تحالف «قوى الثورة المضادة» واصبح للإمارات لسان طويل ودور يفوق اضعافا حجمها السياسي الطبيعي. فهي لا تملك من مقومات القيادة السياسية الاقليمية الكثير خصوصا مع ضآلة سكانها وحداثة وجودها السياسي الذي لم يبلغ الخمسين عاما حتى الآن.

يمكن القول ان السنوات العشر الاخيرة كانت حقبة تحول اماراتي غير مسبوقة. فمنذ وفاة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان 2004 انتقلت السلطة الى ابنه الاكبر خليفة الذي توعكت صحته فاستلم اخوه، محمد بن زايد، الحكم منذ اكثر من عشرة اعوام. وقد تخرج من كلية سانت هيرست العسكرية البريطانية، الامر الذي جعل تفكيره «واقعيا» و «براغماتيا» وفق الرؤى البريطانية للسياسة. وقد تميز بطموحه الشخصي الواسع الذي دفعه للبحث عن سبل توسيع نفوذه السياسي الشخصي الذي اقتضى

كذلك توسيع الدور الاماراتي اقليميا ودوليا. ودفعته نظرته «البراغماتية» لتجاوز جريمة اغتيال المبحوح واستخدامها طريقا لمد الجسور مع حكومة نتنياهو. ومن المؤكد ان تربيته العسكرية في المؤسسة البريطانية المذكورة أطرت تفكيره الذي أبعده تدريجيا عن ثقافته الموروثة من محيطه العربي والإسلامي، وزجت به في دهاليز الدبلوماسية المؤسسة على الانتهازية وتضخم الذات. وفي غياب الموروث السياسي العصري القائم على الحرية واحترام الحقوق والممارسة السياسية، أصبح اكثر تحسسا من اي تحرك داخلي يطالب بالحرية والانفتاح والحقوق. فسرعان ما انقض على معارضيه واعتقلهم ونكل بهم وأسقط جنسياتهم ونفى بعضهم الى دول قاصية مثل تايلاندا. وفي غياب التوازن السياسي بين الحكم والمعارضة تدهورت الأوضاع الداخلية خصوصا في مجال حقوق الانسان، وقضى بعض السجناء نحبهم وراء القضبان.

ومن المؤكد ان شعور محمد بن زايد بالعزلة السياسية في صفوف الطبقة المثقفة الاماراتية دفعه للاعتماد على الخبرات الامنية الإسرائيلية التي بدأت تشق طريقها الى الامارات بعد اغتيال المبحوح. وتواصلت مغامرات بن زايد، فتورط في قضايا اربع كل منها اكبر من الاخرى. اولى هذه القضايا المشاركة مع السعودية في اجتياح البحرين في عام 2011 لضرب واحدة من ثورات الربيع العربي. ولم تحدث ردة فعل مناسبة ضد هذا التدخل الغاشم الذي كان مدعوما من التحالف الانكلو-أمريكي بالاضافة للدعم الإسرائيلي. وفي العام 2017 استهدف التحالف السعودي ـ الاماراتي دولة قطر بسبب علاقاتها الخارجية مع تركيا وإيران، وتفاهمها مع جماعة الاخوان المسلمين. واخيرا جاءت خطوة إعلان التطبيع مع كيان الاحتلال الإسرائيلي.

ماذا يحدث في أبوظبي؟ وما مدى قوة محمد بن زايد الذي كسر النواميس والأعراف سواء على مستوى التحالف السباعي مع المشيخات الصغرى التي تشكل بمجموعها دولة الإمارات ام على الصعيد الاقليمي ام مجلس التعاون ام الجامعة العربية ام أمة العرب والمسلمين. فاندفاع محمد بن زايد لمبادرات خطيرة كاستهداف قطر او

الحـرب عـلى اليمـن او دعـم خليفـة حفـتر لمنـع اسـتقرار ليبيـا، تلـك الخطـوات تعـبر عـن اندفـاع متغطـرس سـيرتد سـلبا عـلى المنطقـة ويـؤدي لأزمـات خطـيرة. هـذه النظـرة تدعمها سياسـات محمـد بـن زايـد التي كثيرا مـا ادت لاضطراب ذهني لتفسـير بعض الخطـوات ذات الابعـاد الخطـيرة. فـماذا يعني اسـتقبال خـوان كارلـوس، ملـك اسـبانيا السـابق الـذي يواجـه قضايـا قضائيـة بسـبب رشـاوى مـن السـعودية والبحريـن ومنحـه الاقامـة في الامـارات؟ برغـم الهـدوء الـذي يحيـط بخطـوات بـن زايـد، إلا أن تبعاتهـا عـلى المنطقـة لـن تكـون سـهلة.

---

*عن موقع(القدس العربي اللندنية)

الاطماع الاسرائيلية في المياه العربية والدور الاثيوبي

بقلم: عامر خليل
كاتب مختص في الشأن الإسرائيلي

توطئة:

يبحث هذا المقال في الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية على مدار عقود طويلة منذ بداية المشروع الصهيوني في فلسطين ويتخذ من علاقة إسرائيل مع أثيوبيا نموذجا لها مع تفصيل المشاريع التي طرحتها إسرائيل للاستفادة من مياه نهر النيل أو الإضرار بالأمن المائي لمصر والسودان والذي يبلغ ذروته مع اكتمال بناء سد النهضة وانعكاساته على اقتصاد مصر الزراعي وفي مجال توليد الطاقة.

فكرة سحب مياه النيل:

تعد المياه من بين أهم المتغيرات التي تواجه السياسات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لإسرائيل إذ أن محدودية الموارد المائية فيها كان ولا زال مصدر قلق كبير يساور الإسرائيليين انسجاما مع حقيقة أن المياه والأرض حجر الزاوية في الإستراتيجية الإسرائيلية، الأمر الذي انعكس بشكل جلي في حروب إسرائيل ضد العرب وسياستها الاستيطانية التوسعية لاحتلال المزيد من الأراضي العربية التي كانت نتائجها ومحصلتها النهائية منسجمة مع سياسة إسرائيل المائية، بجانب محاولة المس بالأمن المائي العربي عبر دفع دول منبع نهر النيل التي تقيم علاقات تحالف معها للتأثير على تدفق مياه النيل إلى مصر والسودان.

ونظرا لأهمية المياه في تدعيم وجود إسرائيل وإدراكها لهذه الحقيقة بشكل مبكر فان أطماعها في المياه العربية خاصة مياه النيل ترجع إلى بواكير القرن الماضي فمنذ ذلك الحين أبدت مراكز البحوث الإسرائيلية اهتماما متزايدا بكل من مصر وأثيوبيا لاعتقادها أن مياه النيل يمكن أن تساهم بشكل ملموس في معالجة مشكلتها المائية، وجاءت أول محاولة لاستغلال وسحب مياه النيل في عام 1903 حيث استغلت الحركة الصهيونية الاحتلال البريطاني لمصر لتحصل على موافقة السلطات البريطانية على إرسال لجنة تقوم بدراسة الكيفية التي تسحب بها مياه النيل إلى سيناء من أجل إقامة مستوطنات ليهود أوروبا ولتجعل منها موطئ قدم لاحتلال فلسطين ونص الاتفاق على سحب المياه لمدة 99 سنة قابلة للتجديد إلا أن المشروع فشل بسبب معارضة مصر له.

حجم مصادر أثيوبيا من منابع النيل :

تعتبر أثيوبيا من وجهة نظر علماء الجغرافيا نافورة مياه إفريقيا فمنها يتدفق 85٪ من مياه نهر النيل إلى الدول الأخرى وعلى الرغم من أن معظم زراعتها تقوم على المطر أي أنها لا تحتاج بدرجة كبيرة إلى مياه النيل، إلا أن علاقتها الوطيدة بإسرائيل هي التي تدفعها دائما للتذمر حول قيمة حصتها وحصة مصر من مياه النيل ، وقد أعلنت شركة "تاحال" المسؤولة عن تطوير وتخطيط المصادر المائية في إسرائيل أنها تقوم بمشاريع مائية في أثيوبيا لحساب البنك الدولي وأنها تقوم بأعمال إنشائية في أوجادين في الطرف الآخر من إثيوبيا على حدود الصومال ويهدف التعاون الإسرائيلي الأثيوبي إلى تنفيذ 40 مشروعاً مائياً على النيل الأزرق لتنمية الأراضي الواقعة على الحدود السودانية الإثيوبية وتشمل هذه المشاريع إنشاء 26 سداً لري 400 ألف هكتار وإنتاج 38 مليار ك. وات من الكهرباء وتستلزم هذه المشروعات 80 مليار متر مكعب من المياه تأتى على حساب حصة مصر والسودان .

أربعة سدود على نهر النيل:

من هنا فقد وضعت إسرائيل نصب عينيها التأثير على الأمن المائي العربي خاصة مصر حيث يعتبر نهر النيل مركز الحياة فيها وعلى طرفيه يسكن غالبية المصريين ولم تؤثر العلاقات القوية التي نسجها الرئيس السابق حسني مبارك مع القادة الإسرائيليين على مدار 30 عاما من حكمه في وقف أو تراجع المخططات الإسرائيلية الهادفة إلى تقليص كمية المياه التي تصل مصر من منبع نهر النيل الرئيس "أثيوبيا" فقد سبق أن كشف "يوفال نيئمان" الخبير الإسرائيلي في الفيزياء النووية في مقابلة مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" بتاريخ 18-3-2005 أن علماء وزارة العلوم والتكنولوجيا الإسرائيلية وتحت إشراف منه خلال توليه مسؤولية تلك الوزارة عملوا على تطوير نبات خاص "لديه القدرة على تجفيف مياه نهر النيل إذا ما جرى نشره بكثافة في منطقة بحيرة أسوان (السد العالي)، من خلال زرعه في أي من دول المنبع بشكل يتكاثر معه وبشده ويصل خلال فترات الفيضان إلى ما قبل السد العالي في مصر"، ومن جهته كشف المحلل السياسي الأمريكي "مايكل كيلو" والخبير في قضايا الصراعات المائية حول العالم، ومؤلف كتاب "حروب مصادر المياه"، في مقال له بصحيفة "راندي ديلي ميل" الجنوب إفريقية نشرته بداية العام 2011 عن اجتماع مفصلي عقد في تل أبيب في تلك الفترة بين أعضاء بالكنيست ووزراء إسرائيليين وإثيوبيين، تم خلاله الاتفاق على إقامة مشاريع مشتركة عند منابع نهر النيل، وأضاف "كيلو" أن هذه المشاريع تتضمن إقامة أربعة سدود على النيل لحجز المياه، وتوليد الكهرباء، وضبط حركة المياه في اتجاه السودان ومصر.

اعتراض أثيوبي على السد العالي:

لم تكف أثيوبيا منذ إقامة مصر السد العالي عام 1957 عن المطالبة بالمساواة في توزيع حصة مياه النيل تدعمها في ذلك بل تدفعها إلى ذلك إسرائيل وقد جاء التهديد الإثيوبي الأول لمصالح مصر المائية في 1956 أثناء حرب السويس بإعلان احتفاظها بحقها في استعمال الموارد المائية لنهر النيل لمصلحة شعبها، ورفعت إثيوبيا

درجة تصعيدها الموقف بتقديمها مذكرات احتجاج عامي 56، 1957 مطالبة بحقوق [مكتسبة- في مياه السد العالي معلنة عن عزمها إنشاء (33) مشروعا لم ينفذ منها سوى واحد بسبب الحرب الأهلية التي اندلعت آنذاك.

وفي عام 1977 أعلنت إثيوبيا أنها تريد تحويل 92 ألف هكتار في حوض النيل الأزرق و28400 هكتار في حوض نهر البارو إلى أراض مروية، وفى عام 1981 قدمت إثيوبيا قائمة بأربعين مشروعا على النيل الأزرق ونهر السوباط أمام مؤتمر الأمم المتحدة للدول الأقل نموا، وأكدت أنها تحتفظ بحقها في تنفيذ هذه المشاريع إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق مع الأطراف الأخرى، وتصر أثيوبيا منذ بداية التسعينيات على أن الأوضاع القديمة في حوض النيل لابد من إعادة ترتيبها من جديد ومن ثم لابد من إعادة تقسيم المياه بين دول حوض النيل طبقا لاحتياجات كل دولة وتؤكد أنها لا تعترف بالاتفاقيات القديمة باعتبار أنها تمت في عهود استعمارية.

إستراتيجية وايزمان :

يشار إلى أن الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية هي جزء من إستراتيجية قديمة فحاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ومن قيادات الحركة الصهيونية قدم إلى مؤتمر الصلح في شباط 1919 بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى مطالب واضحة بان يشمل الكيان اليهودي الذي تعهدت بريطانيا بإقامته في وعد بلفور 1917 جميع مصادر المياه وعلى رأسها جبل الشيخ "أبو المياه"ونهري الأردن والليطاني، وقد أنعشت مفاوضات نزع السلاح بين مصر وإسرائيل بعد حرب تشرين أول 1973 التطلعات الإسرائيلية في هذا السياق فكلفت الحكومة الإسرائيلية المهندس اليشع كلي بدراسة نقل مياه النيل، وقدم كلي مشروعه إلى الحكومة الإسرائيلية في 1974، وكان بمثابة دراسة شاملة حول إمكان الإفادة بسحب 1 ٪ من مياه النيل، أي ما يساوي (800) مليون متر مكعب سنويا.

ومع التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد 1979 كلفت الحكومة الإسرائيلية عددا من الخبراء إلى جانب كلي، لتطوير الخطة، وتحدث الإسرائيليون وقتها عن "المياه المصرية والخبرة الإسرائيلية" بطريقة تفضي إلى تحويل صحراء النقب وسيناء إلى أراض خضراء في 1979، وتحدث الرئيس المصري الأسبق أنور السادات عما اسماه "نزعة السلام"الواصلة بين مصر وإسرائيل ورغبته في توصيل مياه النيل إلى القدس لتكون في متناول المترددين على المسجد الأقصى ومسجد الصخرة وكنيسة القيامة وحائط البراق، إلا أن تطور الأحداث في مصر واغتيال السادات وتوتر العلاقات المصرية الإسرائيلية أفضى إلى تجميد التنفيذ.

زيارة ليبرمان :

من الواضح أن موضوع المياه يعتبر مرتكزا أساسيا في الإستراتيجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا، وهو ما يفسر قيام المسئولين الإسرائيليين بزيارات متكررة لمنطقة القرن الأفريقي، منها زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق أفيغدور ليبرمان في أيلول عام 2009، والتي شملت ثلاث دول من حوض النيل هي إثيوبيا وكينيا وأوغندا، والتي أعلن خلالها أن إسرائيل ستقوم بتمويل بناء عدد من السدود في دول الحوض، ويشمل ذلك بناء أربعة سدود في إثيوبيا، بالإضافة إلى (سد تيكيزي) الضخم الذي استكمل تشييده مؤخرا، إضافة إلى الإعلان عن تمويل مشاريع زراعية أخرى ستؤثر في كميات المياه المطلوبة للدول التي ستقام فيها المشاريع.

سد النهضة :

بناء سد النهضة على منابع نهر النيل (النيل الأزرق) الذي بدأت أثيوبيا في بنائه عام 2011 يأتي في نفس سياق المحاولات التي ترسمها إسرائيل للتأثير على الأمن المائي العربي بخفض منسوب المياه في نهر النيل الذي يشكل شريان حياة لمصر والسودان ومع اقتراب افتتاحه في شهر تشرين أول 2020 فانه سيحجز 90 مليار متر مكعب من مياه نهر النيل التي تصل إلى مصر والسودان وستظهر تداعياته جليا في

- نقص الطمي الذي يساعد في خصوبة الأرض الزراعية.
- زيادة تصحر الأراضي الزراعية الموجودة وقلة خصوبتها.
- عجز شديد في توليد الطاقة الكهربائية نتيجة تناقص مخزون السد العالي وخزان أسوان.
- قص شديد في الثروة السمكية خصوصا في بحيرة ناصر.

الخلاصة:

لم توقف اتفاقية السلام الإسرائيلية المصرية الموقعة عام 1978 الجهود الإسرائيلية للمس بأمن مصر القومي والمس بمياه نهر النيل هو أحد المؤشرات على ذلك فيما يشير جهود اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة في الولايات المتحدة وما رشح من دراسات ترى في مصر دولة متعددة الطوائف ينبغي تقسيمها إلى ثلاث أو أربع دول في الشمال والجنوب والشرق والغرب إلى مخططات إسرائيل الأساسية تبقى زعزعة امن مصر فما فعلته خلية التفجيرات الإسرائيلية في مصر في خمسينيات القرن الماضي يتواصل بوسائل أخرى.

في دلالات موجة التطبيع الجديدة

بقلم: محمد هنيد
أكاديمي وباحث تونسي محاضر في جامعة السربون

إنها ليست الموجة الأولى في إقامة علاقات سياسية واقتصادية وثقافية وتجارية وحتى عسكرية مع كيان استعماري مغتصب للأرض والمقدسات. فقد سبقتها موجات من التطبيع كانت فاتحتها معاهدة كامب ديفيد التي وقعتها مصر المهزومة مع دولة الاحتلال وفتحت معها باب التطبيع على مصراعيه. توالت بعد ذلك المبادرات الفردية التي تبرمها الدول على حدة بشكل سرّي أو المعاهدات المعلنة مثل اتفاقية أوسلو الشهيرة 1993 التي تضمنت عملية السلام الشامل وحلّ الدولتين وصولا إلى اتفاقية وادي عربة بين الأردن ودولة الكيان 1994.

بقطع النظر عن هذه الاتفاقيات يملك عدد من الدول العربية مبادرات فردية سريّة في أغلبها تشمل تعاونا مع دولة الاحتلال في مجالات مختلفة وهي معاهدات واتفاقيات تتأثر صعودا ونزولا بالسياق الإقليمي والسياق الدولي. لكنها تصبّ جميعا في مصبّ التطبيع مع دولة محتلة للأرض والمقدسات واعتراف بالحق الصهيوني في الأرض العربية وتنكّر للحق الفلسطيني والعربي الإسلامي في الأرض والمقدسات. إنها بعبارة أوضح وأكثر جرأة خيانة موصوفة للأرض والعقيدة ولآلاف الشهداء الذين سقطوا من أجل فلسطين طوال تاريخ المواجهة بين الأمة وجحافل العدو الغاصب.

أكذوبة السلام

لا يشك عاقل في أنّ مقولة السلام ومشتقاتها المعجمية مثل التآخي والتعايش والتقارب بين الشعوب ليست في الحقيقة إلا أقنعة لتبرير التطبيع بما هو خيانة مؤتمَن على الأرض والمقدسات. أكذوبة لا يصدّقها عاقل لأن الشعوب أعلم بخيانة الحكّام

وحتى الحاكم نفسه والنخب المحيطة به من الشيوخ والعلماء والمفكرين والفنانين والإعلاميين يدركون فداحة الأكذوبة لكنّ ارتباط مصالحهم بوجود النظام المطبّع يجعل من العسير عليهم إنكاره لأنهم صُنعوا لتبرير سياسة الحاكم مهما كان اتجاهها.

تتأسس أكذوبة السلام مع المحتلّ على معطيات كثيرة تكشف زيفها. أول هذه المعطيات إنما تحدّدها طبيعة العلاقة بين الطرفين لأن السلام يشترط تكافؤا في القيمة وفي طبيعة النظام السياسي وفي شرعية القائم به. الأنظمة العربية المطبعة تفتقر إلى أدنى شروط الشرعية فهي قائمة على الانقلابات وعلى القوة القاهرة وعلى طبيعة استبدادية تُلغي كل مكونات الشعب والمجتمع من كل مساهمة في القرار السيادي. النظام السياسي العربي لا يملك شرعية إعلان الحرب ولا إحلال السلم لأنه نظام غير شرعي منفصل عن شعبه وعن مجتمعه بل هو نظام وكالة استعمارية منذ نشأة ما يُسمى زورا الدولةَ الوطنية. إنه بذلك جزء من عملية الاحتلال نفسها ومشارك رئيسي في اغتصاب الأرض وانتهاك المقدسات بما أنه قائم على اغتصاب السلطة وسلب الحرية ومنع السيادة. وهي القناعة التي تدفع كثيرين إلى القول بأن تحرير فلسطين يسبقه تحرير الإنسان العربي نفسه من سلطة الكيانات السياسية المحتلة التي تتحكم فيه وفي إرادته.

المعطيات الأخرى التي تكشف أكذوبة السلام يؤكدها حصاد سنوات عجاف من التطبيع والمعاهدات فلم تحقق الدول العربية السلام مع الكيان الصهيوني الذي ارتكب منذ معاهدة التطبيع الأولى أبشع الجرائم في حق الفلسطينيين. واصلت دولة الكيان الزحف على الأراضي الفلسطينية وضمت منها مساحات شاسعة كما قامت بالسطو على منازل الفلسطينيين وتجريف أراضيهم ومزارعهم وواصلت تهويد القدس وأعلنتها عاصمة للدولة اليهودية. صفقة القرن الأخيرة هي الوجه الحقيقي للسلام المزعوم الذي يعني في الحقيقة إكراه الشعوب على القبول بالاحتلال الغاشم وتهويد المقدسات والتنازل على القدس والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

لم تحقق الصهيونية أكبر اختراقاتها في المنطقة العربية إلا تحت غطاء السلام والحوار والتعايش وهي الكيان الذي لا يؤمن بغير القتل والاحتلال واغتصاب الأرض. لم تحترم دولة الكيان ولو قرارا أمميا واحدا لصالح الشعب الفلسطيني كما أنها رمت بكل قرارات مجلس الأمن في سلة المهملات مستفيدة من الفيتو الأمريكي المساند لها ومن ضعف الدول العربية وتواطؤ الأنظمة والحكومات معها.

السلام مصطلح مختلف الدلالة فهو يعني عند الصهاينة الاعتراف بالأمر الواقع وبالهزيمة التاريخية وبالقدس عاصمة يهودية ويُلغي حق العودة وينسف الحق العربي من أساسه. السلام الصهيوني هو سلام الجزار والضحية التي عليها أن تقبل بسلخها بعد ذبحها. أما السلام العربي الرسمي فيتمثل عند المُطبعين في ضمان أمنهم وضمان عروشهم وضمان ثرواتهم وثروات أبنائهم وحمايتهم من محاسبة شعوبهم وإنقاذهم عند الثورات والمحن.

التطبيع الشعبي

تدرك اسرائيل جيدا أن التطبيع الرسمي لم يعد يعني لها شيئا اليوم لأن قادة الكيان قد صرّحوا في أكثر من مناسبة بأن النظام الرسمي العربي قد باع فلسطين وحق فلسطين منذ عقود. إنها تبحث اليوم عن مكسب المكاسب وأكبر الانتصارات الذي سيحقق لها نقلة وجودية نوعية وهو المكسب المتمثل في التطبيع الشعبي. ليس هذا الكلام استنتاجا فرديا ولا جماعيا بل هي الجملة التي ترد على لسان رئيس الوزراء الصهيوني في أكثر من مناسبة حين يقول بأنه قد آن الأوان للتطبيع مع الشعوب التي لا تزال تقف عائقا مع السلام الدائم لدولة إسرائيل.

التطبيع الرسمي معلوم الدلالة بأنه أولا اعتراف رسمي بدولةٍ محتلة في صفقة معلنة تطلبُ من الكيان الغاصب والقوى الدولية الراعية له أن تتعهّد بالمحافظة على

النظام المُطبّع من السقوط إذا واجه ثورة شعبية مثلما حدث في مصر. لا يتطلّب التطبيع الرسمي سوى موافقة النظام على الصفقة وهو غير مرتبط بزمان محدد بخلاف التطبيع الشعبي الذي يتطلب مجهودا كبيرا تتوفر فيه أدوات متعددة ومتشابكة لتحقيق الهدف المرجوّ منه. التطبيع الشعبي يتطلّب إقناع ملايين المواطنين بشرعية المُطبَّع معه وهو أمر عسير التنفيذ. يتطلب هذا الأمر كذلك تحقيق اختراق كبير للوعي الجمعي من أجل توفير الأرضية التي يمكن على أساسها تحقيق التطبيع وهو ما يبدو في الحالة العربية والإسلامية أمرا على قدر كبير من الصعوبة.

فلسطين هي قضية الأمة المركزية وهي الخط الفاصل بين الانتماء وعدم الانتماء. فلسطين ليست فقط مأساة شعب مشرّد مغتصَب الأرض والسيادة عانى عبر عقود طويلة مرارة الاحتلال والاستعمار بل هي أولا وقبل كل شيء قضية مقدسات مغتصبة لأنها تحمل رمزية حضارية ودينية عظيمة الأثر في نفوس المسلمين جميعا. فلسطين أرض مغتصبة وشعب محتل لكنها كذلك أولى القبلتين بما تحمله من رمزية دينية وعقائدية عند جموع المسلمين.

بهذا المحمول الدلالي المزدوج وبهذا المخزون الحضاري العميق يكون التطبيع الشعبي مع دولة الاحتلال أمرا مستحيل التحقيق مهما حاولت قوى الاحتلال والأنظمة العربية الوظيفية المرتبطة بها اختراقه. بل إنّ الوعي الشعبي اليوم بتحالف الاستبداد مع الاحتلال الصهيوني من خلال التطبيع الإماراتي وقبله المصري والأردني وغيرهما إنما يشكلان نقلة نوعية في وعي هذه الشعوب. تُدرك الشعوب اليوم أنّ النظام الرسمي العربي يلعب آخر أوراقه ويستظل بآخر السقوف من أجل مواجهة كل أمواج التغيير الممكنة والمحتملة ولهذا فهو يهرول بسرعة للتحالف مع القوى الخارجية على حساب الأرض والمقدسات.

بذلك تكون الهرولة نحو التطبيع وما سيتمخض عنها من قرارات وتداعيات مكسبا للوعي الجمعي العربي والإسلامي ومضمونه حقيقة الأنظمة العربية وأنها الحليف الموضوعي للمحتلين والغزاة وهو الأمر الذي سيصبغ مطالب الموجات الشعبية القادمة بصبغة حاسمة. لن يكون تحرر الإنسان العربي ممكنا إلا إذا أدرك في معاركه القادمة أنّ مقاومة الاستبداد هي المدخل الطبيعي والوحيد لطرد الوكلاء والغزاة وتحرير فلسطين كلّ فلسطين من البحر إلى النهر.

---

* عن موقع (عرب ٢١)

هاني عابد...

بقلم: محمد الفاتح

1994-11-4

« من لم يمت بالسيف مات مفخخاً .. توحدت الأسباب والموت مختلف !

أخي هاني .. هذه هي حكمة الموت الفلسطيني في الزمن المفخخ والمطرز بالندى والنار ..

حين فتشوا قلب من مات بالنوبة من شعبنا يوم (التوقيع) لم يجدوا فيه سوى فلسطين ..

وحين سبحوا في دم من مات بالسكر منهم عثروا في مصب شلالات دمه على صخرة اسمها فلسطين ..

وحين حدقوا في الرؤوس التي تتطاير تحت الرصاص النظيفٍ كان الأزير حماماً يكتب في الجوٍ تحيا فلسطين!

وحين ارتجت الأرض ومادت ساعة داهمك البارود الغادرٍ وقف البحر كالسيف وقال : أنا خارطة الزمان المفخخ .. أنا أرملة مقاتلة تدعى فلسطين!.

هذه هي حكمة الموت الفلسطيني في زمن النكوص .. فقد تموت على قمة المجد كالأنبياء .. وقد تموت على مزبلة كاللصوص .

أخي هاني .. حين طفق المجد يستكمل مجده لم يصطف أحد سواك .. فكيف تفارقنا

دون استئذان .. ولمن تركت معادلة «العلو» مبعثرة على الطاولة في معمل الفيزياء .. لم يلتفت أحد منا إلى بطاقة الدعوة التي جاءتك وتذاكر السفر : الدعوة خاصة لحضور الحفل السنوي لذكرى استشهاد القسام في منتصف تشرين الثاني / نوفمبر والذي سيعقد في الفردوس الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

وهل كنا نرى مصارع لوعتنا برحيلك حين كتبنا في العدد الأول من الاستقلال : لا يعرف العشاق أين سيلتقون في السجن أم في الموت أم في ظل وردة !

أخي هاني .. واضحة كالشمس تفاصيل استشهادك ..

فحين أدرت المفتاح وهاجمك الديناميت الخائن انحزت إلى قمم الشهداء فانحاز إليك بنوهم أطفال اليتم ضحايا «السلم» كانوا في النعش كأنك مثل الجمر.. وكنت على الطرقات وروداً وفي «العمري» وعوداً بالصبر وبالثورة والنصر وكانت أمك تحسم جدل «البرزة» أتوزع على عرسك حلوى أم منديل الثأر ؟

قالت سنلف الحلوى بالمنديل..

ليشرق هاني في ليل وعرض البحر « قناديل» تهرب كل ضباع الوطن العربي

من طاردني في صلواتي من زمر الحكام ..

ومن سيؤجر وطني «مفروشاً» للسياح وللحاخام !

أخي هاني .. كم موجع هذا الرحيل . لكنها سنة الله ..

أن لا نعرف خارطة للأرض سوى شلالات دم الشهداء فهي زادنا وزوادنا في الطريق الطويل.

أيها القتلة..هاتوا ما عندكم فليس هذا نهاية الحقد ..

سيرشدنا شجر الغرقد إلى ساعة «الوعد»

لكن مشيئة الرب ليست ملحقاً لاتفاقات عبوديتنا الجديدة وحين تأبطنا حزمة الشوك

شارة للخلاص

صارت أعناقنا لا تهاب الرصاص

وصارت خيلنا ظامئة للمسافات البعيدة

أخي هاني .. هم قتلوك «مفخخة»؟

لا بأس .. ؟

فحين ينبثق الدم .. يستيقظ شعب

وحين نسأل كم ؟ ..

ولا ألف رأس برأس

محمد الفاتح: الاسم المستعار للشهيد القائد

الأمين العام لحركة الجهاد الاسلامي في

فلسطين د. رمضان عبد الله شلح.

ما بعد النكبة الثالثة ..

• بقلم: محمد الفاتح

1995-6-9

عقب هزيمة الخامس من يونيو/ حزيران 1967 احتدم الجدال في أوساط الفكر العربي حول تسمية الهزيمة: هل كانت «نكبة» أم «نكسة»؟

من كان يظن أن الذي سيحسم هذا الجدال بشكل قطعي «وكسة» يقبل فيها «المشروع الوطني الفلسطيني» الرسمي بآثار وهزيمة النكبتين (1948 و1967) كأمر واقعاً بل قدر لا يقاوم وليستحق بجدارة وصف «النكبة الثالثة».

«النكبة الثالثة» ليس إحياء لمخزون لغوي هو في نظر البعض اليوم «غير مألوف» بل بالت عليه «الثعالب» وصفقت لذلك «الأرانب»!

«النكبة الثالثة» هو الاسم غير المنطوق في الضمير الشعبي لاتفاق «أوسلو» الذي يعتبر أخطر حدث في تاريخ الشعب الفلسطيني بعد النكبتين وهو أخطر من الانتفاضة لأنه جاء ليفترسها وينهي القضية الفلسطينية.

بعد «النكبة الثالثة» لم يعد العدو بحاجة ليرسل طائراته لتدمير طائرات ومطارات العرب فبعضها الآن مفتوح في وجه طائراته على الرحب والسعة.

وبعد «النكبة الثالثة» لم يعد العدو بحاجة إلى إرسال دباباته وآلياته لاحتلال غزة بالالتفاف على «تبة المنطار» وضباطه وجنوده يستنشقون الهواء العليل على قمم جبال «هانوي العرب!» شرق النهر ويرقصون في بارات مراكش دون الحاجة لشارون أن يبرّ بقسمه ويقود جيشاً لاحتلالها كما هدد عقب اجتياح بيروت!

بعد النكبتين كنا نعرف الوطن ونعرف الطريق إليه.. وبعد «النكبة الثالثة» تضاءل

الوطن فصار بحجم بند في اتفاق، فلم يعد من السهل التعرف عليه.. واختلفنا على الطريق فصار من الصعب الوصول إليه!

هل تذكر أزيز «الميراج» في سماء غزة، وهدير دبابات «السنتوريون» في شوارعها في صيف السابع والستين؟!

نعم أذكر ذلك.. وأذكر بكاء أبي يوم استقالة «جمال عبد الناصر» في التاسع من يونيو، وأذكر صوت عبد الناصر في اتصاله الهاتفي الشهير بالعاهل الأردني الملك حسين، والذي كان مثار سخرية العدو لسنوات وهي تردد صوتيهما «ألو.. أنا بطلّع بيان وأنت بتطلّع بيان!

وأذكر أيضا لاءات الخرطوم الثلاث.. وشعار إزالة آثار العدوان.. وأذكر قبلها المرحوم الشقيري وخطبه النارية، وأذكر بعدها كتاب المرحوم محمد جلال كشك «أخطر من النكسة».. ليته كان معنا ليرى ما هو «أخطر من النكبة»! إنه «ابتلاع آثار العدوان»، والتسليم للعدو بسيادته على أرضنا وحقه بالعيش آمنا فيها وحقنا نحن في التشرد والترحال المستمر!

الذين جاءونا على فوهات الموت والدمار علينا أن نسلم أنهم دعاة سلام وأن نشطب الماضي (أي التاريخ) لنصبح كشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

هل هناك إهانة أعظم أو نكبة أفدح من أن تسلب أمة تاريخها فتقطع صلة يومه بأمسها.. كيف إذن يكون غدها؟!

الأمة المهزومة هي التي تقبل بذلك عندما ترضخ لموازين القوة الظالمة.. وعندما يختل ميزان القوة بشكل فادح كما هو بيننا وبين عدونا اليوم، فإن أي لقاء طوعي مع العدو يجعل مع الهزيمة سيرورة تمنع استرجاع الحقوق المغتصبة، وتفتح الباب لمزيد من الخسران. ولا يمكن تسمية رضوخ المهزوم للمنتصر سلاماً بل هو استسلام سيزيد المنتصر انتصاراً ويدفع بالمهزوم إلى ما هو أبعد من الهزيمة.. يدفعه إلى الاستلاب النفسي والعقلي الذي يتحرك فيه المهزوم لا إراديا وفق مشيئة المنتصر وأهدافه.

وهنا يفقد المهزوم شرعيته مع أهله فيجري تعويضها بتركيزه على قدمين هزيلتين: عدو خارجي يخوّف المهزوم من أهله وشعبه فيدفعه إلى البطش بهم وقمعهم الأمر الذي لا يعني سوى المزيد من فقدان الشرعية.. ثم الانتساب الوهمي إلى ماضٍ مُضيّع يتم استحضاره بشكل ممسوخ ليخدم أهدافاً سياسة مباشرةً ويُنتج ثقافة وسياسة تلفيقية هي ثقافة وسياسة «النكبة الثالثة».. إنها ثقافة وسياسة تطالب بالإفراج عن المعتقلين في سجون العدو وتعتقل المزيد في سجون السلطة.. إنها تمجد الشهداء القدامى وتلاحق أي «مشروع شهيد» جديد وتصمه بالإرهاب!

إن أبواق الدعاية المنفخة تحاول تسويق هذا الخطاب الذي يحجب عن عيوننا صورة الوطن الذبيح.

فهل يأتي اليوم الذي يتضاءل فيه الباطل ليكبر الوطن فنراه ناصعاً كاملاً من جديد فنسلك الطريق الواضح والصعب إليه خارج مايو المفجع وخارج يونيو المُوجع في الزمن الهجين؟!

محمود الخواجا..

• بقلم: محمد الفاتح

1995-6-30

أخي محمود ..

يا شمس فلسطين تجري لمستقرها العربي الأغر

يا قمر «الجهاد» في منازل العاشقين

يا جملا طار للفردوس في قنوت الفجر

يا سيف « عز الدين» يا سرب الجياد المقبلة

تتلو على موج الجماهير نشيد الزلزلة :

« أيها القاتل المجنون صبرك

دمي المسفوح لن يكتب نصرك

انه يحفر فوق الصخر .. ميلادي وقبرك»

اخي محمود ..

حين سألني الناس عن حدود أصابعك على خريطة الجهاد وفي تضاريس الشهادة

كان اسمك يقدح شررا فوق شفاهي وكانت حروفه تفرقع بين أصابعي !

فتشتعل أنشودة النور والنار في موسم العار ويعلو صباح الخميس هتاف الصغار :

محمود أنت المسدس .. أنت القلم

أنت الخريطة .. أنت العلم

أنت فلسطين .. كل فلسطين

وأنت مع الله دوما « قسم»

أبا عرفات ..

في موكب الفاتحين كنت أنت بوصلة القلب وكنت الجهات الأربع

كنت تهيئ للذاهبين الى جنة الخلد مواعيدهم ..

وكنت تلملم شعث الجماهير في شطط الدرب وسط الزوبعة

كنت الخريطة في أطلس الذاهبين الى القدس

وكنت دليل الحيارى في الطريق الى الأندلس

كنت فلسطين من النهر الى البحر

عمرية اللون أبد الدهر ..

على جبهتك السمراء تنمو رياحين عكا وحنطة مرج بن عامر

وعلى صدرك تستريح جبال الخليل وتهب الصغار رصاص المحاجر

في عينيك تلمع فضة المتوسط ووهجه المتجدد

والقدس تغفو على زندك المقطوع من بلوط يعبد

أخي محمود ..

الآن تشرق صورتك .. في القدس أ في مكة في المدينة المنورة

والآن تسقط في الوحل كل الوجوه المزورة

في زمن الغاصبين كم مرة راودتك المنايا ؟

كم مرة أسلمك السجن للسجين؟

والآن يصطادك الرصاص الأخرس في وطن ملطخ بالجواسيس وبالخطايا .

لم تكن بعنادك القادم من كربلاء تهاب الكلاب

وللنفاذ الى دمك المتمرد كان على « الثورة» أن تهدي فريسة للذئاب .

نعم كان على الثورة أن تغازل الحيات والثعالب

كان عليها أن تفتح للسماسرة المكاتب

وتوزع في مأتم الوطن الحقائب .

نعم .. في غزة الفرسان .. الموت بالمجان . والقهر للإنسان والمجد للسلطان !

أخي محمود ..

يا ابن رصاصة « السِّلم» ويا ابن « حمامة» الحرب

هل هذه نهاياتنا في اول الدرب . درب البراق

أم هذه بداياتنا مع الحب والشمس والانعتاق؟

إن لنا موعدا ننثر فيه على شاهد القبر ورد الخلاص

ونعلن من « كاتم الصوت» هذا زمان القصاص

فقر عينا أبا عرفات ..

وابسط أخي راحتيك لصافنات الثأر معبر

«قسماً» برب الجرح والرمح

سنحيل ملح الشاطئ المغدور « سكر »

وتجيئ يا محمود .. تطلع من بقايا الروح والأشلاء

تحمل لوعة الفقراء

تنسج من دم الشهداء ثوب العز للأحياء

وتسيل يا محمود من دمع المخيم

وتطل يا محمود من دمنا المقاتل

من عطش السجن وجوعه وتجيئ يا محمود من زرد السلاسل

في ضحكة الأطفال .. في حزن الأرامل ..

ستجيئ يا محمود ..

غزة في قلب العرب!...

• بقلم: محمد الفاتح

1995-10-20

عندما تضيق بك الأرض ولا يتسع الزمن العربي إلا للحظة الصمت أو الانتحار، فإن عليك إن لم تلحق بركب "الحكومة" بعد أن تختار، فقد قالت لنا أدبيات الثورة التي أدمنت لثلاثين عامًا "الطخ" فوق رؤوسنا بالشعارات إن "الشعب سيد الاختيار".

السياسة تورث الوجع، والمعرفة تورث العذاب، والقصيدة التي كانت تطاردنا حتى مدرج الجامعة لم تعد تتعاطانا، فليس من خيار إذن إلا التفرغ للحزن، ونشاف الريق، والإهانات الجميلة التي ستعمم على الهواء والماء العربي الآسن.

رحم الله الشيخ إمام المنشد الضرير الذي هزم هو وشاعر المضطهدين أحمد فؤاد نجم، كل متعهدي الفن الثوري الذين انهار فنّهم كعمارات الفقراء في حي شبرا بالقاهرة، مات الشيخ إمام ومات معه جهاز التسجيل الذي سرقته مني الأرض الرخوة تحت أقدامي، فلم أعد قادراً على استحضار صوته بآهات نجم "آه يا زمان الخنا يا ماشي بالمعكوس، فيك أي شيء ينشرى وكل شيء بفلوس"، وبصعوبة بالغة أكاد أستجمع نفسي ومقاطع قصيدة "غزة في قلب العرب" التي يقول فيها نجم بصوت الشيخ إمام:

من يشتري الفيروز غزة مع الدلال

من فين يا شابة النسب..

وبنت مين فِ الناس؟!

ومين فِ ناسك حسب

وعطاكي للنخاس

بحرين عيونك أسى

ساقيين قلوب الناس

من فين ياشابة النسب

وبنت مين فِ الناس؟

قالت.. بلهجة عرب

غزة .. في قلب العرب

غزة .. وأهلي عرب

خالص وبنت حلال

مات الشيخ إمام ولم يعرف إن كانت غزة في قلب العرب أم في جيب الدول المانحة؟

سؤال بل لغز يحير حكومات العرب وستفك طلاسمه لهم المغنية اليهودية اليمنية الأصل عوفرا حزان و"الحكمة يمانية" يا رسول الله!

"عوفرا" حملت معها للسيد عبد الكريم الأرياني خمريات أبو نواس وحماسيات أبو تمام وروميات أبو فراس الحمداني، وزفرات عروة بن الورد، ومعلقات عنترة وطرفة بن العبد، وكلها قصائد معفاة من الرسوم الجمركية حسب اتفاق التجارة الحرة مع أمريكا التي اصطادت فيها "معاريف" السيد الأرياني.

وعندما ترجع "عوفرا" برُفات الحاخام "شالوم شيبازي"، يختتم وزراء الداخلية ورؤساء الأجهزة الأمنية العرب اجتماعاتهم في تونس.

الأنبـاء المتسربـة مـن هنـاك قالـت إنهـم يبحثـون في أخطـار فرقعـة أصابـع تلامـذة الوطـن العـربي الصغـار وهـم يتسـابقون للسـؤال في "حصـة الجغرافيـا": أيـن تقـع فلسـطين بعـد أوسـلو يـا أسـتاذ؟!

هـل غـزة في قلـب العـرب..؟ أم في أزيـر طائـرات حاكـم شرق النهـر التي تهـزم هدير التاريـخ المسـتعار، وهـي تحلـق في عـرض مشـترك للطائـرات التـي "تخطـف العاشـق مـن حضـن الفراشـة" في سـماء القـدس؟!

هـل غـزة في قلـب العـرب..؟ أم عـلى الحواجـز التـي ينفـذ منهـا المهربـون وقطـاع الطـرق، وجماهـير كـرة القـدم، وتحتجـز الشـهداء والمحتفلـين بهـم في السـادس مـن أكتوبـر؟!

هـل غـزة في قلـب العـرب..؟ أم في أنابيـب الغـاز القطـري الـذي سـيغذي عـروق دبابـة "مركافـاه" ويحيلنـا مـع أول "شـمة" منـه إلى نقـوش عـلى شـواهد قـبر المرحلـة؟!

هـل غـزة في قلـب العـرب..؟ أم عـلى ظهـر سـفينة عـلى مشـارف لارنـكا ينشـد فيهـا الممنوعـون مـن حيفـا والمطـرّدون مـن واحـات العروبـة: "بـلاد العـرب أوطـاني"؟!

هـل غـزة في قلـب العـرب..؟ أم في علـب السردين المحشـوّة بالكرامـة المهـدورة والمكدّسـة عـلى رفـوف السـوبر ماركـت الأمريكـي؟!

الآن أذكـر أن الشـيخ إمـام مـات بعـد أن غنّـى الإجابـة: "لا يـا عديـم التنـا / لا أنـت ولا البايعـين / سـوق النخاسـة جـبر/ والأهـل بالملايـين / أبويـا بـاني الحـرم/ وأمـي مـن القدسـين/ ومـصر فيهـا الهـوى/ والعـزوة فِ الشرقـين/ حلفت بالمرحمـة/ والـدم والملحمة/ والفـارس الـلي حمـى/ مـا أمـشي ورا الأنـدال/ مـا أمـشي ورا الأنـدال".

والفاتحة لروح الشيخ إمام.

بعد القدس.. الخيانة ترتكب العرب!...

• بقلم: محمد الفاتح

1995-10-26

"مرّيت ع القدس

قالوا النّبي زعلان

باعوا الأذان

تيشتروا بُستان

قاعد بو لهب مرتو معو

محمِّل على ضهرا حطب

بَرْدَان عَمْ يوقِد عَرَبْ"!

هكذا ينعي شاعر العامية اللبناني الشهير طلال حيدر العرب، بعد مآثر أوسلو وأمجاد وادي عربة..

وهكذا هو التاريخ ..وهذه هي قيمة من يُصرون على الشخير خارجه..

أن يصبحوا كومة من حطب تُشعل دفء جلاديهم أو حفنة من عرب لا يهمهم "زعل النبي" طالما نالوا "رضى أمريكا".

أسرجوا الخيل واقرعوا الطبل لمواكب أصحاب الجلالة، والفخامة، والسموّ، فها هو "شجر الوهم الوارف" يُثمر، وها هي "رؤى السراب الزاحف"

تتحقـق وهـا هـو "غثـاء السـيل الجـارف" يعلـو، فيُصـوّت الكونغـرس الأمريكـي بالأغلبيـة السـاحقة، أن القـدس هـي العاصمـة الموحـدة لـ"إسرائيـل" إلى الأبـد.

هاتـوا إدوارد سـعيد يُقسـم لنـا أن هـذا السـلام "استسـلام بـلا حـدود وأنـه عـار شـديد" هاتـوا محمـود درويـش ليؤكـد أنـه سـيُحيلنا "حفنـة مـن تـراب".. هاتـوا نـزار قبـاني ليـصرخ: "ليـس هـذا الثـوب ثـوبي... ليـس هـذا العـار عـاري" ويـا "طـير البـرق" ! هـل تسـتطيع أن تحمـل مظفـر النـواب إلى نيويـورك؛ ليصارحهـم بحقيقتهـم أن شـيئا مـا (!) "أطهـر مـن أطهرهـم".

كانـوا هنـاك في نيويـورك، لكنهـم لم يسـترقوا السـمع وراء أبـواب الكونغـرس.. لم يحبسـوا خناجرهـم، ولم يتنافخـوا شرفـاً لصرخـات بـكارة القـدس... كانـوا يبحثـون لهـم عـن موطـن قـدم في الصـورة "العائلية"مع الطـاووس العالمي في الذكرى الخمسـين للمأسـوف عـلى نبلهـا وعدالتهـا الأمـم المتحدة!.

كانـوا يشـاركون التنـين الأمريكـى احتفالـه بانتصـار نظـام النهـب العالمـي وسـيادة البشـاعة في زمـن التحـولات الكـبرى، والانتصـارات الكـبرى، وأيضـا الانكسـارات الكـبرى.

في الأمـم المتحـدة حـضر الصغـار والكبـار والتـأم الشـمل العالمـي (!) وغابـت فلسـطين وحـضرت الكوفيـة.. فهذه بعض كسـور المعادلـة "الأرض مقابـل القماش"!.

في الكونغـرس اجتمـع حكـماء صهيـون، فاكتمـل السـلام العالمـي عـلى جثـة القـدس!.

وبعـد سـاعة مـن إعـلان الخـبر كنـا نصفـق لرابـين وهـو يعلـن انتصـاره

وانكسارنا.. كنا نتأمل شكل المستقبل الفلسطيني في تقاطيع وجهه ووعده (الجميل)، لنا بالخبز والحرية.. كنا نبحلق في أسمائنا المستعارة التي يخلعها علينا ومساحة الذل التي يفرزها لنا بين الظفر والناب.

هل تقرع أمريكا بقرار الكونغرس هذا طبول الحرب الصليبية من جديد؟ وهل توقفت هذه الحرب ضدنا منذ قرون أصلاً؟! كل ما في الأمر أن علينا أن نقبل بقبعة زرقاء للحلف الأطلسي بين قبر الشهيد وقبر الشهيد!.

ما أقرّه الكونغرس بالأمس هو ما طرحه كلينتون في برنامجه الانتخابي الماضي فلا مجال للثناء العربي إذن على موقفه "المغاير" للكونغرس.. أم أن العرب يُرضيهم ويروقهم أن تصبح القدس موضوعاً للمنافسة في الانتخابات الأمريكية تماماً كالإجهاض والشذوذ الجنسي؟

لم يكن بإمكان الكونغرس أن يلتهم القدس لو لم يقبل أهلها بتأجيلها.. نعم القدس تؤجَّل لكن القمع والقهر لصالح أمن العدو معجّل!

بالقرار الأمريكي تثبت رؤية الهلال الحل النهائي أن كل ما أُجّل سينفذ فيه الموقف الإسرائيلي طالما أن القدس أقدس المؤجلات خضعت لذلك، ولا حول ولا قول لعرب أمريكا و"إسرائيل" سوى التباكي على الشرعية الدولية، ومسيرة السلام ولا بواكي للقدس.

حديثوا العهد بالسياسة و"كار"الصحافة يقولون "إن على أمريكا الإسرائيلية أن تنحني قليلاً ريثما تمر عاصمة القدس.. والكرة الآن في ملعب العرب والمسلمين"! من أن تنطلق العاصفة (يا حسرة) والعرب والمسلمون صاروا هم

الكـرة، تتقاذفهـم أمريـكا عـلى ملعـب التاريـخ كيفـما تشـاء!.

قالـوا لنـا منـذ بدايـة الـصراع إن "إسرائيـل" تحـرس منابـع النفـط لأمريـكا واذا بالنفـط اليـوم يحـرس "إسرائيـل" ويسـتعد لدفـع كامـل تكلفـة وجودهـا في قلـب الأمـة.

قالـوا لنـا إن أمريـكا تدعـم "إسرائيل"للمصلحـة المتبادلـة بينهـما، وإذا بنـا نسـمع عـن المصلحـة المشـتركة التـي تجمعنـا بالعـدو التاريخـي للأمة!..

لقـد صمنـا الدهـر عـن حلـم وحريـة، وأفطرنا عـلى ليـل وعبوديـة.. وفي عاصمة النهـب العالمـي وفي أروقـة الامـم المتحـدة كانـت القـدس كـرة ثلـج ذابـت في حـرارة مصافحتنـا للغـزاة وذابـت معهـا خطـى الفـاروق، وسـيف الناصر صـلاح الديـن، وقبّة عبـد الملـك بـن مـروان.. وأمـام كاميرات اللصـوص صـار دمنـا مـاء لفطـير صهيـون.

قـال لـه صاحبـه وهـو يتابـع ردود فعل العرب والمسـلمين على قـرار الكونغرس: كـم مـرّة يجـب أن نسـقط في امتحـان الكرامـة؟ قالـوا لنـا إن القـدس هـي سـاعة الصفر، لكننـا الآن دونـه بكثـير في موازيـن الأمـم.. وهـل بقـي مـن الخيانـة شيء حتـى يرتكبـه العـرب بعـد القدس؟

ردّ وكله حزن وأسى: بعد القدس الخيانة ترتكب العرب!

هل تستقيل الوردة من عطرها؟!..

• بقلم: محمد الفاتح

1996-2-12

قرأت في الاستقلال رسالة «ابنة القدس» تسأل عن «محمد الفاتح»، فاغرورقت عيناي بالدموع، لكنني للأسف لم أستطع تلبية طلبها بالعودة للكتابة، ليس لأنني قُمعت أو أُحبطت كم اعتقدت هي، ولكن لأسباب خاصة يصعب البوح بها كلها،.. منها رحيلي عن الوطن لظروف قاهرة ورحيل لغتي وصوتي عني منذ رحيل المعلم الفارس أبو إبراهيم الشقاقي..

لم يكن «محمد الفاتح» سوى تلميذ صغير في مدرسة مؤسسها العملاق فتحي الشقاقي. كان أبو إبراهيم (رضوان الله عليه) توأم روحي ومداد قلمي حين غادرنا لملم من زوايا عقلي، وجنبات قلبي كل المفردات التي زرعها فيّ لما يقرب من عقدين من الزمان..

وحين اتصلت بي هيئة التحرير وطلبت مني أن أكتب ولو مرة واحدة في تكريم الشهيد العظيم يحيى عياش، بكيت الشهيد فور انتهاء المكالمة للمرة الرابعة!، الأولى كانت بكاء الانتصار بعد سماع نبأ استشهاده، والثانية كانت بكاء الفخر والاعتزاز عندما رأيت والد الشهيد وسمعت كلماته تعليقاً على خبر استشهاد ولده، والثالثة كانت بكاء الفرحة والثقة بشعبنا عندما رأيت جنازة الشهيد، والرابعة كانت بكاء الضعف وقلة الحيلة عندما طلبت إليّ هيئة التحرير أن أكتب عن يحيى عياش .

عندما يسقط رأس يحيى عياش الإنسان القدّيس في زمن صارت فيه رؤوس الحيوانات على أجسام الناس الذئاب، ما جدوى الكلمات وما هي قدرتها على وصف بشاعة المرحلة؟!

كما هو فتحي الشقاقي عندي، فإن يحيى عياش غير قابل للرثاء ويستعصي علي كل الكلمات. يحيى عياش كان قابلاً للانفجار، قابلاً للاشتعال، وقلبه وسع فلسطين من بحرها إلى نهرها.. فأية لغة يمكن أن تسِعه؟!

كم من الشهداء يلزم كي يخلع الشرطي بدلته ويمضي في زحام الشعب، يبحث عن بقايا لحمنا في رأس حربتهم؟!

كم فتحي الشقاقي ويحيى عياش يلزم «حماس» و«الجهاد» لتزرع عظامهما سياجاً حول المشروع الإسلامي في فلسطين يحميه من انهيارات الزمن الإسرائيلي ويحفظ شباب الإسلام من عطب الروح ودنس المرحلة؟!

أن أكتب عن يحيى عياش، يعني أن أعيد صياغته وتكوينه وهو المستحيل، فالذي احترف تركيب العبوات التي تدشن لتفكيك المستوطنة الملعونة «إسرائيل» بقطرات الدم الزكيّ لا تعيد صياغته وتكوينه قطرات الحبر الفاخر ولا أحرف الكمبيوتر الأمريكي!

لست أنا الذي اخترت التوقف عن الكتابة يا ابنة القدس، لكن دم فتحي الشقاقي الذي يمتزج به دم يحيى عياش الآن هو الذي دفعني عن حصان النشيد وسلبني وتر اللغة، وقال لي ما قاله الشاعر يوماً: «لابد من منفى يُبيّض لآلئ الذكرى ويختزل الأبد، في لحظة تسع الزمان..» دم هؤلاء الأفذاذ يستحث خطاي للحاق بهم ويقول: «إن خطوة الشهداء بيت».

تُرى كم كان وسع خطوة يحيى عياش وهو يعدو بين جنبات الوطن ليتوارى عن أعين الغزاة؟ ماذا لو قال أحدنا إن خطوة الرجل عندما غادرنا كانت بالكيلومترات، لا السنتيمترات.. هل يصدقه أحد؟ هل يصدق أحد أن خطوة يحيى عياش صارت بيتاً وسع الشعب كله حين سار في جنازة يحيى؟!

رُغم البكاء ومرارة الفاجعة، إلا أن حزني ليس على الشهيد الذي ارتحل عنّا نحن أكوام الطين الآدمي ليبعث فينا الحياة.. حزني ليس على الشهيد وأنا أنظر إلى أمة، أمنا كلها وقد شدت وسطها بحزام الصبر حتى النصر..

حزني ليس على الشهيد ودوي الرصاصة التي أطلقها طفله «البراء» لا يفارق أذني.

كما أن حزني ليس على «أبو إبراهيم» رغم أن بنته خولة منذ رحيله تهدهد دميتها لتنام منشده:

«قل لزوج الحمام يكف الهديل

فأنا لا أنام وحبيبي قتيل»

حزني على أولئك الذين يطالبون شعبنا بالتغاضي عن الدم في كأس لوعتنا المرير.

حزني على أولئك الذين يسفحون دم وجوهنا فلا نعرف بأي الوجوه نقابل أرامل الشهداء وأيتامهم.

حزني على من يحاولون التنصل أو الحياد ويقولون إن من حق الوردة أن تستقيل من عطرها.. ومن حقنا أن نستقيل من دم الشقاقي وعياش! حزني على خطا النشاما التي لم تعثر على بقايا لحمنا في حراب الجند بعد.

لكل هؤلاء أقول:

إن دم فتحي الشقاقي ويحيى عياش يضعنا على طرف الخيار:

إما أن نغيب أو نُعلّب أو نموت على مزاج الأوصياء..

فهل نختار جنون السقوط في هذه البدائل طالما أننا نستطيع الموت على مزاجنا؟!

من يجهل الإجابة فليذهب إلى قبر صلاح شاكر، وأنور سكر؛ ليقرأ ما كتبه هناك عبد الله بن رواحة قبل ألف وأربعمائة عام:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة * وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة * بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي * أرشده الله من غاز وقد رشدا

والنعم يا من تركتم لنا الوصية في شظية..

• بقلم: محمد الفاتح

«هز الرمح بعود الزين ... وانتم يا شباب منين

احنا شباب فلسطين ... والنعم والنعمتين»

والنعم يا صلاح الدين يا شاكر الاله في علاه يا داخلا عباءة النبي يا فارس القصواء ، والنعم يا أنور المجد والفدائي يا سكر الليمون والبرق المعطر ليلة الحناء، يا آخر المدافعين عن شرف أمة مهيضة الجناح يا براعم الملاحم المضيئة في غد مثل نجمة الصباح يا سيف عز الدين ولعلة الرصاص في الاعراس يا فجرنا القريب في جزائر المجد على ذرا الأوراس يا شجر الورد الذي يزهر البارود والقمح المقاتل يا حمزة العربي يشهر في عكاظ سيفه ضد السلالات الجبانة في القبائل ..

يا أمراء الفتوحات .. يا سدنة المكان ويا سادة الزمان .. يا أسد الله الغالب ويا جيش طارق بالسفائن يشعل الشطان.

يا رأس حربة تطل من جمر السنين .. يا شهد آية تسيل من ندى السيوف يا من تحررونا من عاهة الخوف ومن أسر الرغيف ..

يا ذروة العشق الالهي واللؤلؤ المخبوء في مدن الطيوب يا فدو قدسنا ويا استغفار شعبنا من عار (أوسلو) أم الذنوب..

يا ساكني طهر المآذن في توأم الاحرار في رفح .. الشجاعية .. يا سورة الاسراء تصهل في ظلام السجن أقمار حرية ..

«غز الرمح بعين رابين وأنتم يا شباب منين

احنا شباب الاسلام والنعم والنعمتين»

والنعم .. يا من تركتم لنا الوصية في شظية :

نحن الموقعون أعلاه على قباب النور في السماء ..

لا تسألوا عن أصلنا وفصلنا .. نحن دمعة الخليل ابراهيم في الحرم الذبيح .. نحن تسبيح النبي في صلاته بالأنبياء .. جدنا القسام كان عودا من الريحان .. وردا من القرآن .. لكنه احترف الفداء ..

نحن اخترنا الحياة في لونها الوردي وشكلها الابدي .. نحن انتقينا حلاوة الانشطار والانتشار كالضوء كالغبار الحلو في الوطن .. كي لا يرهق ميزانيات الجيوش والعروش الناخرة ثمن الكفن .. نحن قررنا بأن نحيا نيابة عن موتى وهبوا ظهورهم للأنظمة كيما تهب الأوطان للشيطان .. نحن انفجار الحق ضد من عقروا خيولنا وحالوا دوننا ودون قدسنا سبية يلتف حول جيدها ثعبان سموه في الزمن المؤمرك (الاستيطان) .

نحن الرد نحن الوعد يا عرب الفضائح والمدائح يا من تقايضون الدين بالدولار .. يا من تعززون حصون خيبر وتطاردون نيابة عنها أمير (ذو الفقار)

(زغب الحواصل) أعذرونا .. في لحظة اكتشاف الوطن نادى منادى الأنبياء .. هاني أطل ملوحا ..وعماد عقل يرفع الرايات ابراهيم يحمله على الأكتاف سيل من الشهداء .. فما كنا لنخلف موعدا لهكذا لقاء .. يا والدينا سامحونا اذ نمضي بلا شجر

ولا ماء نورثه بنينا .. هي سنة الله ودرس تحفظونه مات النبي ودرعه مرهونة.

(أسرى القماط) – قال أنور –اعتقوني .. لم يبق الزمان لأمكم من حلى .. فمن ذا يسد الدين دمي لا يكتب الشيكات وبورصات عصر النفط لا تعترف بدم الحسين .. من مغرب الجوع لمشرق الحرمان ظل يدعونا لنتلو خطبة أبيه على الركبان (لقد ملأتم قلبي قبحا وشحنتم صدري غيظا وجرعتموني الموت أنفاسا وأفسدتم على رأبي بالعصيان والخذلان)

«هز الرمح وقول للسلطة احنا أبناء الاسلام

أخذنا بثأر اخوانا الشرطة والنعم والسبع تنعام»

كلمة الدكتور رمضان شلّح، في الذكرى الـ69 لنكبة الشعب الفلسطيني

• بقلم: محمد الفاتح

2017-5-15

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعد..

أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

يا أبناء شعبنا الفلسطيني العظيم،

يا أبناء أمتنا العربية والإسلامية،

يا كل أحرار العالم،

اليوم هو يوم الذكرى الكبرى، ذكرى نكبة فلسطين الأليمة عام 1948. ذكرى أكبر جريمة سطو مسلح وعملية تطهير عرقي في تاريخ الإنسانية، حين تم اغتصاب أرض فلسطين وقتل وإرهاب وتشريد أهلها الأصليين وأصحابها الشرعيين

بقوة السلاح وبالمجازر الصهيونية، وتم اختراع شعب آخر من أتباع الديانة اليهودية المنتشرين في أنحاء العالم، الذين جلبتهم الحركة الصهيونية ليستوطنوا فلسطين تحت حراب الاحتلال البريطاني، وليعلنوا في مثل هذا اليوم، قبل تسعة وستين عاماً، قيام دولة يهودية صهيونية على أرض وطناً فلسطين، الذي لا نملك ولا نعرف لنا وطناً سواه.

يا أحباء فلسطين في كل مكان: إننا لا نحيي ذكرى النكبة لاستحضار وقائع جريمة وقعتْ ومرارة آلام ومعاناة مضت، فالنكبة مستمرة، ومازال شعبنا يعيشها ويعاني آثارها كل يوم، وكل ساعة،في محنته المستمرةْ على أرض فلسطينْ وفي الشتات والمنافي. إن استمرار النكبة، ليس فقط يعري صناعها، لصوص الأوطان، ويكشف بشاعة العنف والإرهاب الذي اغتصبوا به وطننا السليب، وفرضوا عليه دولة الخرافات والأساطير الدينيةْ والمزاعم التاريخية، بل يفضح سراب السلام وأكذوبة التسويةْ التي ولدت من رحم الهزائم واختلال موازين القوى، ويجري الاستعداد المشبوه حالياً لإحيائها وإعادة تسويقها بكل ما حملت من أوهام وظلم وإجحاف بحق شعبنا وقضيته.

يا أبناء شعبنا وأمتنا في كل مكان..

تهل علينا ذكرى النكبة في ظل مناخ عربي رسمي وإقليمي ودولي هو الأسوأ في تاريخ الصراع، إن لم يكن في تاريخ الأمة. مناخ تسيطر فيه على عالمنا العربي حالة سلم شاملْ غير معلن بالكامل مع «إسرائيل»، وحالة حرب معلنة على كل من يذكرون الناس بأن لنا وطناً اسمه فلسطين.. مناخ موبوء، لسان حال النخبة العربية فيه، من مروجي ثقافة الاستسلام واليأس، يقول لنا:إن فلسطين ضاعت ولن تعود، والحديث عن تحريرها هوضرب من ضروب الخيال أو الجنون!

في ذكرى النكبة من هذا العام، يترقب العالم وصول الرئيس الأمريكي الجديد ترامب، إلى بلاد الحرمين، في مهبط الوحي، وقد تم حشد معظم زعماء المنطقة ليكونوا في استقباله على نحو كرنفالي غير مسبوق.. يأتي ترامب وكله أمل أن يلمس في هذه الزيارة أهم صفتين للعرب، كما قيل، الكرم والنسيان.. وربما يفاجئ الضيف بأن مضيفيه قد نسوا فلسطين والقدس والأقصى ثالث الحرمين،دون أن يدركوا أن من يفرط في القدس يفرط في مكة! أما الكرم العربي، فقيصر روما الجديدةِ قادم لأخذ الجزية من بعض العرب والمسلمين بمئات مليارات الدولارات ثمناً لصفقات أسلحة أمريكية، سيصب جزء منها في جيوب أثرياء اليهود الأمريكيين، الذين يمولون جريمة ابتلاع القدس وتهويدها.بهذه الزيارة المشؤومة،ربما تدخل المنطقة حقبة جديدة بكل المقاييس، يطمح فيها أعداء الأمة بإعادة رسم الخرائط في المنطقة وتغيير هويتها، وتصفية قضية فلسطين،وتثبيت ودمج «إسرائيل» كدولة طبيعية مهيمنة في المنطقة، وتقسيم وتفتيت دول عربية مركزية على أسس طائفية ومذهبية وعرقية،بما يسوغ ويشرع وجود «إسرائيل» كدولة يهودية.

في ظل هذه الريح الأمريكية التي تهب على المنطقة،وما تحمله من مخاطر، وفي ذكرى النكبة الأليمة، فإننا، وباسم جرحنا النازف في فلسطين والقدس، نتوجه لكل أبناء شعبنا وأمتنا، ولكل أحرار وشرفاء العالم، بعدة رسائل:

أولاً: إننا نأمل أن يتعافى النظام العربي من وهم الرهان على أمريكا و«إسرائيل»، وأن يدرك القادة والزعماء أن أمن البلاد العربية والإسلامية يحققه أبناؤها لا أعداؤها، ونقول لهم لا تكرّروا خطأ أجدادكم عندما قاتلوا المسلمين الأتراك تحت راية بريطانيا

والحلفاء،وراية الجنرال اللنبي، الذي قال عندما احتل القدس "اليوم انتهت الحروب الصليبية"، وقد فعلوا ذلك طمعاً في استقلال العرب، فجلبوا لنا الاستعمار الذي تقاسم المنطقة، وزرع لنا في قلبها «إسرائيل»!

ثانياً: إننا إذ ننحني إجلالاً، في ذكرى النكبة، أمام قامة شعبنا العظيم، الذي لم يستطع صناع النكبة أن يكسروا إرادته طيلة تاريخ الصراع، لنؤكد إن الرد الطبيعي والواجب على النكبة المستمرة، هو وحدة الشعب الفلسطيني كله، في مواجهة المشروع الصهيوني، الذي لم يسقط من أجندته حتى اللحظة، هدف القضاء على الشعب الفلسطيني، واقتلاع من تبقى منه من وطنه فلسطين.

ثالثاً: وحتى لا يبدو حديثنا عن الوحدة نوعاً من الخيال أو الوهم، نقول، وبكل صراحة والتزام ومسؤولية، لا يمكن تحقيق الوحدة الفلسطينية، ولا حتى المصالحة وإنهاء الانقسام، دون سحب اعتراف منظمة التحرير بإسرائيل،والقطع مع مسار أوسلو الذي أبقى على الاحتلال باسم جديد، وجعله أقل تكلفة للعدو. طالما أن "الشيطان الإسرائيلي" في بيتنا، وفي "عش التنسيق الأمني المقدس"، فلن تقوم لهذا البيت قائمة، ولن نفلح في إعادة بنائه وترتيبه بأي حال. هذا ما أكدنا عليه في مبادرة النقاط العشرالتي طرحتها حركة الجهاد، والتي مازلنا نعتقد أنها تشكل أرضية مناسبة للحوار الوطني،من أجل إجراء مراجعة شاملة وصياغة استراتيجية وطنية جديدة تليق بالشعب الفلسطيني وتضحياته، بعد فشل خيار التسوية الذي سلكته منظمة التحرير، للحصول على دولة فلسطينية في حدود عام1967، من خلال الاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها، ووصوله إلى طريق مسدود.

رابعـاً: إننـا وفي ذكـرى النكبـة، ندعـو إلى صياغـة ميثـاق وطنـي فلسـطيني جامـع، بعـد تخلي منظمـة التحريـر عـن الميثـاق الوطنـي الـذي تـم إلغـاء بنـود أساسـية منـه اسـتجابة لضغـوط وإمـلاءات أمريكيـة «إسرائيليـة».. لذلـك، نحـن بحاجـة إلى ميثـاق وطنـي، يحـدد لنـا مـا هـي الثوابـت، ومـا هـي المرجعيـات التاريخيـة والقانونيـة لكامـل حقنـا في وطننـا فلسـطين، ويضبـط مسـيرتنا وخياراتنـا. نريـد الميثـاق لمواجهـة تفـشي الروايـة الصهيونيـة للـصراع، بـكل مـا فيهـا مـن تزويـر للتاريـخ والحقيقـة، ولنقـول لأبنائنـا وأحفادنـا ولأمتنـا وللعـالم كلـه، أرض فلسـطين لمـن؟ لنـا أم لليهـود الصهاينـة؟! وهـل هـي أرض فلسـطين، أم أرض «إسرائيـل»؟! وهـل مـن حقنـا أن نحمـل السـلاح ونقاتـل مـن أجـل تحريرهـا، كـما كل شـعوب الأرض التـي واجهـت الغـزو والاسـتعمار، أم مـن حـق بعضنـا أن يلـزم نفسـه بنبـذ المقاومـة وتجريمهـا وملاحقتهـا حفظـاً لأمـن عدونا؟!نريـد الميثـاق الجامع،كـي نخـرج مـن حالـة البلبلـة والفـوضى الفكريـة والسياسـية، الرسـمية والفصائليـة، التـي باتـت تهـدد مسـتقبل شـعبنا وقضيتنـا.

خامسـاً: إن مـن أهـم أولويـات شـعبنا اليـوم، توفـير متطلبـات الصمـود والبقـاء عـلى الأرض، وإنهـاء الحصـار الظـالم لقطـاع غـزة. في مقابـل ذلـك، فاجأنـا رئيـس السـلطة الفلسـطينية الأخ أبـو مازن،بأنـه بـدلاً مـن أن يسـعى لفـك الحصـار عـن شـعبه ويسـهم في تخفيـف معاناتـه وآلامه،وجدنـاه يعلـن سلسـلة مـن الإجـراءات والقـرارات التـي لا معنـى لهـا سـوى الحـرب الاقتصاديـة عـلى هـذا الشـعب، في لقمـة عيشـه وقـوت أطفالـه، بـما يزيـد مـن آلامـه ومعاناتـه ويمتهـن كرامته.هـل هـذا جـزء مـن فاتـورة العـودة إلى المفاوضـات؟ أم عربـون "لصفقـة العـصر الكـبرى" الخـاسرة التـي يروجـون لهـا؟!إن الشـعب الفلسـطيني لا يسـتحق ولا يحتمـل هـذه العقوبـة الجماعيـة، وإن قطـاع غـزة اليـوم برميـل بـارود عـلى وشـك الانفجـار،وإذا انفجـر، فلـن يبقـي ولـن يـذر!

سادساً وأخيراً: إننا نؤكد في ذكرى النكبة، على ضرورة تفعيل الانتفاضة وتصعيدها على نطاق جماهيري واسع، دفاعا عن القدس والمسجد الأقصى المهدد بخطر الهدم، وانتصاراً للأسرى الأبطال وتضامناً مع مطالبهم المشروعة في معركة الحرية والكرامة.. إن دفاعنا عن الأسرى هو دفاع عن إنسانيتِنا، وهو التعبير الطبيعي المشروع عن مقاومة العبودية ومحاولة سلبنا الحياة بعد أن سلبونا الوطن.

إننا في هذه المناسبة، نتوجه بالتحية إلى كل أسرانا البواسل، في ملحمتهم البطولية، ونقول لكل قادة الحركة الأسيرة، ولكل الأسرى والأسيرات، من كلِ القوى والفصائل، من صبركم وصمودكم وجوعكم وعطشكم، ستشرق شمس الحرية، ليس لكم فحسب، بل لوطننا فلسطين بإذن الله.

أما العدو المجرم، وكل المتواطئين معه بصمتهم ولا مبالاتهم بمعاناة أسرانا ومحنتهم، من دول وحكومات ومؤسسات دولية وهيئات حقوق إنسان، فنقول لهم: إن تحققت مطالب الأسرى العادلة،فلله الحمد والمنة، وكفى الله المؤمنين شر القتال. وإن استمر العدو في غطرسته بما يعرض حياة أسرانا للخطر، فنحن لن نقف مكتوفي الأيدي أو نتركهم فريسة الموت نتيجة عناد الصهيونية العنصرية المتوحشة، فلنا في المقاومة كلمتنا وخياراتنا المفتوحةوكفى!

نختم بالقول في ذكرى النكبة، إننا في حركة الجهاد، وكما عبر بعضهم، بما هو شرف لنا، سنبقى متمترسين عند خيار "التحرير الكامل"، مهما كان الثمن والتضحيات..إننا لن نلقي السلاح، ولن نعترف بالوجود الصهيوني على أي شبر من أرض فلسطين، ولن نساوم على ذرة من تراب القدس، لأن الاعتراف «بإسرائيل»

يعني لنا الاعتراف بإلغاء فلسطين وأصحابها الأصليين.. ولا يملك أحد على وجه الأرض أن يلغي فلسطين حتى لو بقي فلسطيني واحد في هذا العالم. سنظل نقول: لا «لإسرائيل» لأنها تعني نعم لفلسطين كل فلسطين.. فهي وطننا قبل النكبة وبعدها.. بالأمس واليوم وغداً، وكل يوم.. وسوف تتحرر بعون الله، كما تحررت من كل الغزاة في الماضي، مهما تخلف العرب والمسلمون عن داعي الجهاد وواجب التحرير.. هذا ما ينبئ به التاريخ، وهذا هو وعد الله عزّ وجل،"ولن يخلف الله وعده".. ورحم الله من قال:

إن هذا العصر اليهودي وهم سوف ينهار لو ملكنا اليقينا

رمضان عبد الله: القائد المفكر والمناضل الواقعي

• بقلم: إبراهيم الأمين
رئيس تحرير صحيفة الأخبار اللبنانية

«الآن... وسابقاً» بدل «سابقاً... والآن»، عنوان اختارته مؤسسة تابعة لوزارة الخارجية في كيان العدو، لمجلة أقرب الى «بروشور» عن القدس. وهو تضمن صوراً لبعض الآثار وتصاميم لهيكل سليمان، وتم توزيعه بالانكليزية في كل دول العالم عبر سفارات العدو. وتقوم فكرته على مراجعة في التاريخ تهدف إلى التأكيد أن القدس كانت عاصمة اليهود وستبقى كذلك الى أبد الآبدين...

«الدكتور رمضان»، التعبير الأكثر تداولاً في الاشارة الى القائد الفلسطيني الراحل رمضان عبد الله شلح، كان يهتم بالرواية المضادة. كان يبحث عن سبل تأريخ مشابه، ينفي السردية الصهيونية حول تاريخ القدس. وكان مهتماً بعلوم الآثار التي تثبت الرواية المناقضة للرواية الصهيونية.

لم تكن اهتمامات الدكتور رمضان، ذات البعد الثقافي والتأريخي، محصورة بما سبق. ذات مرة، استعاد أغنية شعبية راجت عن الصهاينة أواخر خمسينيات القرن الماضي، قدمتها مطربة إسرائيلية شهيرة هي نعومي شيمير، تحكي فيها عن القدس «أورشليم من ذهب ومن نحاس ومن نور...». وهي أغنية أعيد تعديل بعض كلماتها بعد احتلال القدس عام 1967، وتمثل جزءاً من الوجدان عند الاسرائيليين، الى حدّ ترشيحها من قبل البعض لتكون نشيد البلاد.

عمد الدكتور رمضان الى كتابة نص مقابل، وعلى قاعدة التماثل، نقض فيه الاسطورة، وكان هاجسه وحلمه أن تغني فيروز تلك القصيدة.

في الحقل نفسه، كان الدكتور رمضان، صاحب الكفاءات العلمية واللغات المتنوعة، يهتم بتفاصيل كثيرة خارج إطار المواجهة السياسية والعسكرية مع العدو. فكرة الاعلام والرواية والقصيدة والصناعة الرقمية كانت تأخذ من تفكيره. وهو ممن أجادوا التعرف إلى العقل الاستراتيجي للعدو، كما أجاد تحديد ماهية الصراع في العالم، من أجل تحرر يجعل استعادة فلسطين حلقة في عملية تستعيد فيها شعوب كثيرة في العالم حريتها لا أرضها حصراً. نظرته الى فكرة المحور الشامل الذي يضم قوى المقاومة في كل المنطقة العربية، كانت تدفعه على الدوام الى تثبيت النظرة الى مركز هذا المحور وأذرعه. لذلك، لم يكن يترك لأحد مجالاً لترف البحث عن جنس الملائكة في ما خص الخلافات الدينية والفقهية. كان تعرّفه على التجربة الخمينية أمراً أساسياً. وهو من الذين تأثروا بالبعد الذي اختاره قائده الراحل الشهيد فتحي الشقاقي، يوم شرع الاخير بعد عام 1979 في كتابة قراءة للثورة الايرانية، لمناقشة الأمر داخل أطر «الإخوان المسلمين»، قبل أن ينتهي به الأمر خارج تنظيم «الإخوان»، ومسارعاً الى خطوات تأسيسية قادت الى قيام حركة الجهاد الإسلامي.

بالنسبة إلى الدكتور رمضان، فكرة المقاومة الشاملة للاحتلال وداعميه والمتعاملين معه لا توجب أي خطوة غير عاقلة. لم يكن معجباً على الإطلاق بالفكرة العدمية التي تنهي النقاش بالدعوة الى استئصال مجموعة بشرية. وحساسيته إزاء متطلبات وحدة محور المقاومة وقواها، جعلته على الدوام يخلق إطاراً للنقاشات الخلافية، يتركه بعيداً عن إطار التفاعل في ما خص توفير كل دعم وجهد لقوى المقاومة. لم تكن ملاحظاته قليلة على كثير من الأمور، من

بينها طريقة إدارة ملف فلسطين في إيران وسوريا. لكنه أجاد دوماً التمييز بين النقاش الضروري في الوقت والزمان الضروريين، وهو ما جعله يحفظ برنامج الأولويات الأساسي بالنسبة إلى معركة المقاومة، لم يكن يترك أحداً يجره الى نقاش غير منتج من نوع طبيعة الحكم القائم في هذه الدولة العربية أو تلك، بل كان يأخذ النقاش الى نصيب فلسطين وقضيتها من هذا الحكم أو ذاك، وهذه الجماعة أو تلك. ولذلك، كان تمايزه واضحاً مع حركة «حماس» حول الموقف من التطورات التي شهدها العالم العربي بعد عام 2011. ورغم تحفظاته الكثيرة والكبيرة على أداء دول وقوى تسبّبت في الأذية لسوريا ولقوى المقاومة، إلا أنه لم يرد يوماً قطع التواصل مع من كان يعرف أنهم متصلون بشكل او بآخر مع القضية الفلسطينية. تحمّل «عتب» دمشق عليه، وفضّل الابتعاد عن النقاش المباشر بشأن ما يجري في سوريا. ولذلك، لم يقطع اتصالاته أبداً مع مصر (مع تبدّل الحاكمين فيها)، ولم يقطع التواصل مع تركيا وقطر، ولم يترك سوريا، وظل على علاقة تفاعلية مع قوى المقاومة في لبنان والعراق. وبدأ التعرف جيداً على ما يجري في اليمن وتجربة أنصار الله هناك. وفي باله دائماً أن معركة تحرير فلسطين تتطلب جهوداً بحجم الأمة كلها، ولا يمكن إغلاق أي باب يساعد في هذه المعركة. حتى علاقته مع السلطة الفلسطينية لم يتركها رهينة مزاجية بعض أقطاب السلطة من سياسيين أو أمنيين. لم يكن متواضعاً حيال نقد كل تعاون مع العدو، لكنه كان حاسماً في رفض أي تحرك يمكن أن يؤدي الى احتراب أهلي فلسطيني. وهو ما حرص عليه على الدوام في قطاع غزة، رغم ارتفاع منسوب التوتر لفترة معينة مع «حماس».

الحوارات مع الدكتور رمضان لها طقوسها ووقتها المفتوح. وهو تميز باستعداد دائم للنقاش. كان يحرص على طبيعة من التواصل المباشر، ما يجعل الحديث يتجاوز الوقائع السياسية الحارة. وكان يهتم بمتابعة أخبار وأنشطة وإنتاج

المثقفين الفلسطينيين والعرب المنتشرين في العالم. له قصة خاصة مع الراحلين محمود درويش وإدوارد سعيد. عرف الدكتور رمضان أنهما زارا سراً الامين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله بعد تحرير العام 2000. كان متابعاً لحوارات مرمزة بين الاثنين حول فكرة أن «المستحيل» - أي تحرير فلسطين - بات ممكناً و«ولو بعد جيل»، وهي عبارات وردت في نصوص لم تشرح للعموم. وهو ظل شديد الإعجاب بالسيد نصر الله وبطريقة عرضه لفكرة المقاومة ودفاعه عن حتمية إزالة اسرائيل. أصلاً، كان الدكتور يردد أمام غالبية من عملوا معه ورافقوه ما قاله له الشهيد الشقاقي عن السيد نصر الله، بعد توليه منصب الأمين العام خلفاً للشهيد السيد عباس الموسوي، أن «هذا القيادي الشاب خميني العرب»!

ارتبط الدكتور رمضان بعلاقة خاصة مع الشهيد الراحل عماد مغنية. ربما كان من القلائل الذين كانوا يعرفون الهوية الحقيقية للحاج رضوان قبل استشهاده. وكان دائم التواصل معه. بعد تحرير العام 2000، أخذه الشهيد رضوان الى الجنوب، وسار معه على الحدود مباشرة مع فلسطين. وفتح له الباب أمام مرحلة الاستعداد للعبور نحو فلسطين. وتعاونا في مرحلة لاحقة على إدخال مجموعة من عناصر الجهاد لتنفيذ عملية في مستوطنات شمال فلسطين المحتلة. علاقتهما كانت تتجاوز التشاور حول أبعاد سياسية وعسكرية وأمنية للصراع مع العدو. كانا يشاهدان الأفلام ويستمعان إلى الأناشيد معاً، ويتحدثان في أمور كثيرة. قبل يوم من عملية 12 تموز 2006، كان «الحاج» في دمشق. زار الدكتور رمضان، وقرّر ليلاً المغادرة، فدعاه الأخير للبقاء الى الغد. لكن رضوان أصرّ على العودة. لم يقل له شيئاً. في اليوم التالي، عندما وقعت العملية، وتم أسر الجنديين، تواصل الرجلان من جديد. يومها اقترح الدكتور رمضان على «الحاج» إطلاق

اسم «الوعد الصادق» على العملية، قائلاً إنه «أقل الوفاء للسيد حسن الذي أدخل ثقافة جديدة على جيل القادة، إذ لم يحصل أن أخلف بوعد».

عانت حركة الجهاد من مشكلات تنظيمية مختلفة. دخل اليها وخرج منها كوادر وقيادات. وظلت على الدوام محل نقاشات داخلية متنوعة. لكنها مع الدكتور رمضان، احتلت مكانة متقدمة في الصراع مع العدو. كان الرجل، مثل غالبية القيادات في الحركة، يعي جيداً أنهم ليسوا تنظيماً سلطوياً، ولا ينافسون الآخرين على الحشود لأجل الحشد يوم الانتخابات. لكنهم كان يهتمون بتطوير البنى التحتية للجسم العسكري والأمني للحركة. وكان الدكتور رمضان يثق بشريكه ورفيقه أبو طارق (الأمين العام الحالي للحركة زياد نخالة). كثيرون قالوا إن نخالة كان يفهم عقل الدكتور رمضان ويجيد ترجمته الى أفكار عملانية على الارض. حتى إنه كان يلجأ اليه مرات كثيرة، لإطلاق مواقف أو إفهام الآخرين موقفاً مباشراً حيث تخسر اللغة الدبلوماسية. وهو ما يعرفه غالبية المحاورين للجهاد، من حكومات وقوى وأجهزة أمنية عربية وإقليمية ودولية.

عندما أصيب الدكتور رمضان بالأزمة القلبية، جرت محاولات طبية كثيرة لإنقاذه في بيروت وإيران. وتمت الاستعانة بخبراء آخرين، وجرى تحقيق دقيق في ما إذا كان قد تعرض لعملية تسميم من قبل العدو. ويومها حسم الخبراء والأطباء بأن البحث العلمي لم يصل الى هذه الخلاصة، وأن الرجل فقد قدرته على التفاعل، ليدخل بعدها في غيبوبة طالت حتى أعلنت وفاته قبل يومين.

رمضان عبد الله من عينة القادة المفكرين والمناضلين الواقعيين. هو من قلة نجحت في المزج بين الدورين، وسيكون له أثره وإرثه في حرب ستقود حتماً الى استعادة فلسطين!

د. رمضان شلح في ذمة الله..
وداعاً أيها الأخ والصديق..

• بقلم: د. أحمد يوسف
القيادي في حركة حماس ومدير مركز بيت الحكمة

قبل عقد من الزمن، كان لقائي الأخير بالأخ والصديق الحبيب د. رمضان شلح (رحمه الله) في بيته بحي المزة الدمشقي، والذي سبقه الكثير من اللقاءات والجلسات الحوارية في بيروت وواشنطن وطهران، حيث كانت تجمعنا القضية الفلسطينية على مائدة المؤتمرات الإسلامية، باعتبارها قضية الأمة المركزية، وكانت تتضافر الجهود في معسكرنا نحن الإسلاميين لوضعها على صدارة أجندات تلك المؤتمرات وندوات الحوار.

لقد سمعت أول مرة عن د. رمضان شلح (أبو عبد الله)في أوائل الثمانينيات كأحد الشخصيات الوازنة في التيار الجهادي، الذي كان د. فتحي الشقاقي يعمل على تأسيسها، بعد خلافه مع حركة الإخوان المسلمين الذي مثّل آنذاك- أحد أبرز قياداتها الشبابية.

كان الشهيد د. فتحي الشقاقي خلال سنوات دراسته في الزقازيق بمثابة المرشد الروحي والملهم والمفكر الذي تأثر به د. رمضان، وتشكلت في ظل حواراته معه كل قناعاته على مستوى الرؤية لمشروع الجهاد والمقاومة.

في الزقازيق كان البذار، وفي غزة نبت الغرس وتفتحت الأزهار، حيث آثر د. الشقاقي الابتعاد عن نهج الإخوان، حيث تعارضت رؤيته النضالية التي تدفع بالتعجيل نحو العمل العسكري المقاوم للاحتلال الإسرائيلي، ونظرة شيخه الأستاذ أحمد ياسين (رحمه الله) الذي كان يؤثر الانتظار لحين توفر الظروف

والإمكانيات البشرية والمالية لانطلاق العمل الجهادي المقاوم.

كان د. رمضان من أشد الداعمين لمرشده د. فتحي الشقاقي، حيث كانت تجمعهما الكثير من القناعات الفكرية والقدرات الموسوعية وحبهما لقراءة الشعر والأدب، والتي أوجدت بينهما أكثر من مساحة للقواسم المشتركة، التي أسهمت في تحقيق التناغم الكبير بينهما.

كان د. رمضان شلح خلال سنوات عمله بالجامعة الإسلامية صوتاً هادراً ارتكزت على قوته حركة الجهاد في بداية تأسيسها، وحظيت بالكثير من الكسب بين طلاب الجامعة الإسلامية. لم تخل تلك السنوات من صراعات بين الإسلاميين، حيث كان التنافس لإثبات الذات والحضور في المشهد الوطني يخلق احتكاكاً كان أحياناً ينحرف عن مساره بشكل سلبي، واستمر هذا المناخ حتى خلال انتفاضة الحجارة عام 1987، وإلى سنوات لاحقة بعدها.

من المعروف عن د. رمضان شلح (رحمه الله) أنه كان يمتلك حنجرة وقدرات أدبية وحسن بيان، وقد اشتهر بخطبه الجهادية التي أثارت غضب سلطات الاحتلال الإسرائيلي، فقامت بفرض الإقامة الجبرية عليه، ثم منعته من العمل في الجامعة. في عام 1986، غادر فلسطين إلى لندن لإكمال دراساته العليا، وحصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة درم عام 1990، وبعدها سافر إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث عمل أستاذاً في العلوم السياسية في جامعة تامبا، إحدى جامعات ولاية فلوريدا بين 1993 . 1995م. كما كان أحد المؤسسين لـ«مركز دراسات الإسلام والعالم» مع د. سامي العريان، ومحرراً للمجلة الفصلية (قراءات سياسية).

شهادة للتاريخ..

في عام 1994، التقينا كمجموعة من قيادات العمل الإسلامي في أمريكا، وحاولنا العمل على جمع الشمل بين حركتي فتح وحماس؛ باعتبار أن ما تفرقنا بسببه كإسلاميين في مطلع الثمانينيات لم يعد له وجود، حيث التحم الجميع في معركة المناجزة العسكرية مع الاحتلال، وقد توافقنا على أنه قد آن الأوان لأن نتوحد خلف قيادة واحدة، وأن نضرب الذكر على سنوات كان التنائي فيها بديلاً عن تلاقينا. في الحقيقة، كان د. رمضان شلح وكذلك د. موسى أبو مرزوق، ومن شاركنا اللقاء – آنذاك – من الشخصيات الإسلامية الفلسطينية على قلب رجل واحد حول ضرورة التسريع بتوحيد الصف والبندقية معاً. وبناء على مخرجات ذلك اللقاء تم التواصل مع قيادة كل من الجهاد الإسلامي وحركة حماس، إلا أن اغتيال د. فتحي الشقاقي في مالطا بتاريخ 25 أكتوبر 1995، واعتقال د. موسى أبو مرزوق في 25 يوليو 1995 ودخوله السجن لعامين قادمين، وضع هذه التفاهمات على الرف لحين ظهور متغيرات جديدة تستدعي تحريكها من جديد.

فوز حماس بالانتخابات...

بعد أن فازت حركة حماس في الانتخابات التشريعية يناير 2006، وتصدرت مشهد الحكم والسياسة، تعالت لغة الدعوة لاجتماع الشمل الإسلامي في إطاراته الجهادية، حيث شكَّل هذا الفوز دعماً لنهج الجهاد والفعل المقاوم. في سوريا وخلال أكثر من لقاء مع د. رمضان وإخوانه في المكتب السياسي أعدنا طرح الفكرة التي تداولناها سابقاً ثم توقفت، والآن فإن قيادة الحركتين متواجدة في دمشق، وهذا ما يسهل معاودة الحوار، حيث نضجت الظروف ولم يعد هناك

ما يبرر استمرار وجود تنظيمين خرجا من مشكاة إسلامية واحدة، وما بينهما من توافق الرؤية والأهداف ما يعزز سرعة اللقاء وتحقيق الوحدة.

للأمانة لم أشهد من د. رمضان إلا مواقف إيجابية شجعتني لنقلها لأخي د. موسى أبو مرزوق والذي ذكر لي أنه يعمل مع د. رمضان لإنجاز ذلك.

لقد سمعت من د. موسى الكثير من الثناء على د. رمضان، وأنه متعاون معنا في معالجة كل نقاط الخلاف لتمهيد الطريق لإنجاز ذلك.. وفعلاً؛ انعكست تلك اللقاءات والتفاهمات والعلاقات الإيجابية التي طورها د. رمضان مع إخوانه في حركة حماس وأثمرت مستويات عالية من التنسيق العسكري فيما يسمي بـ «غرفة العمليات المشتركة»، إضافة إلى التعاون في باقي المجالات السياسية والإعلامية والفعاليات الوطنية والدينية.

وأضاف كذلك: إن على الفلسطينيين ألا يكونوا جزءاً من أيِّ صراع عربي عربي، وظل كذلك حتى غاب وعيه، وطوال سنوات ما كان يسمى بالربيع العربي ظل ينقل خطواته في حقل ألغام، وكان دائماً لا يستجيب لمحاولات حرفه لأن يتنازل عن فكرة أن الطريق إلى فلسطين لا تمر عبر نزاعات العواصم العربية الأخرى، ففلسطين طريقها أوضح من أن يوضح.

فلسطين حزينة على فراقه...

• بقلم: د. أسامة الفرا
القيادي في حركة فتح

ما أن تستمع إليه حتى يأسرك بحديثه وتأخذك كلماته مباشرة إلى الفكرة التي يريد الإفصاح عنها دون تصنع أو تجميل، يبحث بثقافته الواسعة على المشترك بينكما دون أن يبقى منغلقاً على فكره، لا تجده يتحصن داخل قلعة التنظيم الذي شارك رفيق دربه د. فتحي الشقاقي في تأسيسه، وما أن تحاوره حتى تكتشف أنك أمام قائد من نوع آخر، وأنك بحاجة إلى تعديل اللوحة التي اختزنتها الذاكره له لتضيف عليها المزيد من ألوان الشخصية الجذابة التي لا تغيب عنها الدعابة وسط الجدية التي تعيش فيها، لم تغب الدعابة الهادفة عنه وهو يتناول حكاية ابتعادهم عن جماعة الإخوان المسلمين وتأسيس حركة الجهاد الاسلامي، تلك الحركة التي فرضت بعملها حضورها على خارطة العمل الوطني الفلسطيني.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها باسم د. رمضان شلح عام 1979 اثناء نقاش حول ما جاء في كتيب «الخميني والبديل الاسلامي» من تأليف فتحي عبد العزيز، والذي هو في حقيقة الأمر د. فتحي الشقاقي حيث استعان بالاسم الأول له ولأخيه في محاولة منه لإبعاد الملاحقة الأمنية له يوم كان طالباً في كلية الطب بجامعة الزقازيق، كان يومها رمضان شلح طالباً بكلية الاقتصاد بنفس الجامعة يشاركه في نشاطه المنبثق من الفكر الاسلامي الذي يعتبر أن نجاح ثورة الخميني في الاطاحة بالشاه يخدم القضية الفلسطينية ويشكل نموذجاً يمكن الاستفادة منه، لم تخف قيادة الجهاد الاسلامي يوماً ما علاقتها بإيران رغم سيل الانتقاد الكبير لها حول ذلك بما فيه من جماعة الإخوان المسلمين ذاتها، لكن ما يسجل لقيادة الجهاد الاسلامي أنها استطاعت في خضم العلاقة المثيرة للجدل مع ايران أن تحافظ على هوية الحركة في بعدها الوطني دون أن تنزلق إلى مربع الاحتواء.

بعد استشهاد د. فتحي الشقاقي استطاع رفيق دربه د. رمضان شلح أن يمضي بحركة الجهاد ويعزز من قدراتها الفعلية وحضورها في الشارع الفلسطيني، اعتمد على بوصلة المصلحة الوطنية وسار خلفها دون أن يتخلى عما يؤمن به، لم ينكر يوماً ما معارضته لاتفاق اوسلو ولم يتصرف على نحو مغاير لذلك، وبنى مواقف الحركة من القضايا المختلفة بحنكة سياسية غلب فيها المصلحة الوطنية عما سواها، حافظ على موقف الحركة الثابت من قضية الانتخابات التشريعية حيث رفضت المشاركة فيها كونها تأتي في سياق اتفاق اوسلو التي تعارضها الحركة، إلا أنها لم تنعت المشاركين فيها بالكفر أو الخيانة بل امتثلت للمؤسسات التي أفرزتها هذه الانتخابات، وفيما يتعلق بالمصالحة الوطنية لم يكن يوماً سوى الحريص على انجازها ويعمل على تذليل العقبات من أمامها بروح تؤمن بأن الوحدة الوطنية ركيزتنا الأساسية في مواجهة الاحتلال.

كنت سألته في لقاء جمعني به عن موقفه من حل الدولتين المبني على حدود حزيران 1967، لم يستعن في رده بمفردات غامضة ولم يستنفر ثقافته ليتحصن بعبارات تبقيه داخل أسوار أفكاره، قال دون تردد: فلسطين بالنسبة لنا من النهر إلى البحر، لكننا لن نغرد خارج السرب ونقبل بما تقبل به أغلبية شعبنا، وعن سر العلاقة القوية التي تربط أبناء حركة فتح بإخوتهم في حركة الجهاد الاسلامي رغم الاختلاف الفكري قال والابتسامة تعلو وجهه «لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير».

استطاع د. رمضان شلح أن يجمع ببراعة بين المجاهد والثائر والسياسي والمفكر وأن يشيد جسور المحبة والصدق مع الكل الفلسطيني، وأن يجعل من المصلحة الوطنية بوصلته ويبحث عن القواسم المشتركة ليبني عليها بثقافة وحدوية لم تؤثر فيها عوامل الانقسام ففرض احترامه على الجميع، لمن امتلك كل ذلك لا بد وأن تحزن فلسطين على فراقه.

رمضان شلح، الرجل الذي كرس حياته لفلسطين

• بقلم: أسلم فاروق علي
دبلوماسي جنوب أفريقي مستشار سياسي في سفارة دمشق

ارتحل الأمين العام السابق لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، الدكتور رمضان عبد الله شلّح، يوم السادس من حزيران عن62 عاماً. شلّح الذي مثّل أيقونة في النضال الفلسطيني ورأس الهرم في حركة الجهاد الإسلامي، (أحد أجنحة المقاومة الفلسطينية)، على مدى 23 عاماً.

تولى شلّح ـ أو أبو عبد الله كما كان معروفاً ـ قيادة حركة الجهاد الإسلامي عام 1995م، بعد اغتيال إسرائيل للدكتور فتحي الشقاقي، مؤسس الحركة.

أدار باقتدار دفة الحركة في مواجهة أنواء عاتية حتى عجزة عن المتابعة بعد مرض ألمّ به عام 2018م.

مثلما قال عنه إدوارد سعيد ـ ويوافقه الرأي الأكثرية من الفلسطينيين ـ كان رجلا من خارج الزمان والمكان: ولد في غزة، تعلّم في مصر والمملكة المتحدة، درّس في الولايات المتحدة،منفياً إلى سورية، ومقيداً إلى سرير المرض في بيروت، ليُدفن أخيراً في مخيم للاجئين في دمشق.

التقيت شلح في سوريا عام 2008م، كدبلوماسي من العالم الثالث أعمل في دمشق، لقد حظيت بامتياز الوصول إلى معظم الفصائل الفلسطينية المعارضة لاتفاقية أوسلو، الموقّعة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في العام 1993م، وكذلك استقريت في بلد متحالف مع محور المقاومة.

برز الدكتور شلح ليس فقط من خلال الجاذبية الشخصية (كاريزما)، ولكن من خلال ذكائه الحاد، ومع الوقت تعرّفت على روحه الحساسة الذواقة لمشارب الثقافة المختلفة.

بالمقارنة، فإن الجهاد الإسلامي تنظيم ليس كبير جداً، ولكن مع قيادة شلّح له فقد تمتّع بتأثير كبير.

كان صوتاً مقدّراً في اللجان المشتركة لفصائل المقاومة، وكان الوسيط الذي يُلجأ له عندما نشب الصراع بين إخوة السلاح. لعب دورا رئيسياً في تسهيل الحوار بين فتح و حماس – وهما أكبر الفصائل الفلسطينية – لكنه تمكن من الحفاظ على مسافة نقدية من كليهما.

كثيرا ما كنت أسأله عن تحليله للمشهد السياسي الفلسطيني المُعقّد وكانت قراءاته دائما ثاقبة وعميقة.

على الرغم من أنه كان يتنقل باستمرار في حقل ألغام السياسة الحزبية، إلا أنه على المستوى الشخصي كان يمقت الاقتتال الداخلي، مشددًا على أن النضال الفلسطيني لا يزال في مرحلة التحرر، وبالتالي يتطلب وحدة الموقف لتحقيق الهدف المركزي.

وراء الصورة النمطية

بالنسبة لشلّح ، كان حصر القدرات كما هي مجسدة في السلطة الفلسطينية أكبر تهديد للتحرر الوطني. لقد اعتبر السلطة الفلسطينية مجرد أداة إسرائيلية تجبر الفلسطينيين على إدارة اضطهادهم.

إن التفاوت بين الصورة النمطية عن الجهاد الإسلامي كمنظمة إرهابية عنيفة، والفهم المتطور والمتقدم لقائدها يبرز دائمًا أمامي ، لذلك سألت شلّح مرة عما إذا كانت هناك أي دراسات نقدية جادة للحركة تقدم صورة عنها.

ورد بـأن الدراسـة الوحيـدة حتـى الآن كانـت "الإسـلام والخـلاص في فلسـطين" للعـالم الإسرائيـلي مئير حطينـة في فلسـطين: حركـة الجهـاد الإسـلامي ، نُـشر عـام 2001 .

تذهـب دراسـة حطينـة إلى حـد مـا لتكشـف السـياق الاجتماعـي السـياسي الـذي أدى إلى ظهـور الجهـاد الإسـلامي ويبحـث أيديولوجيـة الحركـة.

عـلى سـبيل المثـال ، يشـير حطينـة بـذكاء إلى أن الشـعار الأيديولوجـي للحركـة تحـت قيـادة شـلّح كان "النضـال المبـاشر ضـد الاحتـلال".

ومـع ذلـك ، فـإن دراسـة مائـير حطينـة معيبـة في نهايـة المطـاف لأنهـا تسـتند حصريًـا إلى مصـادر ثانويـة للمعرفـة ولم يكـن لديـه وصـول مبـاشر إلى أراء القـادة المركزيـين للحركـة.

كذلـك ، مقدمـة الكتـاب – التـي كتبهـا مارتـن كرامـر ، مديـر مركـز موشـيه ديـان لدراسـات الـشرق الأوسـط وأفريقيـا في ذلـك الوقـت اتضـع الجهـاد الإسـلامي بشـكل غـير مفيـد باللونـين الأبيـض والأسـود ، وبشـكل ثنائـي الأبعـاد دون عمـق.

وعليـه، فقـد رحّـب شـلّح بفرصـة إجـراء فحـص نقـدي محايـد لمنظمتـه ، لكنـه اعتبرهـا مهمـة تحتـاج لباحـث محـترف.

مـن وجهـة نظـري ، كان شـلّح مؤهـلاً تمامـاً لمثـل هـذا المـشروع، فالبعـد الأكاديمـي وُجِـد دائـمًا داخلـه ، وتملّـك التعبـير في خطابـه وكان مُلِمّاً بمفـردات الأدبيات الحديثـة (متمكنـاً بناصيـة اللغة).

حتـى أننـا ناقشـنا المؤرخـين الإسرائيليـين التعديليـين الجـدد: مثـال إيـلان بابيـه في كتابه"التطهـير العرقـي لفلسـطين"وهي دراسـة حـازت عـلى الثنـاء مـن الدكتـور رمضـان شـلّح.

ومـع ذلـك، فـإن انشـغاله الأوحـد الـذي كان شـاغله هـو النضـال مـن أجـل التحرير، وبالتـالي فـإن الحاجـة إلى فحـص شـامل للأسـس السياسـية والأيديولوجية للجهاد الإسـلامي لا تـزال قائمة.

إن مثل هذا المشروع أصبح أكثر إلحاحًا منذ هجمات 11 سبتمبر وما أعقبها من ضبابية في الخط الفاصل بين الكفاح المسلح من أجل التحرر الوطني والإرهاب المُنقاد عبر أيديولوجية غير منطقية.

على المحك

المواقف المبدئية حَدَّدت بوضوح سياسات الجهاد الإسلامي تحت قيادة شلّح: تحرير كل فلسطين ، وحق العودة للاجئين غير مشروط، والقدس عاصمة فلسطين.

لكن مبادئ شلّح لم تقتصر فقط على النضال الفلسطيني. كان لديه تعاطف كبير مع قضية المظلومين في كل مكان وكان مطّلع جيدًا على النضال ضد الفصل العنصري في جنوب إفريقيا أيضًا.

مع بزوغ الربيع العربي، تم وضع مبادئ شلّح وتعاطفه تحت الاختبار.

بحلول آذار / مارس 2011 ، انتشرت العدوى الثورية ووصلت سوريا ، وهذا ما وضع الفصائل الفلسطينية في دمشق تحت ضغط شديد لدعم حكومة الرئيس بشار الأسد، ومع دعم معظم هذه الفصائل للنظام وإصدار البيانات المؤيدة له.

كانت الجهاد الإسلامي من الاستثناءات البارزة. لم ينجرّ شلّح إلى إعلان دعم غير مشروط للحكومة السورية على الرغم من الضغط الهائل الذي مارسته على منظمته إيران ، داعمها الرئيسي.

ومع ذلك ، كان على استعداد للتوسط بين الحكومة وحركة الاحتجاج السورية، وأنا على دراية شخصية، بموقف واحد على الأقل، حيث تدخل شلّح شخصياً لضمان إطلاق سراح زعيم إسلامي سوري كان يجري استجوابه من قبل جهاز المخابرات السورية سيئ السمعة.

وكان الشخص المعني قد سُجن للمرة الثالثة بحلول ذلك الوقت. كان هناك العديد من فروع المخابرات العاملة في دمشق ، كل واحد منها غير مدرك تمامًا للعمليات التي يجريها الآخرون.

التقيت شلّح بعد فترة من فرار الشخص المعني إلى المنفى وسألته إذا كان قد سمع الأخبار عن فرار الشخص المعني، فضحك وأخبرني أنه تدخل لتأمين الإفراج عنه وفرّ!

أبعد من السياسة

عندما تعرفت على شلّح اكتشفت أن السياسة لم تحده. فقد تجاوزت اهتماماته إلى الأدب والشعر والثقافة الشعبية والتراث الإسلامي التقليدي.

لقد كان من محبي الكتب الذين احتفظوا بمكتبة مثيرة للإعجاب في حالة نقية.

نادرا ما كنت خلال زياراتي له، لا أجد فيها كومة من الكتب الجديدة مكدّسة على مكتبه. كل ما لم يتمكن من الحصول عليه في دمشق بسبب الرقابة ، كان يحصل عليه من بيروت.

لقد وجدته ذات مرة وهو يتصفح في رواية علاء الأسواني " شيكاغو" ، التي تتناول العنصرية والصراع بين الثقافة العربية والغربية بعد 11 سبتمبر.

سألته عن رأيه في الرواية، فاستحضر مشهدًا من الكتاب حيث يقوم أحد المسؤولين العرب باستدعاء فتاة لشهوته ، وشعر بخيبة أمل عندما وجد امرأة سوداء تطرق على بابه.لم يصدم فقط بالاستجابة العنصرية للشخصية ، ولكن من الواضح أن مشاعره الإسلامية استفزت بسبب هذا المحتوى.

في مناسبة أخرى ، سألته عن فيلمه المفضل ودون تردد أجاب أنه فيلم المخرج إدوارد زويك "The Last Samurai"، بطولة توم كروز.

ثم تحدث عن كيفية معرفته بالفيلم: حيث كان شلّح مع القائد العسكري لحزب الله عماد مغنية يجريان نقاش معمّق في مكتبه، الذي سأله فجأة عما إذا كان قد شاهد الفيلم. رد أنه لم يفعل ذلك ، لذا وعد مغنية بإحضار نسخة منه وفي المرة التالية التي زاره فيها شاهدا الفيلم معًا.

فيما يتعلق بالشعر ، كان شلّح وطنيا بدون أدنى شك، كان يتلو من سطور الذاكرة للشاعر الوطني الفلسطيني محمود درويش الكثير مما يحفظ .

هذا ليس مفاجئًا ، لأنه لم يكن هناك شاعر آخر قادرًا على التقاط آلام المنفى مثل درويش، معبراً عنه بأفضل أسلوب في قصيدته :"الأرض تغلق علينا"

في هذه الصورة المتحركة للمنفى يسأل الشاعر :

ـ أين يجب أن نذهب بعد الحدود الأخيرة؟

ـ أين يجب أن تطير الطيور بعد السماء الأخيرة؟

ومع ذلك ، فإن اللجوء ليس سوى مظهر جسدي للنفي. على الرغم من أن شلح اضطر إلى النضال من أجل قضية شعبه من خارج الوطن ، إلا أنه لم ير هذا على أنه رادع أو عائق.

فهم شلّح مثله مثل الإصلاحي الإسلامي في القرن الرابع عشر إبن تيمية ، المدفون أيضًا في دمشق ، أنه عندما يرتفع المنفى إلى حالة روحية ، فإنه يعززعزم المرء للوصول إلى العدالة.

كان شلّح يعرف جيداً ما يعنيه ابن تيمية عند التفكير في حالته الوجودية بهذه الكلمات المؤثرة حين قال: "ماذا سيفعل أعدائي معي؟ حديقتي وجنتي في قلبي، سجني هو عزلة وتعبد، إقصائي ونفيي سياحة، قتلي استشهاد ".

لقد فقد الشعب الفلسطيني قائداً عظيماً ، ولكن ليس لدي أدنى شك في أن رفاقه وأصدقائه سيجدون العزاء وهم يعلمون أن شلّح الآن برفقة مولاه الخلاق – في الرفيق الأعلى . ارقد بسلام أبو عبد الله ؛ سيستمر نضالك!

رمضان شلح...وأخيراً قررت الرحيل أيها القائد النبيل!...

• بقلم: حسن عصفور
رئيس تحرير موقع أمد الإعلامية

وأخيرا قرر د. رمضان شلح الرحيل عن الحياة الإنسانية العامة، بعد غياب عن الحياة السياسية طالت الى عامين، وكأنه في غيابه اختار تقييما خاصا لمسار ومسيرة وطن وشعب، بهدوء كان جزءا مكونا لشخصيته الفريدة، القائد الفلسطيني الذي تمكن من حصد علاقات خاصة، بين مؤيديه السياسيين ومن لا يرون ذات ما يرى، تمايز عن قادة المشهد الراهن بميزة التواصل دون "عقد سياسية" أو "عصبوية تنظيمية"..

رحل د. رمضان شلح، بصمت غريب وهو من كان ضجيج ، يبحث دوما عما يمكن ان يكون جديدا مبتكرا لفتح طريق أمام شعب فلسطين، اجتهد كثيرا، لم يملك حساسية للآخر، وكان نموذجا حقا قولا وفعلا لمبدأ الاختلاف حق وطني ومشروع بل وضرورة كي نشق درب الحرية لاستقلال الوطن.

في أكتوبر 2016، خرج د. شلح عن حالة الارتعاش السياسية وعرض ما يعرف بـ "مبادرة النقاط العشرة"، وفتح الباب واسعا للخروج من مأزق الانقسام، الذي يمثل رافعة للمشروع التهويدي، والمغذي العملي لتوسعته في الأرض الفلسطينية، مبادرة وجدت قبولا واسعا جدا، لم ينطلق من موقع حزبي بحثا عن "كسب حزبي" أو ترضية لمحور ظلامي، كما كان غيره.

مبادرة "النقاط العشر" لا تزال في جوهرها تمثل طريق الصواب، وعلة أكد برؤية دقيقة كيفية إعادة بناء منظمة التحرير وتطويرها، كي تصبح الإطار الوطني الجامع لكل قوى الشعب، بعيدا عن تفكير انقلابي خاطف لهدم "المعبد الوطني".

من الحوارات الأصعب، التي كانت مع د. شلح، في آخر زيارة لي الى لبنان أغسطس 2016، التقيت بالراحل الكبير، في منزله المؤقت بالضاحية الجنوبية وبحضور الصديق الأمين العام الحالي لحركة الجهاد زياد النخالة، تطرق الحوار الى كل ما له صلة بالمشهد السياسي، من اتفاق أوسلو، وما يراه كل منا، الى مسمى حركة الجهاد الإسلامي، بما يحمل من ملمح طائفي لا يتوافق أبدا، مع "روح الشعب الفلسطيني" وطبيعته.

حوار كشف أن أسس البناء الفكري المخزون في وعينا لفلسطين التي ننتظر، يفوق كثيرا ما يعلنه الساسة منا، وأن الثقافة الفردية تتفوق لأول مرة على الثقافة الحزبية، وتلك الحقيقة التي تجسدت الى أبعد حدودها في شخصية رمضان شلح.

قائد فلسطيني، كان الأكثر شبها بالزعيم الخالد ياسر عرفات "علماني متدين"، غير عصبوي ابدا، منتم لفصيل حزبيا وكل الفصائل إطاره، كانت القدس له كما للخالد، جسد مقولة القدس كما مكة بقدسيتها الدينية وبقيمتها السياسية.

سلاما يا رمضان، وداعا يا رفيق يا من غزيت حب أبناء وطنك، سلاما أيها القائد النبيل شخصا ورؤية وموقفا.

رمضان شلح.. القيادة في ظروف صعبة

• بقلم: حسن كمال
باحث وكاتب فلسطيني

عـام 1995، أصبـح القيـاديّ رمضـان شـلح رحمـه الله أمينـاً عامّـاً لحركـة "الجهـاد الإسـلاميّ"، خلفـاً للشـهيد فتحـي الشـقاقي، والـذي اغتيـل في مالطـا في أكتوبـر/ تشريـن الأول مـن نفـس العـام. جـاءت هـذه المسؤولية الجديـدة عـلى أكتـاف شـلح في مرحلـة معقدةٍ شـهدتها الحالـة الوطنيّـة الفلسـطينيّة، مـن معالمهـا كارثـة اتفـاق أوسـلو. وكذلـك، في مرحلـة مهمـة مـن تاريـخ الجهـاد الإسـلاميّ، التنظيـم الذي قـدّم لقواعـد الإسـلاميين إجابـةً واضحـةً ومُحـددةً حـول دورهـم في الواقـع الفلسـطينيّ، ومواجهـة الاحتـلال.

جـاء شـلح، فأظهـر قـدراتٍ تنظيميّـةً واسـعة سـاعدته عـلى تخطـي الكثـير مـن الخلافـات التنظيميّـة الحـادّة مـع عمـوم الإسـلاميّين والتـي طبعـت مرحلـةَ الشـقاقي. إضافـةً إلى ذلـك، قـدّم شـلّح تنظيـراً سياسـيّاً وفكريّـاً، واعتُـبر أحـد أبـرز شـخصيات النخبـة المُثقفـة للتيـار الإسـلاميّ منـذ بدايـة الثمانينيـات، والتـي توّجـه جـزءٌ كبـيرٌ منهـا نحـو "الجهـاد الإسـلاميّ"، مثلـه ومثـل بشـير نافـع وسـامي العريـان وعبـد العزيـز عـودة وفتحـي الشـقاقي. وتُشـير بعـض المراجـع إلى أن شـلح هـو مـن عـرضَ فكـرةَ تأسـيس الجهـاد الإسـلاميّ عـلى الشـقاقي.

مركزيّة فلسطين

أخـذ شـلح دوراً مهـمّاً إلى جانـب الشـقاقي، في الإضافـة المركزيّـة التـي أضافهـا الفكـر السـياسيّ لحركـة "الجهـاد"، وهـي تعزيـز مكانـة القضيـة الفلسـطينيّة في الخطـاب الإسـلاميّ في فلسـطين وخارجهـا، وتحريـك القواعـد الإسـلاميّة نحـو تبنـي خيـارات النضـال المسـلّح. سـاهم في هـذا إسـلاميّون آخـرون مـن خـارج فلسـطين، وآخـرون مـن داخلهـا أبرزهـم الشـيخ أحمـد ياسـين. إلا أنّ الشـقاقي تمتـع بحضـورٍ أوسـع وصـلات إعلاميّـة وسياسـيّة

أكثر مع شخصيات في الجماعة الإسلاميّة في مصر، وفي إيران، ولبنان، وبذلك لعب دوراً أساسياً في بثّ هذا التوجه فكريّاً وسياسيّاً.

شدّدت المنطلقات الفكريّة لحركة "الجهاد" على ضرورة استحضار الخطاب الإسلاميّ في الحالة الوطنيّة، وانتقدت إقصاء المركبات الإسلاميّة من مفرداتها، وهو ما انتقده شلح كثيراً سواء في مقالاته أو محاضراته. كان شلح، كما الشقاقي، يؤكد على ضرورة مركزيّة فلسطين في الخطاب الإسلاميّ (وعدم الانتظار حتى تتوحد الأمّة، وإنما البدء بالنضال في فلسطين ضدّ الاحتلال)، وانطلاق النضال الوطني كذلك من منطلقاتٍ إسلاميّة، وهي المنطلقات ذات الإرث الروحيّ التاريخيّ، والقادرة على تحريك الأمة تجاه فلسطين، فلا يمكن أن يكون هناك كفاح فلسطينيّ بدون الإسلام.

وفي سبيل بثّ هذه الأفكار، أسس الشقاقي وشلح مجموعةً من المجلات التي كانت تعبّر عن رأي نخبة الجهاد آنذاك، مثل مجلة "المختار الإسلاميّ"، ومجلة "الطليعة الإسلاميّة". وعلى اسم الأخيرة، تأسست أول خلية عسكريّة للجهاد الإسلاميّ والتي اغتالت المستوطن "أهرون أغلوس" عام 1983. بعدها، فرضت سلطات الاحتلال الإقامة الجبريّة على الشقاقي وشلح لستة أشهر، ثم اعتقلتهما بعدما تأكد وقوف الحركة خلف العملية. وبالعودة إلى المجلات، فقد كتب شلح باستمرار في صحيفة "الاستقلال" التابعة للجهاد، وذلك تحت اسم "محمد الفاتح"، كما كتب في مجلة "إيران والعرب"، ومجلة "مركز الإسلام الحضاريّ".

أوسلو، معارضة بالموقف والاشتباك

كانت اتفاقية أوسلو كارثة الحالة الوطنيّة الفلسطينيّة المستمرة حتى هذه اللحظة، وهو المسار الذي سيدفع مقاتلو التيار الإسلاميّ ثمناً غالياً لمعارضته. في ذلك لعب الأمينُ العام الجديد شلح دوراً بارزاً في معارضة الاتفاقية، فقد ساعد في تأسيس "تحالف القوى العشرة" الرافضة للاتفاق، وعبّر عن موقفه الجذريّ من الاتفاق والسلطة.

والأهـمّ مـن ذلـك، قـام الجنـاح العسـكريّ "قسـم" خـلال تلـك الفـترة بتنفيـذ مجموعـةٍ مـن العمليـات الاستشـهاديّة في قطـاع غـزّة والضّفـة الغربيّـة وأراضي الـ48، مثـل عمليـة "ديزنكـوف" عـام 1996، والتـي نفّذهـا الشـهيد رامـز عبيـد، وعمليـة "نتسـاريم" عام 1997، وعمليـة يوسـف الزغـير عـام 1998.

كلّـف ذلـك التنظيـم كثـيراً، خاصّـة عـلى مسـتوى العلاقـة مـع السّـلطة الفلسـطينيّة، والتـي شـنّت حمـلات اعتقـال ضـدّ عنـاصره وعنـاصر حركـة "حمـاس"، وهـي علاقـة طبعـت مرحلـة مـا بعـد أوسـلو وصـولاً إلى الانتفاضـة الثانيـة. وقـد كانـت إحـدى أبـرز حـالات الاشـتباك الجماهـيريّ بـين النّـاس وأجهـزة السّـلطة بعـد احتجـاج قواعـد "حمـاس" و"الجهـاد الإسـلاميّ" عـلى منـع السّـلطة إقامـة عـزاءٍ للاستشـهادي هشـام حمـد مـن "الجهـاد" عـام 1994.

في الوقـت ذاتـه، اسـتطاع الأمـين العـام الجديـد خـلال تلـك الفـترة تقليـص حجـم التباينـات الداخليّـة داخـل التنظيـم، وهـي الخلافـات التـي بـدأت منـذ بدايـة تأسيسـه، وتعـزّزت قبـل اغتيـال الشـقاقي، وخصوصـاً عـام 1991، وعـام 1993. وكانـت معظـم هـذه الخلافـات متعلقـة أحيانـاً بالنفـوذ، وأحيانـاً بالموقـف مـن منظمـة التحريـر. لكـن نظـراً لشـخصيته التوافقيّـة، وقدرتـه عـلى تقليـل بـؤر التوتـر، تجـاوزت حركـة الجهـاد مرحلـة مفصليّـة في تاريخهـا، كان المتوقـع لهـا أن تـزداد انقسـاماً بعـد رحيـل مؤسسـها الأول.

بالإضافـة إلى ذلـك، كان لحضـوره الشـخصيّ، وتاريخـه التنظيمـيّ، دور في منـع أي خـلاف قـد ينتـج عنـه انقسـامٌ داخـليّ. فعـلى صعيـد الواقـع السـياسيّ، احتفـظ بعلاقـات متوازنـة مـع الشـخصيات المركزيّـة في الجهـاد، مثـل محمـد الهنـدي في غـزة، وزيـاد النخالـة في الخـارج. وقـد سـاعده في منـع هـذه الانشـقاقات، توحـدُ رؤى هـذه الشـخصيات المركزيّـة عـلى قضيـة "الكفـاح المسـلح"، وعـدم الانخـراط في مـشروع أوسـلو والسـلطة.

وكذلـك كان لرمضـان شـلح دورٌ عـلى صعيـد توازنـات القـوّة في الجسـم العسـكريّ للجهـاد بعـد الانتفاضـة الثانيّـة، إذ بقـي الجسـم العسـكريّ محافظـاً عـلى تماسـكه، بالإضافـة

لانتقاله في قطاع غزّة من مرحلة "اللامركزيّة" في العمل العسكريّ، إلى مرحلة البنية العسكرية المتكاملة بعد عام 2010 تقريباً. لعب شلح دوراً حازماً في إنهاء هذا النمط العسكريّ، مع الإشارة إلى أن مرحلة "اللامركزية" كانت في السّابق حلًّا لإبقاء مراكز القوة تحت الإطار العام للجهاد الإسلاميّ مقابل احتفاظها -أي مراكز القوة- بنفوذها المناطقيّ والتنظيمي، كما أنّ اللامركزيّة كانت تتسق مع كون الجهاد حزباً طليعياً يسعى لتحفيز الامّة على الجهاد.

معالم من سيرته القيادية

كما أشرنا سابقاً، فقد نأى الأمين العام الجديد عن الكثير من التجاذبات الشخصيّة أولاً، وحاول قدر الإمكان تقليل الاحتكاكات والتوترات مع الفصائل الأخرى وخصوصاً حركة "حماس". في إحدى تصريحاته، وصف شلح "حماس" بأنّها أهمّ إنجازٍ للإخوان المسلمين منذ تأسيسها. تُرجِم ذلك في بعض الأحيان لتحالفات بين الحركتين في انتخابات مجالس الطلبة في الجامعات الفلسطينيّة، وإن شهدت هذه الحالة كذلك خلافاتٍ وتوترات.

كما حافظ شلح على صلة وثيقة مع مختلف مكونات الحالة الفلسطينيّة، بما فيها حركة "فتح" التي يُناصِب التنظيمُ مشروعَها السياسيّ العداءَ، مع تشديده على رسم إطارٍ قيميٍّ وأيديولوجي لمعارضته للسلطة ولتوجهات حركة "فتح" السياسيّة.

الأمر الثاني الذي ساهم فيه شلح بقوّة، هو توجيه حركة "الجهاد الإسلاميّ" نحو مركزيّة العمل المسلّح في خطابها وسلوكها، وأن يتقدم على ما سواها من الأنشطة، كما عبّر هو أكثر من مرة بأنّ "الوسيلة الوحيدة لتحقيق هدف الحركة الاستراتيجيّ هو الجهاد المسلّح، وكلّ الوسائل الأخرى هي وسائل مساعدة ومساندة للجهاد".1 وذلك قلّص شلح إلى أكبر قدرٍ مُمكنٍ من نشاطات أخرى متعلقة بالعمل الخيريّ وحتى الطلابيّ، وهو نمطٌ يتفق مع خطّ المؤسس العام الأول، ويتماشى أيضاً مع امكانيات الجهاد وموارده المحدودة.

لكـن رغـم محدوديـة المـوارد فـإنّ "الجهـاد" لم تتحـوّل إلى تنظيـم خطـابيّ، بـل كانـت ركنـاً اسـتراتيجيّاً في معادلـة الكفـاح المسـلّح، فـ"الجهـاد الإسـلاميّ" هـو الفصيـل الثـاني في معـدل عمليـات وقتـل الإسرائيليين قبـل الانتفاضـة الثانيـة، والثالث بعـد الانتفاضـة الثانيّة، وذلـك بعـد كتائـب القسـام وشـهداء الأقصى.

الأمـر الثالـث هـو الحفـاظ عـلى القواعـد الاسـتراتيجيّة لحركـة "الجهـاد الإسـلاميّ"، والتـي تـم الاتفـاق عليهـا في وثيقـة الجهـاد الداخليّـة منـذ فتحـي الشـقاقي، فيـما يتعلـق بالكفـاح المسـلح، وتصفيـة العـدو، وعـدم الدخـول في منظمـة التحريـر أو أي مـن أجسـام السـلطة. وإن كان موضـوع الكفـاح المسـلّح قـد وقـع في بعـض جوانبـه في محطـات انتكاسـة، أهمّهـا عـدم قـدرة التنظيـم عـلى التعـافي في الضفـة الغربيّـة بعـد الانتفاضـة الثانيـة، سـوا كان تنظيميّـاً أو جماهيريّـاً، أو عسـكريّاً، فلـم تتعـد عمليـات التنظيـم منـذ 2008، وحتـى الآن في الضفـة أصابـع اليـد الواحـدة. كـما عانـى الجسـم العسـكريّ في قطـاع غـزّة مـن اختـلالات وإشـكالات عديـدة، وهـو مـا يظهـر في أدائـه العسـكريّ خـلال حـرب 2014.

الأمـر الرابـع، عمـل شـلح عـلى تجنيـب "الجهـاد الإسـلاميّ" التـورط في خلافـات إقليميـة، وحـاول عـدم تصديـر مواقـف مـن الحالـة العربيّـة مـن حولـه، وتمسـك بحلفائـه. حتـى في سـوريا التـي شـكّلت مـأوى للتنظيـم، كانـت سياسـة التنظيـم مُتَزِنـةً إلى حـدٍّ بعيـد، وبقـي محافظـاً عـلى صلـة جيّـدة مـع مكونـات تحالفـه التاريخـيّ مـع النظـام السـوريّ، حـزب الله، وإيـران. ورغـم المآخـذ التـي اعتـبرت ضـدّ هـذه السياسـة، وخصوصـاً في ذروة الربيـع العـربيّ، إلا أنـه يمكـن تفهـم موقـف الجهـاد بشـكلٍ كبـيرٍ لـو أخذنـا بعـين الاعتبـار عـدم وجـود أي عمـق شـعبيّ أو سـياسيّ لـه بخـلاف حركـة "حمـاس".

باختصـار، وعـلى مـدار عشريـن عامّـاً تقريبـاً، قـاد رمضـان شـلح تنظيـم "الجهـاد الإسـلاميّ" فارضـاً حضـورَه في السـاحة الفلسـطينية عسـكريّاً وسياسـيّاً، ومحافظـاً عـلى إرث الشـقاقي النظـريّ السـياسيّ والعسـكريّ، وخصوصـاً فيـما يتعلـق بـ"مركزيّـة فلسـطين في الخطـاب الإسـلاميّ"، ومطـوّراً عليـه في جوانـب كثـيرة. ورغـم عـدم تحقيـق طفـرة فارقـة في القـوة الشـعبيّة للتنظيـم، أو في البنيـة العسـكريّة لـه في الضّفـة بعـد الانتفاضـة الثانيّة، وبشـكلٍ أقـلّ في غـزّة، إلا أنّ إرثـه العـامّ مـا زال يطبـع حركـة الجهـاد الإسـلاميّ حتـى بعـد تخليـه عـن الأمانـة العامـة عـام 2017 بسـبب مرضـه الشـديد.

رحيل رمضان شلح

• بقلم: حمادة فراعنة

برحيله، فقد الشعب الفلسطيني شخصية قيادية جبهوية جامعة، بمستوى الراحل رمضان شلح أمين عام حركة الجهاد الإسلامي، وفقدان شلح في هذا الوقت العصيب خسارة كبيرة نظراً لمعاناة الشعب الفلسطيني المتفاقمة من: الانقسام الفلسطيني المخزي والمؤذي والمعيب، الحروب البينية العربية التي دمرت سوريا والعراق واليمن وليبيا، واستنزفت قدرات العرب المالية، الصراع المكشوف مع جيران العرب الثلاثة: إيران وتركيا وأثيوبيا، مقابل ذلك تفوق العدو الإسرائيلي وتمدده نحو إبتلاع الجزء الأكبر من الضفة الفلسطينية بعد ضم القدس والعمل على أسرلتها وعبرنتها وصهينتها وتهويدها، وفرض قوانين عنصرية على فلسطينيي مناطق 48، وتعميق نفوذ الاتجاهات السياسية المتطرفة والدينية المتشددة لدى مشروع المستعمرة، وتراجع قوى الاعتدال والسلام واليسار الإسرائيلية، وايضا الدعم الأميركي اللامحدود لسياسات المستعمرة الإسرائيلية بعد تولي ترامب رئاسة البيت الأبيض وما يمثله من توجهات يمينية محافظة وعنصرية تستجيب لنفوذ الاتجاه اليهودي المتطرف والمسيحي المتصهين لمصلحة خيارات نتنياهو وسياساته العدوانية الاستعمارية التوسعية، في ظل هذه الأوضاع المأساوية التي يدفع ثمنها الشعب الفلسطيني من حياته واستقراره كبشر يتوسلون الحياة والحرية على أرض وطنهم الذي لا وطن لهم غيره، يفتقدون رمضان شلح الوطني الغيور والجبهوي غير المتزمت، الذي عمل بصلابة ضد العدو، وبكفاءة في إدارة حزبه وتنظيمه حتى جعل منه فصيلاً له اعتبار إلى جانب فتح وحماس والشعبية والديمقراطية، وعمل بعيداً عن

وسائل الانغلاق والانفصال، بل مد يد التعاون من أجل اختزال عوامل الزمن لتحقيق الشراكة، تعرض لأزمة صحية لازمته حتى فارق الحياة.

رمضان شلح بمستوى العديد من قيادات الصف الأول: أحمد ياسين، فتحي الشقاقي، طلعت يعقوب، جورج حبش، أبو علي مصطفى، توفيق طوبي وبشير البرغوثي، ولكنه يختلف معهم وعنهم ليصل إلى مستوى ياسر عرفات في إعطاء الأهمية لضرورة الوحدة الوطنية، والعمل من أجلها، في مواجهة العدو الإسرائيلي، ولم يُسجل عليه التورط في أي عمل من شأنه زعزعة الوحدة الوطنية أو المس بالآخر أو توجيه الأذى لخصومه، وإن اختلف مع أبو عمار أن الرئيس الراحل لم يكن صاحب رؤية عقائدية قومية أو دينية أو يسارية، فقد كان وطنياً جامعاً لكل الاتجاهات وهذا كان مصدر قوته ونجاحه وتفوقه، بينما زاوج رمضان شلح ما بين وطنيته وانحيازه العقائدي للخيار الإسلامي كما هي حماس، وكما هي الشعبية والديمقراطية والشيوعيين لليسار، وكما هم تنظيمات التيار القومي المتعددة.

غياب رمضان شلح خسارة لحزبه وللمقاومة وللشعب الفلسطيني، يصعب تعويضها كما هم الذين رحلوا من قبله، له الخلود، والرهان على زياد نخالة أن يسير على خطى من سبقوه فتحي الشقاقي ورمضان شلح.

رغم رحيلك الحزين.. خيمتك لا زالت تظللنا

• بقلم: خالد صادق
رئيس تحرير صحيفة الاستقلال

عشرات الآلاف يؤمون خيمة عزاء الدكتور رمضان عبد الله شلح التي أقيمت في ساحة الكتيبة كبرى ساحات غزة وفود فصائلية ووفود رسمية حكومية ووفود عشائرية أدباء ومثقفين وأساتذة جامعات وأفراد من المواطنين الأعزاء يتوافدون على خيمة العزاء ويستظلون بفكر ونهج الدكتور رمضان شلح رحمه الله المشاركة في بيت العزاء والحالة التضامنية توحي بقدر الحب والاحترام لنهج حركة الجهاد الإسلامي ولفكر الدكتور رمضان الذي كان يتعامل مع من يختلف معه ومع حركته المجاهدة في الفكر السياسي بمنطق التناصح وبالحكمة والموعظة الحسنة وبالود والمحبة عبر النقاش والحوار البناء ولا يتعامل معهم كخصوم أو منافسين وقد كان يحمل فكرا وحدويا جامعا ويرسم مواقفه السياسية وفق المصلحة الفلسطينية العامة وليس وفق مصالح حزبية ضيقة فلم يكن غريبا أن يستظل بخيمته عشرات الآلاف من الفلسطينيين وان يتحدث عن نهجه السياسي الوحدوي قادة وزعماء وكتاب وصحفيين ومثقفين عربا ويستشهدون بمواقفه التي تنم عن عقلية مثقفة وواعية لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع مع الاحتلال الصهيوني ونظرته الثاقبة لبواطن الأمور بعد أن أرسى قاعدة ثابتة أن "إسرائيل" هي العدو المركزي للأمة وان الصراع يجب أن يبقى معها فقط وألا ندخل في صراعات جانبية تضعفنا وتشتت جهدنا ووقتنا ولا يستفيد منها احد سوى الاحتلال الصهيوني فقط.

خيمـة العـزاء رسـمت لوحـة وحدويـة جميلـة تجمعـت داخلهـا كل الفصائـل الفلسـطينية بـما فيهـا حركتـي حمـاس وفتـح لما لشـخصية الرجـل مـن كاريزمـا مؤثـرة في الجميع،فـما طرحـه أبـو عبـد الله مـن مبادرات،ومـا بذلـه مـن جهـود لإنهـاء الانقسـام كان يوحـي بصدقيـة توجهاتـه وواقعيتهـا في معالجـة الاختـلاف والتبايـن في موقـف الحركتـين وقـد مثلـت مبـادرة النقـاط العـشرة التـي طرحهـا الدكتـور رمضـان في العـام 2016م،مدخلا للحـوار بـين الطرفـين،دون أن يرفـض أي فصيـل هـذه المبادرة،حتـى السـلطة الفلسـطينية لم تبـد موقفـا سـلبيا تجاههـا إنـما التزمـت الصمـت دون أن تعلـن موقفـا رافضـا لهـا، واليـوم بـدأت تنـادي أصـوات عـدة بالعـودة إلى مبـادرة النقـاط العـشر التـي طرحهـا الدكتـور رمضان،وأنهـا بـما تحتويـه مـن نقـاط تمثـل مدخـلا لحـل الإشـكاليات وإنهـاء الانقسـام،خاصة بعـد أن أعلنـت السـلطة الفلسـطينية مؤخـرا عـلى لسـان رئيسـها محمـود عبـاس أنهـا في حـل مـن كل الاتفاقيـات الموقعـة مـع "إسرائيل"،وهـذا هـو الأسـاس الـذي تبنـى عليـه مبـادرة النقـاط العـشرة التـي ارتبـط نجاحهـا بالتحلـل مـن اتفاقيـة أوسـلو،لقد شـخصت مبـادرة النقـاط العـشرة شـخصية أبـا عبـد الله أمـام الجميـع بأنهـا شـخصية جامعـه وموحـدة،وان هـذا يدفـع الفصائـل للتعامـل بجديـة مـع مـا يطرحـه مـن مبـادرات بسـبب ثقافتـه الواسـعة وقدرتـه عـلى إيجـاد الحلـول بواقعيـة للازمـات القائمـة خاصـة الأزمـات الداخليـة،وهـو مـا اكسـبه حـب واحـترام الجميـع.

موقـع أمـد الإخبـاري عنـون موقعـه بالأمـس بوصـف عميـق لشـخصية الدكتـور رمضـان شـلح فقـد قـال فيـه " أن الثقافـة الفرديـة تتفـوق لأول مـرة عـلى الثقافـة الحزبيـة، حقيقـة تجسـدت إلى أبعـد حدودهـا في شـخصية رمضـان شـلح" هـذا مـا قالـه موقـع أمـد عـن شـخصية الدكتـور رمضان،وهـذه كلـمات صادقـة وجـادة وقلـما تجـد هـذه الصفـة في قائـد لحـزب أو حركـة سياسـية لكـن الدكتـور رمضـان وحركـة الجهـاد الإسـلامي لم يكـن يبحـث عـن أي انجـاز أو مجـد شـخصي،ولم يكـن يقاتـل مـن اجـل منصـب أو سـلطة،وليس

لديه برنامج يستند على تحقيق مكاسب ومصالح للحركة،وهذا اكسبه ميزة الثقة التي أبداها الجميع تجاه حركة الجهاد وقادتها وأنها لا تهدف من وراء جهودها سوى مصلحة الشعب الفلسطيني والتفرغ لمواجهة الاحتلال الصهيوني وسياساته،حتى اسم حركة الجهاد الإسلامي حدد اسم في فلسطين،حتى يبعد عن الحركة أي شبه في أي نشاط خارجي يهدد استقرار البلدان،ويرسل رسائل طمأنينة للجميع أن عمل الجهاد الإسلامي النضالي يقتصر فقط على مواجهة الاحتلال الصهيوني،وانه لا صراع مع احد ولا تدخل في شؤون البلدان المجاورة،وانه ليس هناك أي امتداد للحركة خارج حدود فلسطين،حتى أمريكا التي وضعت اسمه على لوائح الإرهاب،ولم تتوقف عن دعم العدو الصهيوني،كان يرفض أي عمل عسكري ضدها ويوصي أن صراعنا فقط مع "إسرائيل" التي تحتل أرضنا.

رحم الله أبا عبد الله فقد كان وحدويا في حياته،ووحدويا بعد وفاته فقد أورثنا ثقافة أدب الاختلاف والحوار،وان شعبنا وامتنا العربية والإسلامية بخير،وان انبعاث الأمة سيأتي من خلال التفافها حول فلسطين،لا غرابة أن تجتمع كل الفصائل الفلسطينية في خيمة عزائك،بعد أن فرضت حبك واحترامك على الجميع،انه الوفاء لروحك الطاهرة وشعبنا بفصائله المختلفة دائما يقدر الأوفياء سواءا كانوا أحياء أم أموات.

خولة تجيب محمد الفاتح: (آن لهذا الفارس أن يترجل)

• بقلم: د. خولة فتحي الشقاقي

عشرات الآلاف يؤمون خيمة عزاء الدكتور رمضان عبد الله شلح التي أقيمت في ساحة الكتيبة كبرى ساحات غزة وفود فصائلية ووفود رسمية حكومية ووفود عشائرية أدباء ومثقفين وأساتذة جامعات وأفراد من المواطنين الأعزاء يتوافدون على خيمة العزاء ويستظلون بفكر ونهج الدكتور رمضان شلح رحمه الله المشاركة في بيت العزاء والحالة التضامنية توحي بقدر الحب والاحترام لنهج حركة الجهاد الإسلامي ولفكر الدكتور رمضان الذي كان يتعامل مع من يختلف معه ومع حركته المجاهدة في الفكر السياسي بمنطق التناصح وبالحكمة والموعظة الحسنة وبالود والمحبة عبر النقاش والحوار البناء ولا يتعامل معهم كخصوم أو منافسين وقد كان يحمل فكرا وحدويا جامعا ويرسم مواقفه السياسية وفق المصلحة الفلسطينية العامة وليس وفق مصالح حزبية ضيقة فلم يكن غريبا أن يستظل بخيمته عشرات الآلاف من الفلسطينيين وان يتحدث عن نهجه السياسي الوحدوي قادة وزعماء وكتاب وصحفيين ومثقفين عربا ويستشهدون بمواقفه التي تنم عن عقلية مثقفة وواعية لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع مع الاحتلال الصهيوني ونظرته الثاقبة لبعن هذه الدنيا وتسألون عما عملتم في هذه الأيام القليلة وصية لأبناء الأمة هذه فلسطين تناديكم وهذا الوعد قد اقترب فأعدوا أنفسكم ليوم الزحف والنصر ، وصية لأبناء فلسطين كونوا على قلب رجل واحد ولا تغرنكم الدنيا وزخرفها ، وصية لأبناء الجهاد والسرايا ليكن كل واحد منكم قائدا في السرايا كي تستمر قافلة الجهاد والمقاومة قال صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله. وهم كذلك"، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: "ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس"..

في رثاء أمين الجهاد والمقاومة
في فلسطين وقمرها البهيّ

• بقلم: د/ عمر عبد الله شلح

في رثاء أقرب الناس إلى قلبي...
أخى الذي عانق الشهادة قبل يومين..

***

أيها القمر البهيّ..
أيها الكوكبُ الدريّ..
وَقَفَ الملاك على بوابة القلب..
يستأذن بالدخول..
فغابت شمسُ الكونِ فيكَ..
وما عاد في العمرِ عُمْراً..
وجاءتْ لحظة الأفول...
أيها النهر اللؤلؤيّ..
أيها البدر الوفيُّ..
من يضيء عتمة ليلَنَا يا مولاي..
لو غاب النور من عيوننا...
فالنور أنت ضياءَه يا سيّدي...
يا قمر العاشقين في ليلِ المقاومة..
يا شمساً في ضُحى القدس تسطعُ...

في سورة الإسراء..لا تعرف المساومة....
مولاي أبا عبد الله...
ربع قرنٍ من الزمان وأكثر...
أنتَ والعادياتُ في جُرحنا تَضْبَح..
والمُورِياتُ مع نصلِ السيف منك تَقْدَح...
ما كَلَّتْ عزائمكم.. ولا وَهُنَتْ أواصِرِكم..
مُذْ رأيتك في ساحة القدس تَصْدح..
بوعد الله بالتمكين تفرح...

**

منذ عامين وأنت تقاوم المرض...
قاتلتَه... حاربْتَه...
كعادَتِك.. ما قبلتَ الهزيمة...
أَدْنيْتَه.. أَبْعَدْتّه...
لكنْ حينما جاءتك الشهادة...
بكل حبٍ ورضىً عانقتَه...
يا سيدي منذ عرفتُك...
عرفتُ أجمل الأشياءَ فيك...
فماااا أجملَ الموتَ فيك...
حينما لرحلةِ المِعْراج يجتبيك..
نحو سِدْرة المنتهى..
لِجنّة الفردوسِ يُهْديك...

يااااااا أجملَ العمرِ فيك...

**

رحلةٌ طويلة..

حطّت سنَابِكُ الخيل فيها...

على أعتابِ منزلنا...

من عطرِ الجهادِ في جدائلها...

عَرفنا أنها أنْتَ...

فجاءت سرايا القدسِ تحمِلُها...

لكنَّ الخيلُ ما عادت في مرابِضِنا...

لأن الصهيلَ غابَ عن حناجرها...

فهل سَتَصْهَلُ الخيلُ...

لو عُدْتَّ يا مولاي... إلى حَناجِرِهَا...

**

أنت تركتنا...

فمن سيصلي بنا..

في محرابِ الشهادة...

عند التحامِ الجيوش...

من سيتلو سورة الأنفال...

من سيؤمُ جَمْعَنا...

حينما نَدُكَّ تلك العروش...

**

تاريخ طويل...

أبدعَتْه يَدَاك..

بناه ساعِدَاك...

تُكْمِل الوصية...

فكنتَ تُرَتّبُ للشهداء موعدَهم...

كنتَ دليلَ الحَيَارى إلى القدسِ...

والقدسُ تصحو من جديد...

تُطِلُّ من عينيكَ في ليلة القَدْرِ...

والناس تشدو إليك...

ومن خَلْفِك...

أجمل القصيد...

بالروح بالدم..نفديكَ يا شهيد...

*****

عن أخي الكبير أتحدث..

الشّهيد رمضان شلح إنّه "ناسِكُ" الثّورة الفِلسطينيّة وواحدٌ من أصلب رجالاتها..

• بقلم: عبد الباري عطوان
رئيس تحرير صحيفة رأي اليوم

قليلون هم الذين عرفوا الدكتور رمضان عبد الله شلح عن قُرب، ويُشرّفنا أن نكون من بين هذه القلّة، ولهذا كان حُزننا كبيرًا بفُقدانه، فقد كان قامةً جهاديّةً وعلميّةً وإنسانيّةً شامخةً في التّاريخ الفِلسطيني مِن الصّعب نِسيانها أو تعويضها، مثلما كان صديقًا وفيًّا نجده مصدر إلهامٍ ودعمٍ في المفاصل الصّعبة، الوطنيّة والشخصيّة.

التّاريخ الجِهادي الفِلسطيني حافلٌ بالشخصيّات القياديّة التي لعبت دورًا متميّزًا في مسيرة الثّورة، لكن الدكتور شلح (أبو عبد الله) يظَلّ علامةً فارقةً لتواضعه، وثقافته، ونسكه، وأدبه الرّفيع، ونهجه الهادِئ، وترفّعه عن الصّغائر، حيث كان موضع إجماعٍ، وعُنصر توحيدٍ في هذه الثّورة، وفي هذه الظّروف الحرجة التي تَمُر فيها.

عندما تجلس معه، لا تشعر أنّك في معيّة قائد لحركة جهاديّة فِلسطينيّة قدّمت مِئات الشّهداء، وزهدت قيادتها وعناصرها في المناصب، والمال ومُغريات الدنيا، ونأت بنفسها عن السّلطة وامتِيازاتها، وعارضت بقوّةٍ كُل الاتّفاقات الاستِسلاميّة، وعلى رأسها اتفاقيّة أوسلو، وظلّت تُؤمِن، وتُقاتل، من أجل تحرير فِلسطين، كُل فِلسطين من البحر إلى النهر، وطُموحها الأبرز الشّهادة لتحقيق هذا الهدف.

***

عندما زُرناه في بيته المُتواضع في أحد أحياء مدينة دِمشق التي أحبّها، مساء أحد الأيّام، قال لنا أنتم تجلسون على المقعد الذي كان يجلس عليه بالأمس، وفي مثل هذا التّوقيت (العاشرة مساءً) الشهيد الحاج عماد مغنية، قائد الجناح العسكري لـ"حزب

الله"حيث تناولنا طعام العشاء سويًّا، وامتدّت بنا السّهرة حتّى الفجر، حيث أدّينا صلاة الفجر سويًّا، ثم انطلق بعدها مُتّجهًا إلى بيروت، رافضًا أن يبيت معنا كعادته في بعض الأحيان، لأنّ هُناك مهمّة كبيرة في انتظاره هُناك، وعلمنا بعد ذلك أن هذه المهمّة هي أسر جُنديين إسرائيليين من قبل خليّة تابعة لحزب الله كان هو قائِدها ومُهندسها في 12 أيّار عام 2006، وهي العمليّة التي أدّت إلى عُدوانٍ إسرائيليٍّ تمخّض عن أكبر هزيمة في تاريخها وتدمير هيبة الجيش الإسرائيلي وسُمعته.

كان رحمه الله مُولَعًا بالقراءة باللّغتين العربيّة والإنكليزيّة، وجمع بين الثّقافة الواسعة والمُتنوعّة، والقُدرة العالية على التّحليل الاستراتيجي، ليس لأنّه كان يحمل درجة الدكتوراة في الاقتصاد من جامعةٍ بريطانيّةٍ، وإنّما لشغفه الشّديد أيضًا بمُتابعة كُل صغيرة وكبيرة تتعلّق بالعدو الإسرائيليّ والعُلاقات الدوليّة، ورصد ما يجري في العالم من أحداثٍ وصِراعاتٍ، بين الشّرق والغرب، علاوةً على تعمّقه في الدّراسات الإسلاميّة بحُكم مُيوله وشغفه.

لا يعرف إلا القلّة أنّه كان مُغرمًا بالشّعر العربيّ، ويحفظ مِئات القصائد عن ظهر قلب، خاصّةً للمتنبّي وأبي العلاء المعرّي، ومالك ابن الريب وقصيدته الأشهر التي رثا فيها نفسه وهو جريحًا على سرير الموت، ومُعظم الشّعراء البارزين في العصر الذهبي للشّعر العربي، مثلما كان مُغرمًا بكُل إنتاج محمود درويش الشّعري، وقال إنّه، أيّ الدكتور شلح، كان يقرض الشّعر، وكتب العديد من القصائد، لكنّه توقّف لأنّه "لا شِعر ولا شُعراء ولا إبداع بعد محمود درويش".

كان الدكتور شلح واحد من ثلاثة طلّاب بذَروا بذرة التّأسيس الأولى لحركة الجِهاد الإسلامي، عندما كانوا يدرسون في الجامعات المِصريّة في أواخر السّبعينات من القرن الماضي، وكان الأوّل الدكتور فتحي الشقاقي، ابن مخيّم رفح في القِطاع، وأوّل أمين عام للحركة، ونعتذر عن ذكر الشّخص الثّالث لأنّه لم يُعطِنا الإذن بذلك، ليذهب الدكتور شلح بعدها إلى بريطانيا لدراسة الاقتصاد ونيل درجة الدكتوراة، ثم التّدريس في أحد جامعاتها قبل أن ينتقل إلى أمريكا والتّدريس في جامعةٍ أمريكيّةٍ حتّى عام 1995،

ولكن لم يُطِل هذا الانشِغال عن العمل الجِهادي حيثُ لبّى نِداء زملائه بترك كُل شيء والعودة من أمريكا لتولّي زعامة الحركة بعد اغتِيال الشهيد فتحي الشقاقي في مالطا عام 1995.

ذكر لنا رحمه الله، أنّه هاتف والدته في حي الشجاعيّة في قِطاع غزّة ليُشاوِرها في أمرِ تولّي هذا المنصب، فكان ردّها مُشجِّعًا، وقالت له بالحرف الواحد مثلما روى لنا "أنت ابن فِلسطين، وتتميّز بالشّجاعة، وقد اختارك الله لهذه المُهمّة المُشرّفة، فامْضِ قُدمًا، ولا تتردَّد، الله يحميك يا ابني، فهل هُناك أغلى من الشّهادة في سبيل الوطن؟".

تميّز المرحوم بالأدب الجم، والحِرص على اختِيار كُل كلمة نقد بعنايةٍ لمن يختلف معهم في الثّورة الفِلسطينيّة، ورفض كُل الضّغوط والمُغريات لدُخول أيّ انتخابات فِلسطينيّة في إطار اتّفاقات أوسلو، وحَرِصَ على أمرٍ واحدٍ وهو قِتال الاحتِلال فقط لتحرير فِلسطين كُل فِلسطين غير منقوصة ملّيمترًا واحدًا، لهذا أحبّه واحترمه الجميع، وكان "أيقونةً" بالنّسبة لعناصر الحركة ويعتبرونه قائدًا ورمزًا وقُدوةً.

روى لنا في أحد الجلسات قصّةً قال إنّها أثّرت في نفسه كثيرًا، مُوجَزها أنّ شابًّا من حي الشجاعيّة (يأخذ الحي اسمه من شجاعة رجاله وبأسهم الشّديد) وهو مسقط رأس أبو عبد الله، أصرّ على أن يُنفِّذ عمليّةً استشهاديّةً ضدّ الاحتِلال، وعَلِمَ الدكتور شلح أنّه وحيد والديه، فهاتفه ليُثنيه عن أداء هذه المُهمّة، والتفرّغ لرعايتهما لتقدّم سنّهما، ولكنّه أبى وترجّاه أن يُنفِّذ العمليّة إذا كان يُحبّه، وأن يموت شهيدًا، فِداءً لفِلسطين، وقَبِلَ إلحاحه مُجبرًا، وكان له ما أراد، وانضمّ هذا الشّاب إلى قوافل الشّهداء.

***

إرث الدكتور الشهيد رمضان عبد الله شلح الجِهادي طويلٌ وعميقٌ وحافلٌ بالمواقف والرّوايات الوطنيّة المُشرّفة، ويحتاج إلى كُتبٍ عديدة لسَردِه وتوثيقه وجمعه، ووفاته جاءت خسارةً كبيرةً لفِلسطين والأمّتين العربيّة والإسلاميّة، وعزاؤنا أنّ حركة الجهاد الإسلامي التي كان أحد مُؤسّسيها تطوّرت تحت قِيادته، وتحوّلت إلى قوّةٍ ضاربةٍ

تملك ترسانةً من الصّواريخ التي تَقُض مضاجع الإسرائيليين قيادةً وشعبًا، ووصلت صواريخها الدّقيقة إلى قلب تل ابيب ومطارها، وجعل إحداها بنيامين نِتنياهو يهرب مِثل الجِرذ أثناء خطاب انتخابي له في مدينة عسقلان قبل سبعة أشهر وجرى إطلاقه للثّأر لاغتِيال القائد الميداني المُجاهد بهاء أبو العطا.

تعازينا الحارّة للشّعب الفِلسطيني والأمّتين العربيّة والإسلاميّة، وحركة الجهاد الإسلامي، وقائدها الفَذ زياد النخالة، الرّجل الذي رافق المرحوم مِثل ظلّه، وكان صديقه، وزميله وشريكه الوفيّ طِوال مسيرته الحافلة بالعطاء، وتسلّم الرّاية القياديّة بشجاعةٍ ورجولةٍ طِوال فترة غياب الدكتور شلح لأكثر من عامين بسبب المرض، وكان نِعم الخلف لنِعم السّلف، فِلسطين ولّادة.. وعطاء أرحام نسائها خصبٌ ووفيرٌ ولن يتوقّف بإذن الله، رحم الله الفقيد وأدخله نعيم جنّاته... وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

مرايا..
(يا أبا عبد اللّٰهِ سلاما)...

بقلم: عبد الله الشاعر

هل سنضع مع الرحيل آخرَ نقطةٍ في سطور المرايا، أم سنتركها مبلّلة بالدموع، حزينة كراية سوداء في مهبّ الفجيعة؟

كأنّ عليّ الآن حزم أمتعة اللغة، وبعثرة الحروف، فما عادت هناك يدٌ تلمّ شتات الصوت، وتصنع من الهمس رعدًا ونشيدًا للقابضين على جمر المدى والأغنيات.

قال لي ذات يوم: أريدك أن تحمل الراية؛ وتواصل النشيدَ الذي بدأتُه في المرايا، ومنذ ذلك التاريخ، والكتابة في المرايا محاولةٌ للصعود إلى يقين حروفه، وأَلق لغته، وعزيمة صوته المقدود من وجعٍ وبسالةٍ ويقين...

يا إلهي، ألف مشهدٍ أمام ناظريّ الساعة، ورمضان يرتدي كوفيّته ويعتلي مصطبة في ساحات الأقصى، ويُشهر قبضته سيفًا من عزّ، وبوصلة من يقين.

منذ ان وقف إلى جوار الجسد المُسجّى للشهيد الشقاقي، وقلبه مُعلّقٌ بوصاياه، بدمائه التي لم تجفّ، وبنهجه الذي ارتضاه دينا وقربى لرب العالمين، حمل فلسطين في قلبه قبسًا من نور، وبوصلة للهدى، وواجبًا مقدّسًا.

كان يُدرك حجم الزلزال الذي ضرب الحركة باستشهاد أمينها العام، فامتشق سيف الحق، ونهض وإخوانه المخلصين من بين الجراح، ومضَوْا نحو واجبهم مبتسمين، لا يضرّهم مَن خالفهم، ولا يُرعبهم من هدّدَ باغتيالهم، فلم يُخيفهم الوعيد، ولم تفتّ من عزائمهم مؤامرات الأعراب، ولا جرائم المجرمون.

آمـن أبـو عبـد الله بـأنّ الحـقّ تحرسـه البنـادق، وأنّ الكلمـة شرفٌ ورصاصـة، فقـدّ مـن صخـور القـدس حروفًا مـن إبـاء، وخـطّ عـلى جبين المدى ملاحـم مـن نـور ونـار... ربّـت عـلى كتـف أنـور الحمـران، وتحصّـن مـع الطوالبة ورفاقـه حتى آخـر رصاصـةٍ ورمـق، وفـرش للنعـمان مـدىً مـن عزيمـة، وخبّـأ لـؤيّ السـعدي في حدقاتـه، وطـوى عـلى محمـد سـدر ورفاقـه القلـب والشـغاف.

رثـى الخواجـا بالـدم والدمـوع، وحمـل عتـاد الشـهداء عـلى كاهلـه، وكان الحـاضر إلى جوارهـم أبـدا، يُهدهـدُ جراحهـم، ويُربّـت عـلى قلوبهـم، ويهمـس في آذانهـم نشـيد الصـبر والعنفـوان.

كان طـوال الوقـت أرقّ مـن نسـمة صبـح، وفي الليلـة الظلـماء بـدرًا مـن حيـاة...إذا تحـدّث أصغـى الأحـرارُ لصوتـه أسـماعَهم، فوجـدوه الصـادق مـع شـعبه، والـوفيّ لآمالهـم، والحافـظ لتاريخهـم، والحـارس لحقوقهـم، والصـادح بالحـقّ دون أن يخشـى في الله لومـة لائـم.

طـاف العواصـم والمـدن الكبـيرة، لكنـه لم يجـد أرحـبَ مـن عـينِ شـهيد، لقـي الله وهـو يرنـو للقـدس، ويُسـيّجها بالدمـا والعزائم...

بـدأ قيادتـه للحركـة دكتـورًا، وخـرج مـن الدنيـا، بقلـبٍ يُحـبّ الأحـرار ويحنـو عليهـم، ويُنفـقُ كُلَّـه عـلى ديـن الله، ولا يرجـو إلا رضاه...بـاع لله نفسـه، فربـح البيـع، ورهـن لفلسـطين الـروح، وظـلَّ عـلى موعـدٍ مـع القـدس، ومـا بـدّل تبديـلا.

رحيل القائد رمضان شلّح.. رجل المواقف

• بقلم: منير عطا الله
صحفي لبناني

في 6 حزيران / يونيو 2020، أغلق القائد الفلسطيني الفذ، الأمين العام السابق لحركة الجهاد الإسلامي، رمضان عبد الله شلّح، عينيه لمرة أخيرة بعد صراع طويل مع المرض. وعاش شلّح حياة نضالية وقيادية شكلت إضافة نوعية في العمل النضالي الفلسطيني، بعدما تسلّم راية قيادة الحركة من رفيقه الشهيد فتحي الشقاقي الذي اغتاله العدو الصهيوني في سنة 1995. وكان الراحل قد سلّم راية قيادة الحركة في أيلول / سبتمبر 2018، إلى خلفه زياد نخّالة، بعد تردي حالته الصحية.

باغتتنا وفاة القائد الدكتور شلّح ونحن نضع اللمسات الفنية الأخيرة على العدد 123 من "مجلة الدراسات الفلسطينية"، فسارعت هيئة التحرير إلى القيام بتعديل أخير، يمكّنها من التوقف عند هذا الغياب الذي جاء مع الذكرى 53 لهزيمة النظام الرسمي العربي أمام إسرائيل في 6 حزيران / يونيو 1967، وفي الوقت الذي تتحضر إسرائيل لضم أجزاء كبيرة وذات أهمية استراتيجية في الضفة الغربية، بعدما كانت قد ضمت القدس الشرقية، وفي ظل جائحة كورونا التي يُفترض أن تترك أثراً عميقاً في مستقبل دول العالم كافة.

مواقف من حوار سابق

قبل 6 أعوام، وكان قطاع غزة قد خرج للتو من عدوان إسرائيلي مدمر، عملت "مجلة الدراسات الفلسطينية" على ترتيب لقاء مع الدكتور رمضان شلّح، أثمر عن إجراء حوار شامل تناول القضية الفلسطينية بتفصيلاتها: من المشروع الوطني وعثراته، وصولاً إلى العدوان على غزة والدروس المستفادة من صمود دام 51 يوماً، ومثّل فصلاً من فصول ملحمة المقاومة الفلسطينية.

ولم تكن أسئلة غزة، مثلما ورد في مقدمة الحوار المنشور في العدد رقم 100 من "مجلة الدراسات الفلسطينية" (خريف 2014)، مجرد إطلالة على ما حدث في معركة الـ "51 يوماً"، وإنما هي "أسئلة النضال الفلسطيني ضد الغزاة. ومن الضروري أن تُقرأ كنافذة تفتح أسئلة على الحاضر والمستقبل"، لم يبخل فقيدنا من مقابلتها بأجوبة بعين ثاقبة نحو المستقبل، استناداً إلى ماضٍ وحاضر نضاليين، فيهما كثير من الانتصارات والانكسارات. ولأهمية هذا الحوار، نقتبس منه بعض الوقفات التي تدل على مواقف هذا القائد الراحل.

كان المشروع الوطني الفلسطيني أحد محاور الحوار، فاعتبر الراحل أن -هذا المشروع الذي حملته منظمة التحرير، بعنوان "حل الدولتين"، قد انتهى. وهناك أسباب كثيرة لا تخفى على أحد، توصل إلى هذه النتيجة. لكن، هل هذا يعني أن هناك مشروعاً وطنياً بديلاً تطرحه "حماس" مثلاً أو "الجهاد"؟ الأمر ليس بهذه البساطة، فالمشروع الوطني ليس برنامجاً انتخابياً يطرحه البعض لبناء سلطة تحت مظلة الاحتلال، ولا هو رصاص أو صاروخ تطلقه المقاومة، مع أهمية ذلك. المشروع الوطني في الحالة الفلسطينية، أكبر وأعقد من ذلك كثيراً، لأنه يجيب عن سؤال المصير، بالنسبة إلى الأرض والإنسان، ليس بمعزل عن كل ما جرى في التاريخ، تاريخ الصراع، ولا عمّا يجري في الواقع، أو ما يحمله المستقبل.

ورأى الدكتور شلّح أن إعادة بناء المشروع الوطني الفلسطيني تتوقف على عدة عوامل أو محددات:

"أولاً: الوضع الفلسطيني بجميع مكوناته وعلاقاته الداخلية، أي العلاقة الفلسطينية " الفلسطينية التي عانت ولا تزال تعاني جرّاء حالة الانقسام.

ثانياً: الصراع مع الكيان الصهيوني، ولا أقول العلاقة الفلسطينية " الإسرائيلية، لأني لا أستطيع النظر إلى دولة الاحتلال إلّا بمنظور الصراع.

ثالثاً: العلاقة الفلسطينية " العربية والإسلامية، وأقصد هنا العمق العربي

والإسلامي للقضية، وأي حاضنة يمكن أن تتوفر للمشروع الوطني الفلسطيني.

رابعاً: أخيراً، هناك العامل الدولي، أو الموقف الدولي من قضية فلسطين، بل من الشعب الفلسطيني وحقوقه ومقاومته ومستقبله.

وبشأن الانقسام، رأى أن التخلص من الانقسام والتخلص من الاحتلال هدفان متلازمان، لأن الوحدة والحرية وجهان لعملة واحدة، محدداً أربعة عناوين عملية يمكن أن تشكل مرتكزات للوحدة:

الأول: الهدف، أي ماذا يريد الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية؟ فمنظمة التحرير اعترفت بعدوها قبل أن تحقق أهدافها، الأمر الذي يعني أنها هُزمت وأعلنت الاستسلام التام.

الثاني: وسيلة الوصول إلى الهدف، هل هي المفاوضات أم المقاومة؟

الثالث: المؤسسات، فهناك السلطة والمنظمة. الأولى أصبحت عبئاً كبيراً على القضية والشعب، وهي التي تحرف المسار الوطني من صراع مع الاحتلال، إلى صراع فلسطيني - فلسطيني على السلطة. أمّا المنظمة، فيفترض أن تكون الحل، لكنها تحولت إلى مشكلة، وجميع الجهود التي بُذلت بشأن إعادة بناء منظمة التحرير، لم تسفر عن شيء يُذكر.

الرابع: التهديد الإسرائيلي والخطر المتمثل في الاستيطان في الضفة وتهويد القدس واستمرار الحصار والحروب المدمرة على قطاع غزة.

واعتبر أن سجال البرامج والحلول، منذ فكرة الدولة الديمقراطية لـ "فتح" في سنة 1968، إلى البرنامج المرحلي، إلى حل الدولتين وغيره، لن يغير موقف إسرائيل التي "تعتبر نفسها هي المنتصرة [....] وهي التي تملي شروطها."

وعن غزة، قال إن انسحاب الجيش الإسرائيلي في سنة 2005 كان يهدف إلى إخراجها من الصراع ومن الخريطة السياسية والجغرافية وطنياً، وجاء الانقسام كي

يزيد الطين بلّة، والأمور تعقيداً. وكان هذا ثمرة التنافس على السلطة في سنة 2006.

وعن مأساة الشتات، قال إن "شعبنا في الشتات يعيش واقع الضحية مرتين: ضحية النكبة وفقدان الأرض والوطن، وضحية الظروف والمكان والواقع الذي يعيش فيه على امتداد العالم."

وعن الداخل الفلسطيني، رأي أن "أهلنا في مناطق 48 [....] يتعرضون اليوم لنوع من التطهير العرقي الصامت في أماكن وجودهم كافة، وخصوصاً في حيفا وعكا واللد والنقب، من هدم بيوت ومصادرة أراضٍ وتهجير داخلي وأشكال المضايقة كلها."

وفي سياق الحوار، تطرّق الدكتور شلّح إلى فكرة الجماعة الوطنية التي طرحتها حركة الجهاد الإسلامي، مشيراً إلى أنها تهدف إلى "بناء حركة وطنية على قاعدة الانتماء إلى الوطن، بعيداً عن أي صراع أيديولوجي أو عقائدي"، لأن الصراع الوحيد الذي لديه أولوية هو الصراع مع الاحتلال.

حياة نضالية

ولد الدكتور رمضان عبد الله شلّح في حي الشجاعية في قطاع غزة لأسرة تضم 11 ولداً، حيث نشأ ودرس جميع المراحل التعليمية إلى أن حصل على شهادة الثانوية العامة. أمّا دراسته الجامعية فأكملها في مصر حيث درس الاقتصاد في جامعة الزقازيق وحصل على شهادة بكالوريوس في علم الاقتصاد في سنة 1981.

بعد تخرجه عاد إلى غزة وعمل أستاذاً للاقتصاد في الجامعة الإسلامية، وقد اشتهر بخطبه الوطنية التي أثارت غضب الكيان الصهيوني ففرضت سلطات الاحتلال عليه الإقامة الجبرية ومنعته من العمل في الجامعة.

غادر شلّح فلسطين في سنة 1986 إلى لندن لإكمال الدراسات العليا وحصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد في سنة 1990، وقد واصل نشاطه السياسي هناك لفترة ثم سافر إلى الكويت وتزوج، وعاد إلى بريطانيا، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة

الأميركية حيث عمل أستاذاً لدراسات الشرق الأوسط في "جامعة جنوبي فلوريدا" بين سنتَي 1993 و1995.

في أثناء الدارسة في جامعة الزقازيق المصرية تعرّف إلى الدكتور فتحي الشقاقي، على الرغم من أنهما لا ينتميان إلى التخصص نفسه، فقد كان الشقاقي يدرس الطب في السنة الثانية. وأسفرت صداقتهما عن إهداء الشقاقي للدكتور رمضان كُتباً لقادة الإخوان المسلمين كالبنّا وسيد قطب. وفي سنة 1978 اقترح رمضان على صديقه الشقاقي تشكيل تنظيم، فأخبره الشقاقي أنه ينتمي إلى الإخوان المسلمين، ويترأس مجموعة صغيرة باسم الطلائع الإسلامية، فانضم إليها الدكتور شلّح. وتوسعت هذه المجموعة بعد ذلك بانضمام العشرات من الطلبة الفلسطينين في الجامعات المصرية، وكانت نواة لتأسيس حركة الجهاد الإسلامي في سنة 1981.

وفي سنة 1995 جاء إلى سورية راغباً في العودة إلى فلسطين، وفي تلك السنة اغتال الموساد الدكتور الشقاقي، فاجتمعت قيادة الحركة وقررت انتخاب الدكتور رمضان أميناً عاماً.

أتقن الدكتور رمضان عبد الله شلّح اللغتين الإنجليزية والعبرية، وهو أب لأربعة أبناء: ابنتين وولدين.

الدكتور رمضان شلّح الفكرة والثورة..

• بقلم: وليد هودلي
صحفي لبناني

قد تجد مفكرا بعيدا عن ميادين الجهاد وقد تجد مجاهدا لم يؤت من الفكر الا قليلا، في شخصية الدكتور رمضان عبد الله شلّح يجتمع الاثنان معا على درجة عالية، فهو صاحب رؤية فكرية واسعة وفي نفس الوقت يحمل روحا جهادية قوية ومثابرة وقد أضاف الى هذه وتلك فهما سياسيا ثاقبا أهّله لأن يمارس بالفعل توازنات سياسية راسخة وثابتة وقادرة على أن يقود حركة جهادية بحكمة عالية لا تلين لها قناة ولا تغويها سياسات باطلة..

فهو على مدار ما يقارب عشرين عاما قاد فيها حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، بالفعل لم توقعه الموازنات السياسية في شباكها رغم وعورة الطريق ودقّة المسير، لم يكن المسار سهلا فقد عصفت في الساحة الفلسطينية عواصف عاتية عدّة كان أشدها عاصفتان: اتفاقية أوسلو وما نتج عنها من قيام سلطة بانتخابات تشريعية وتشكيل حكومات متعاقبة كان الموقف الثابت منها عدم المشاركة على قاعدة: أن دولة أو كيان سياسي تحت سقف الاحتلال لن يكتب لها النجاح، أما العاصفة الثانية وهي الانقسام وتداعياته القاسية على الوضع الفلسطيني بشكل عام، قيادة الدكتور رمضان لم تنخرط في الانقسام وبقيت داعية للوحدة ونابذة له بكلّ ما أوتيت من قوّة.

والدكتور رمضان لا يعرف الانحناء أمام العاصفة ولم تثن من عزائمه كثرة الاعداء

وهول الظروف العاتية، لم يفتّ من عضده المكر السياسي ولا الحروب العسكرية العاتية، بقيت شرائع عزائمه مرفوعة تواجه وتصرّ على التضحية ودفع ثمن هذه المواجهة مهما كان الثمن باهظا لان القدس في قلبه مزروعة وتعني له ما تعني من مكانة وقداسة فهي تستحق منه كلّ غال ونفيس.

وعلى صعيد الجبهة الداخلية لم يستفزّه الخصوم والمخالفين لأية صراعات جانبية تحرفه عن القدس وبوصلة المقاومة ورغم تعرض المئات من كوادر وعناصر حركته للاعتقالات السياسية الدائمة وحفظ مكان دائم لهم في زنازين السلطة. وأحيانا وفي بعض الظروف الاستثنائية الحساسة كان الاختلاف يحتدم مع حركة حماس ويصل الى درجة ساخنة فيأتي العقلاء من الطرفين لرأب الصدع وإبقاء الخلاف في أدبياته الحميدة بعيدا عن أضراره السلبية المدمّرة. ولو تصوّرنا العكس وهو الاستجابة للصراع الداخلي والانخراط في أتون العصبيات الحزبية القاتلة لكان الدمار الشامل والهلاك لكل الفرقاء والغرق في بحر دم ليس له آخر لا سمح الله، ولكنها القيادة الحكيمة التي تبلسم الجراح وتؤكد الصراع على جبهة الأعداء الحقيقيين للقدس وفلسطين.

فلا ريب في هذا لأن القدس أولا تسكن أعماقه ولا ينبغي أن يحيد عنها مهما جلّ الخطب أو عظم الاستفزاز، وكذلك يعرف تماما مخططات عدوّه فلا يمكن أن يقع في شباكهم وتنحرف البوصلة فيقع في صراع جانبي غير محمود العواقب ولا يصب الا في صالح أعداء قضيته، وكان يدرك تماما كيف نتحوّل الى خدمة مخططات اعدائنا إذا ضللنا الطريق وفقدنا البوصلة التي تنحرف عن القدس ، فالقدس عنده هي باروميتر الصادقين وكاشفة زيف الزائفين.

ولم تطـغ نشـوة زعامـة أو اعتـداد عـال بالنفـس لصاحـب هـذا القلـب الكبـير عـلى تداعيـات المـرض كـما فعـل كثـيرون مـن زعامـات العـرب(وكأن النسـاء عجـزن أن يلـدن مثلهـم) فوصـل الى حافّـة المـوت وهـو متمسـك بكـرسي الزعامـة، الدكتـور اعتـزل القيـادة في اللحظـة المناسـبة فآثـر الخاتمـة الشـاهدة عـلى روحـه العاليـة.

وكان رحمـه الله إذا تحـدث في السياسـة لا يشـعرك بقسـوتها وإنـما يغمـرك برقّـة قلبـه وحنانـه الدافـق، يجمـع بـين الخطـاب الديني والسـياسي بمعادلة جميلـة متينـة وفي ذات الوقت عميقـة وراسـخة هادئـة. يصيـب كليهـما دون أن يطغـى أحدهمـا عـلى الاخـر.

الدكتـور رمضـان مدرسـة للدين والسياسـة والقيـادة القويـة والروح الثائـرة، صاحـب قلـب كبـير يفيض وعيـا وثـورة وحكمـة عالية.

نحسـبه مـن الذيـن قـال الله فيهـم : "مِّـنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَدَقُـوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُـم مَّـن قَـضَىٰ نَحْبَـهُ وَمِنْهُـم مَّـن يَنتَظِـرُ وَمَـا بَدَّلُـوا تَبْدِيـلًا "

نسـال الله لـه منـازل الصديقـين المجاهديـن ورفعـة الشـهداء في عليـين حيـث الرفيـق الاعـلى في مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر .

طوبى لمن فقدنا جسده ولم نفقد منهجه.. الدكتور رمضان شلح

• بقلم: أ.د. يوسف رزقة
مستشار سياسي ووزير الاعلام والاوقاف السابق

أبو عبد الله، رمضان شلح، الأمين العام الثاني لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، في ذمة الله، بعد سنوات طويلة من العمل الجاد من أجل التحرير وتقرير المصير، ومن العمل الجاد لخدمة الإسلام وتحقيق حلم العودة إلى الإسلام كما ورثناه نقيًّا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. رحم الله الفقيد الراحل وأسكنه فسيح جناته، هذا ما تقوله جريدة فلسطين لذوي الفقيد وأهله، ولقادة حركة الجهاد من بعده.

نحن حين نترحم عليه وعلى شهداء فلسطين قاطبة، نذكر أنفسنا، ومن حولنا من القادة أن طريق الحرية ما زال طويلًا وشاقًّا، وأن عدونا الذي استوطن ديارنا بقوة السلاح، وبتأييد أشرار العالم، ما زال قويًّا في شبابه، وأن الانتصار عليه وهزيمته يحتاجان إلى قادة كبار، كرمضان، والياسين، والرنتيسي، قادة يتمسكون بمبادئ الحركة الوطنية الفلسطينية التي تأسست عليها الحركة الوطنية بعيد النكبة، قادة يحملون روح التحدي للعدو، وروح الحب والرحمة لشعبهم، قادة يرون في وحدة العمل الإسلامي والوطني فريضة شرعية، وضرورة وطنية، لا يتحقق التحرير إلا بها.

مضى رمضان، أبو عبد الله، إلى ربه، وقد قدم ما يستطيع لدينه ووطنه، ولا نزكيه على ربه، فهو أعلم به وبعمله، ولكنا نشهد بما علمنا وسمعنا، فقد علمنا أن الرجل كان قائدا وحدويا، وسمعنا منه خطابات وطنية وإسلامية أعلى فيها المبادئ الوطنية والإسلامية على المصالح الشخصية والدنيوية، وكان يأمر أفراد تنظيمه بترك النزاع مع

الآخريـن، والاهتـمام بمقاومـة العـدو، والصـبر عـلى ألم التضحيـات، فـلا تحريـر لفلسـطين عنـده بغـير الـدم. وكان هـو صاحـب كلمـة: "المفاوضـات مسـخرة، وعبـث". وقـد ثبـت للقـاصي والـداني اليـوم في ظـل مـشروع الضـم، أن المفاوضـات كانـت مسـخرة، وعبـث، بـل أي مسـخرة وعبـث؟!

كان الفقيـد رحمـه الله قائـدا يـصرح بالحـق الـذي يـراه، وحين تشـتد الخصومـة بين فتح وحمـاس كان يتدخـل، ويكبـح جمـاح الغضـب عنـد الطرفـين بالقـدر الـذي يسـتطيعه، وكان ينصـح فتـح بالتمسـك بخيـار المقاومـة، والعـودة إلى الأصـول، وتـرك مـشروع المفاوضـات العبثية.

لقـد فقـدت فلسـطين بوفـاة رمضـان قامـة كبـيرة في العمـل الجهـادي، وقيمـة كبـيرة في العمـل القيـادي المسـؤول والملتـزم، وحسـبنا أنـا فقدنـا الجسـد ولم نفقـد الـروح التـي سـكنته. حسـبنا أنـا فقدنـا الرجـل ولكنـا لم نفقـد المنهـج. الأجسـاد تبـلى، ومناهـج الحـق تبقـى، ورمضـان بـاقٍ فينـا بمنهجـه ومبادئـه، فطوبـى لمـن ذكـره النـاس مـن بعـد وفاتـه بعمله ومنهجـه. رحـم الله الفقيـد، وتعازينـا لحركتـه ولعائلتـه.

فلسطين هي البوصلة
حوار مع د. رمضان عبد الله شلح،
الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين

• أجرى الحوار: هيئة تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية، خريف 2014، العدد 100.

صورة من لقاء القائد رمضان عبدالله شلح

هل انتهت الحرب على غزة بوقف إطلاق النار بعد 51 يوماً من الصمود البطولي الذي صنعه الشعب الفلسطيني وقواه المقاومة؟ أم إن هذه الحرب ستدخل تاريخ فلسطين بصفتها فصلا من ملحمة المقاومة المستمرة منذ بدايات الغزو الصهيوني؟.

كيف تقرأ المقاومة تجربتها خلال معركة الصمود هذه، وكيف تقوم أداءها العسكري وانتصارها المعنوي والأخلاقي على الاحتلال الإسرائيلي؟

أسئلة غزة هي أسئلة النضال الفلسطيني ضد الغزاة، ومن الضروري أن تُقرأ كنافذة تفتح أسئلة الحاضر والمستقبل، ولذا كان لا بد من محاورة أحد قادة المقاومة، الدكتور رمضان عبدالله شلح الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين الذي أدى تنظيمه دوراً أساسيا في المقاومة العسكرية، وفي بلورة الأهداف السياسية التي طرحها الوفد الفلسطيني المفاوض في القاهرة. كما أن حركة الجهاد الإسلامي قامت بدور توافقي في الساحة الفلسطينية من دون تقديم أي تنازل بشأن ثوابت المقاومة.

وجرى هذا الحوار مع الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، على ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى أعدت هيئة تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية" مجموعة من المحاور / الأسئلة أُرسلت إلى رمضان عبد الله شلح الذي أجاب عنها خطيا؛ في المرحلة الثانية أعددنا مجموعة من الأسئلة الإضافية على النص الذي أُرسل إلينا وذهبنا إلى لقاء معه دام ساعتين تقريبا، وقد ناقش بروح ديمقراطية عالية أسئلتنا وملاحظاتنا؛ في المرحلة الثالثة أرسل إلينا بعد يومين ملحقاً مكتوبا يجيب على أغلب استفساراتنا، فقمنا بإدراجه في سياقه داخل النص. ونود أن نشير في النهاية إلى أن هذا النص المنشور صاغه الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي بلغته.

I - المقاومة الفلسطينية: نحو مراجعة شاملة

س: ماذا تقول عن حرب غزة وإعادة بناء المشروع الوطني الفلسطيني؟

الحرب الصهيونية على غزة، هذه المرة، والتي استمرت واحدا وخمسين يوما، ليست مجرد لحظة عابرة في تاريخ الصراع، وإنما هي محطة تاريخية يجب أن يكون لها أثرها الذي يوازي حجمها على الصعد كافة. وإذا أردنا أن نلمس أثرها في مستقبل المشروع الوطني الفلسطيني، فإننا، وبكل صراحة، لدينا خشية من أن ما يسمى المشروع الوطني، بوضعه الراهن، لا يستطيع أن يستوعب أو يهضم إنجازات أو إيجابيات المعركة، ولا يقوى على مواجهة تحديات ما بعد الحرب، أو التخلص مما خلفته من آثار

سلبية من دمار وجراحات. وهذه الخشية نابعة من عمق الأزمة التي يعيشها المشروع الوطني الفلسطيني، والتي تحولت، منذ زمن، إلى مأزق وحالة من انسداد الأفق، جعل كثيرين يتساءلون: هل هناك مشروع وطني فلسطيني؟ أو أين هو المشروع الوطني؟ وما هي أهدافه؟ ما هي أدواته ووسائله؟ ما هي إمكاناته؟ ما هي تحالفاته؟ ما هي آفاقه المستقبلية، في ظل التحولات الكبرى التي تعصف بالمنطقة ويشهدها العالم؟.

في الإجابة عن هذه الأسئلة، قلت قبل أكثر من عامين، إن المشروع الوطني الفلسطيني الذي حملته منظمة التحرير، بعنوان "حل الدولتين"، قد انتهى. وهناك أسباب كثيرة لا تخفى على أحد، توصل إلى هذه النتيجة. لكن، هل هذا يعني أن هناك مشروعاً وطنياً بديلا تطرحه"حماس" مثالً أو "الجهاد"؟ الأمر ليس بهذه البساطة، فالمشروع الوطني ليس برنامجا انتخابيا يطرحه البعض لبناء سلطة تحت مظلة الاحتلال، ولا هو رصاص أو صاروخ تطلقه ، المقاومة، مع أهمية ذلك. المشروع الوطني في الحالة الفلسطينية، أكبر وأعقد من ذلك كثيرا لأنه يجيب عن سؤال المصير، بالنسبة إلى الأرض والإنسان، ليس بمعزل عن كل ما جرى في التاريخ، تاريخ الصراع، ولا عما يجري في الواقع، أو ما يحمله المستقبل.

وبالعودة إلى أثر حرب غزة في إعادة بناء المشروع الوطني نقول إن إعادة بناء المشروع الوطني الفلسطيني تتوقف على عدة عوامل أو محددات:

أولا: الوضع الفلسطيني بجميع مكوناته وعلاقاته الداخلية، أي العلاقة الفلسطينية ـ الفلسطينية التي عانت ولا تزال تعاني جراء حالة الانقسام.

ثانيا: الصراع مع الكيان الصهيوني، ولا أقول العلاقة الفلسطينية ـ الإسرائيلية، لأني لا أستطيع النظر إلى دولة الاحتلال إلا بمنظور الصراع.

ثالثا: العلاقة الفلسطينية ـ العربية والإسلامية، وأقصد هنا العمق العربي

والإسـلامي للقضيـة، وأي حاضنـة يمكـن أن تتوفـر للمـشروع الوطنـي الفلسـطيني.

رابعـاً: أخـيراً ، هنـك لعامـل الـدولي، أو الموقـف الـدولي مـن قضيـة فلسـطينبل مـن لشـعب لفلسـطيني وحقوقـه ومقاومتـه ومسـتقبله.

وإذا فحصنـا أثـر حـرب غـزة في هـذه العوامـل أو المحـددات الأربعـة، فإنـه يمكـن أن نعـرف أثرهـا في عمليـة إعـادة بنـاء المشروع الوطني الفلسـطيني، والتي مـن وجهـة نظـري، سـتكون إيجابيـة بالمحصلـة، أو لمصلحتنـا، لـو اسـتطعنا التقـاط هـذه اللحظـة التاريخيـة واسـتفدنا مـن مفاعليهـا.

س: ماذا عن أسئلة الوحدة الوطنية؟

لا يمكـن الحديـث عـن الوحـدة الوطنيـة مـن دون الحديـث عـن "الوطنيـة الفلسـطينية" التـي تجمعنـا. وهـذا مـا سـأتطرق إليـه عنـد الحديـث عـن دور الإسـلاميين.

الأصـل أننـا مازلنـا في مرحلـة كفـاح وطنـي، والحركـة الوطنيـة لم تنجـز بعـد شـيئا مـن أهدافهـا التـي انطلقـت مـن أجلهـا منذ بدايـات الـصراع. وفي مرحلـة التحـرر أو الكفـاح الوطنـي، الوحـدة ليسـت ترفـاً، وليسـت خيـاراً، بل إنهـا واجـب، وضرورة مصيريـة، وشرط وجـود للكل الفلسـطيني.

لهـذا، رأينـا الشـعب في ظـل الانقسـام، وبـكل عفويـة وصدقيـة، يرفـع شعار:"الشـعب يريـد إنهـاء الانقسـام"؛ "الشـعب يريـد إنهـاء الاحتـلال"، فالتخلـص مـن الانقسـام، والتخلـص مـن الاحتلال،هدفـان متلازمـان، لأن الوحـدة والحريـة وجهـان لعملة واحـدة.

لكـن يبقـى السـؤال الأهـم: هـل الوحـدة الوطنيـة التـي يطرحهـا البعـض اليـوم، هـي مجـرد تكتيـك لتحقيـق بعـض المكاسـب الآنيـة، أم هـي اسـتراتيجيا نضـال؟ للأسـف، منـذ

أن دخلت الساحة الفلسطينية نفق التسوية، هبط حديث الوحدة من الاستراتيجي إلى التكتيكي، ومن الكلي إلى الجزئي، أو من الكبير والشامل إلى الصغير والتفصيلي.

كان الحديث عن الوحدة سابقاً يبدأ بالبرنامج السياسي، فهو العنوان وهو المعيار. أما اليوم، فيستحيل التوافق على برنامج سياسي موحد، بل إنه حتى التوافق على خطط للتحرك السياسي أصبح عسيراً، ولذلك اعتُبر تشكيل الوفد الموحد في مفاوضات القاهرة في أثناء الحرب على غزة إنجازاً ! لكن هل هذا يعني أن نفقد الأمل؟ بالتأكيد لا. لا بد من المحاولة لتلمس عناصر الوحدة الوطنية، وهنا لن أتكلم عن وحدة الدم والمصير، أو وحدة الأرض والتاريخ، ولا سيما أن هذا كله مهدد.

سأتحدث عن أربعة عناوين عملية يمكن أن تشكل مرتكزات للوحدة:

الأول: الهدف، أي ماذا يريد الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية؟

فمنذ بداية الصراع إلى البرنامج المرحلي في سنة 1974 ،كان الهدف تحرير فلسطين، كل فلسطين، من النهر إلى البحر.. وفي البرنامج المرحلي اختُزل الهدف إلى "سلطة وطنية" على أي جزء يتم تحريره. وفي الجزائر في سنة 1988 صار الهدف دولة فلسطينية في حدود 1967 ،ثم جاء اتفاق أوسلو واعتراف منظمة التحرير بإسرائيل، في مقابل "حكم ذاتي" في الضفة والقطاع، على أمل أن يتطور إلى دولة مستقلة، تحت شعار حل الدولتين. ما حدث في أوسلو تجاوز البرنامج المرحلي كثيراً، وخصوصاً في نقطتين مهمتين: الأولى، أن البرنامج المرحلي رفض أي كيان ثمنه الاعتراف والصلح مع إسرائيل والتنازل عن حق العودة وتقرير المصير، والثانية، أن السلطة أو الكيانية الفلسطينية تقوم على أرض يتم "تحريرها" بالكفاح المسلح، ولا تُستجدى بالمفاوضات.

"ليس هناك حركة تحرر في التاريخ اعترفت بعدوها قبل تحقيق أهدافها، إلا إذا كانت قد هُزمت وأعلنت الاستسلام التام"

وكي لا أطيل في هذا الموضوع، أقول ليس هناك حركة تحرر في التاريخ اعترفت بعدوها قبل تحقيق أهدافها، إلا إذا كانت قد هُزمت وأعلنت الاستسلام التام. منظمة التحرير اعترفت بعدوها في مقابل

اعترافه بها كمؤسسة! وحتى لو اختار الفلسطيني المرحلية وتجزئة الأهداف، فإنه كان عليه أن يترك أمر الاعتراف والصلح للشعب الفلسطيني كله، عندما يصبح له دولة فيقرر. أما أن يتم تجريده من أهدفه وسلاحه، وإلزامه بمسؤولية حفظ أمن عدوه، ونحن في مرحلة تحرر وطني، فهذا خطأ استراتيجي فادح في إدارة الصراع. وهذه أول قضية بحاجة إلى مراجعة في المشروع الوطني الفلسطيني. وأنا هنا لا أضع عراقيل تحول دون التلاقي، أو أوسّع الهوة بين أطراف الحركة الوطنية، وإنما أحاول أن أفسح الطريق أمام اللقاء بإزالة الوهم الذي قام من أجل تحقيق شيء غير ممكن. "حل الدولتين" انتهى، وحلم "الدولة الفلسطينية المستقلة" عن طريق المفاوضات غير ممكن، لأن ميزان القوى لا يسمح بذلك، ولأن طريق الوصول إليها رُسمت معكوسة: الاعتراف والصلح قبل الدولة، وعن طريق "نبذ العنف"، أي إعلان الهزيمة، وإلقاء البندقية الفلسطينية أو وضعها في خدمة أمن إسرائيل! وطبعا، بالنسبة إلينا، فنحن لا نقبل الاعتراف بإسرائيل بأي حال، إلا إنني أسلط الضوء على الخطأ التاريخي الذي وقع فيه صانع القرار، حين قبل التنازل عن هدفه، قبل السير خطوة واحدة على طريق الحل.

الثاني: وسيلة الوصول إلى الهدف، وبإيجاز شديد أقول، هل هي المفاوضات أم المقاومة؟ أظن أن تجربة المفاوضات، ومعركة غزة، تجيبان عن هذا السؤال. فالأولى وصلت إلى طريق مسدودة، وأثبتت عقم هذا الخيار، والثانية تفتح أفقاً أمام المقاومة، ويكفي التفاف الشعب حولها، واستعداه لتحمّل تكلفتها العالية.

الثالث: المؤسسات؛ وبإيجاز أيضا أقول لدينا السلطة، والمنظمة. الأولى في نظري أصبحت عبئاً كبيراً على القضية والشعب، وهي التي تحرف المسار الوطني من صراع مع الاحتلال إلى صراع فلسطيني ـ فلسطيني على السلطة. أما المنظمة، فيفترض أن تكون هي الحل، لكنها للأسف تحولت إلى مشكلة، وإلى أحد ملفات التجاذب الداخلي بين

الأطراف، بدلاً من أن تكون الإطار الجامع للكل الفلسطيني، ووعاء الشراكة في القرار. وللأسف، فإن كل الجهود التي بُذلت بشأن إعادة بناء منظمة التحرير، لم تسفر عن شيء يذكر، ولا ندري حتى الآن هل المراد احتواء الإسلاميين داخل المنظمة التي اعترفت بإسرائيل؟ أم تصحيح هذا الخطأ وتصويب مسيرة النضال كي تجسد المنظمة من جديد الهدف الذي قامت من أجله؟ وربما يستغرب البعض أن مثل هذا السؤال لم يُطرح في اجتماعات الإطار القيادي لمنظمة التحرير،وإذا طُرح فإن أحداً لا يتوقف عنده!!

الرابع: التهديد الإسرائيلي والخطر المتمثل في الاستيطان في الضفة وتهويد القدس واستمرار الحصار والحروب المدمرة على قطاع غزة. إن شراسة العدوان الصهيوني الذي يستهدف الأرض والإنسان والمقدسات، أو التاريخ والجغرافيا، تفرض علينا أن نتجاوز كثيراً من التناقضات الثانوية بيننا، وأن يظل التناقض الرئيسي لنا جميعا هو مع دولة الاحتلال.

لا شك في أن التهديدات الإسرائيلية عامل توحيد كبير، لكن هذا لن يحدث، من دون الوقوف بشجاعة وشفافية لإجراء مراجعة لجميع العناوين السابقة، إلى أن يتم تصحيح المسيرة وتصويب المسار، وإلا فلن يكون هناك وحدة وطنية، وسنظل نتحدث بلغة الشعارات، نشتهي الوحدة ولا نطال التوافق!

س: أين موقع فلسطينيي الشتات وفلسطينيي 48 يف تصوركم للوحدة الوطنية؟

إن أخطر ما تعانيه الحالة الفلسطينية هو غياب المجتمع الفلسطيني الموحد على أرض واحدة. فالشعب الفلسطيني اليوم هو عبارة عن تجمعات متعددة ومنتشرة في عدة أماكن من العامل، ظروفها مختلفة، وبيئاتها مختلفة، وهمومها مختلفة، وعلى الرغم من ذلك، ما زالت فلسطين تجمعها، لكن بأي قدر؟ وفي أي اتجاه؟ ولأي هدف؟ إن التصنيف الثلاثي للشعب الفلسطيني إلى ضفة وغزة، و48 ،وشتات، هو تصنيف عام جداً، لكن في تفاصيله هناك تعقيدات كبيرة مزعجة وربما محبطة. صحيح أننا ما زلنا جدا ندفع ثمن النكبة ونعيش آثارها، ولذلك نقول إن النكبة ما زالت مستمرة، غير أن

الخط أو النهج السياسي، اللذين سلكتهما الثورة أو الحركة الوطنية الفلسطينية، يتحملان مسؤولية كبيرة أيضاً . فالبرنامج المرحلي مثلاً أسقط من حسابه فلسطينيي الشتات وفلسطينيي 48، ثم جاء مشروع التسوية وحصر كل النزاع والحل في حدود أراضي 67 التي عرفها اتفاق أوسلو بأنها أراض متنازع عليها، وهذا يعني إعفاء إسرائيل من آثار النكبة، أي إسقاط حق العودة. المعروف أن الأغلبية أو الأكثرية من الشعب الفلسطيني هي في الشتات خارج أرض فلسطين. أي دور لهؤلاء؟ وأي حقوق لهم؟ المعلومات التي رشحت من المفاوضات، وأكدتها مصادر فلسطينية وإسرائيلية، هي أن السقف الذي قبل به المفاوض الفلسطيني بالنسبة إلى حق العودة كان المطالبة بعودة 100000 فلسطيني إلى فلسطين، بين أكثر من ستة ملايين يعيشون في الشتات! إسرائيل في زمن حكومة أولمرت قبلت بعودة 5000 فلسطيني، شرط أن تختارهم إسرائيل، وأن يعودوا إلى الضفة وغزة، وتكون عودتهم على مدار خمسة أعوام! وهذا يعني أن مسار التسوية الحالي أسقط حق العودة، والمبادرة العربية تحدثت عن حل يُتفق عليه لقضية اللاجئين، وهذا التوجه ليس جديداً، بل هو ما أسس له قرار 242 الذي ليس فيه أي ذكر لفلسطين، لكنه يتحدث عن إيجاد حل لمشكلة اللاجئين.

اليوم شعبنا في الشتات يعيش واقع الضحية مرتين: ضحية النكبة وفقدان الأرض والوطن، وضحية الظرف والمكان والواقع الذي يعيش فيه على امتداد العالم. وقد رأينا ما حل بشعبنا في سورية ومأساة مخيم اليرموك، ثم أوضاع الفلسطينيين في مخيمات لبنان. الفلسطيني اليوم يدفع ثمن الانفجار الجاري في المنطقة أكثر من شعوب الدول العربية نفسها. بعض الشباب الفلسطيني اليوم موزع ما بين الهجرة إلى التنظيمات المتطرفة فيما يسمى السلفية الجهادية، أو الهجرة إلى أوروبا والموت غرقا في البحر. أين منظمة التحرير من هؤلاء؟ وأين هي المرجعية الفلسطينية الموحدة التي تتحمل مسؤوليتها تجاه كل فلسطيني في العالم؟

أما أهلنا في مناطق 48 ،فعلى الرغم من معاناتهم وصراعهم المرير مع العنصرية

الصهيونية البغيضة، فإن بقاءهم على أرض فلسطين هو أهم ذخر استراتيجي للقضية. إنهم الشاهد الحي الذي ينسف جميع الادعاءات والأساطير المؤسسة للكيان الصهيوني، وهم العين التي تواجه المخرز وتنسف مخطط "يهودية الدولة"، ولذا، فإنهم يتعرضون اليوم لنوع من التطهير العرقي الصامت في أماكن وجودهم كافة، وخصوصا في حيفا وعكا واللد والنقب، من هدم بيوت ومصادرة أراض وتهجير داخلي وأشكال المضايقات كلها. وقد رأينا هبة أهلنا في مناطق 48 وتضامنهم مع غزة في أثناء العدوان، الأمر الذي يؤكد أن الشعب الفلسطيني، وعلى الرغم من فقدانه المجتمع الموحد على بقعة أرض واحدة، استطاع أن يحافظ على الإطار العام للوحدة الوطنية، وأنه إذا فرقته الجغرافيا، فإنه بروحه وانتمائه وإرادته التي لا تنكسر، وفي جميع أماكن وجوده، وعلى اختلاف توجهاته، شعب واحد، وقضيته واحدة.

س: قلتم إن حل الدولتين انتهى، وميزتم بينه حاليا وبين البرنامج المرحلي الذي لديكم مآخذ عليه، فما هي رؤية حركة الجهاد إلى الحل؟

حركة الجهاد، ولأسباب كثيرة، لا تشغل نفسها بطرح حلول وبدائل مثل حل الدولتين والدولة الواحدة وما شابه. ومن أسباب هذا الموقف تجربة منظمة التحرير، فالمنظمة قبلت عُرف ببرنامج الحد الأدنى (دولة على 22 ٪من الأرض) وإسرائيل ترفض ذلك.

نحن ليس لدينا أوهام، وندرك أن مشكلتنا معقدة جدا وإسرائيل ككيان غاز استعماري، تختلف عن أي حالة من حالات الغزو الاستعماري، لأنها استعمار استيطاني إحلالي. الجيش الغازي اليوم ليس تعداده 180،000 جندي إسرائيلي نظامي ومعهم 400،000 جندي احتياط . إنها ليست الجزائر أو فيتنام، الجيش الغازي تعداده سكان إسرائيل جميعا من اليهود، وهم يعتقدون أن أرض فلسطين كلها، من النهر إلى البحر، هي "أرض إسرائيل"، وأن لهم فيها حقاً إلهيا !!

كيـف يمكـن أن نتعامـل مـع هـؤلاء، وأي صيغـة وأي حـل يمكـن أن يقنعهـم بمجـاورة "الأغيـار" في "حـل الدولتـين"، أو التعايـش معهـم في حل "الدولـة الواحـدة"؟!

إن الرفـض الإسرائيـلي للتسـوية بمنطـق الحـد الأدنـى هـو نتـاج ميـزان القـوة. فإسرائيـل تعتـبر نفسـها هـي المنتـصرة في الـصراع العـربي ـ الصهيـوني، وهـي التـي تمـلي شروطهـا لفـرض "حـل إسرائيلي" للـصراع، لا يتجـاوز في جوهـره الحكـم الـذاتي، مـع ربـط للضفـة بشـكل مـا مـع الأردن. لهـذا، نحـن نعتـبر أن سـجال البرامـج والحلـول، منـذ فكـرة الدولـة الديمقراطيـة لـ "فتـح" يـف سـنة 1968 ،إلى البرنامـج المرحـلي، إلى حـل الدولتـين وغـيره، لـن يغـير مـن الموقـف الصهيـوني شـيئاً. الـشيء الوحيـد الـذي يمكـن أن يحـدث تغيـيراً هـو اسـتمرار الضغـط العسـكري عـلى إسرائيـل لتعديـل ميـزان القـوة، وإحـداث نـوع مـن كـي الوعـي وتغيـير المفاهيـم، وهـذه مهمـة المقاومـة ووظيفتهـا كـما فعلـت في غـزة، حتـى لـو سـلكت المنظمـة طريـق التسـوية. وهـذا مـا أدركـه الشـهيد يـاسر عرفـات ومـال إليـه في انتفاضـة الأقـصى، ولهـذا قتلـوه..

لذلـك، نحـن نعتقـد، ومـن واقـع تجربـة التسـوية الفاشـلة، أن مسـار الحـرب ومسـار التسـوية سـيظلان فـرسي رهـان في هـذه القضيـة، مـع قناعتنـا بـأن السـباق غـير متكافـئ، لأن فـرس التسـوية محـل رهـان وتشـجيع العـالم كلـه ليصـل إلى حيـث تريـد إسرائيـل، بينـما فـرس المقاومـة، كل العـالم يحـاصره ويتنكـر لـه، لكنـه ينطلق بقـوة إرادة الشـعب الفلسـطيني، وسـيصل ويفـوز بـإذن الله.

"إن رؤية حركة الجهاد تقوم على استمرار الجهاد والمقاومة، حتى دحر الاحتلال عن كامل أراضي الضفة والقطاع، من دون قيد أو شرط"

مـن هنـا أسـتطيع أن أقـول إن رؤيـة حركـة الجهـاد تقـوم عـلى اسـتمرار الجهـاد والمقاومـة، حتـى دحـر الاحتـلال عـن كامـل أراضي الضفـة والقطاع، مـن دون قيـد أو شرط. وهـذا لا يعنـي أننـا نختـزل حقنـا في فلسـطين في حـدود 67 ،وإنـما مـن بـاب تحقيـق هـدف هـو محـل إجمـاع فلسـطيني وتأييـد عـربي ودولي، بغـض النظـر عـن موقـف البعـض مـن المقاومـة

التي يقرها القانون الدولي ضد الاحتلال الأجنبي. وعندما نقول بلا قيد أو شرط، أي أن نحرر الأرض، من دون أي التزام بالاعتراف بإسرائيل، أو التنازل عن شبر من أرض فلسطين كاملة.

س: ما هو دور التيارات الإسلامية في المشروع الوطني، وكيف تحدد علاقاتها بالقوى العلمانية الأخرى؟

إذا أردنا فهم دور التيار الإسلامي في المشروع الوطني، يجب أن نبتعد عن الدبلوماسية أو المجاملات، ونتحدث بشفافية حديثاً يلامس نشأة الحركة الوطنية الفلسطينية وأطوارها التاريخية. ولهذا قلت لا بد من أن نتحدث عن "الوطنية الفلسطينية" ، قبل الحديث عن الوحدة.

لقد تشكلت "الوطنية الفلسطينية" الراهنة، في طورها الأول، مع مطلع القرن العشرين، وما حمل من أحداث مثل سايكس بيكو 1916 ،ووعد بلفور 1917 ،وهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، والاحتلال البريطاني لفلسطين والغزو الصهيوني لها، وما صاحب ذلك من قيام حركة مقاومة لهذا الغزو، ونشوء أحزاب سياسية، وظهور رموز وقيادات وطنية في عشرينيات القرن الماضي وثلاثيناته. ففي تلك المرحلة، ظهرت حركة الشيخ عز الدين القسام، وكان أزهرياً معمماً، لكن قيادة الحركة الوطنية، عُقدت للحاج أمين الحسيني، بغض النظر عن أي ملاحظات على تلك المرحلة وأولئك الزعماء. والملاحظ أن الحركة الوطنية في تلك المرحلة اتسمت بسمتين مهمتين: الأولى، أنها نشأت على قاعدة التصدي للمشروع الصهيوني ومقاومته، والثانية، أن الحركة الوطنية، في ذلك الطور، لم تنسلخ عن حضنها العربي والإسلامي. لم تبرز مشكلة هوية، ولم يقع أي انفصام بين الوطنية والعروبة والإسلام. وكانت شخصية الحاج أمين أبرز تعبير عن انصهار الأبعاد الثلاثة في وطنية فلسطينية تتسع للجميع.

بعد نكبة 1948 ،وبالذات في الخمسينيات والستينيات، دخلت "الوطنية الفلسطينية"طورها الثاني، بانضواء الوطني الفلسطيني في إطار القومي العربي، في مرحلة

المد اليساري والقومي وبروز التيارات العلمانية في العالم العربي، فكانت حركة التحرر الوطني الفلسطيني جزءاً من حركة التحرر العربي. في تلك المرحلة، حدث انفصام في علاقة العروبة بالإسلام، عبَر عن نفسه في الصدام بين التيار القومي والتيار الإسلامي، وانسحب هذا على فلسطين، فتوارى الإسلامي عن الأنظار، بل لم يظهر على خريطة الحركة الوطنية التي، وإن فقدت سمة الانسجام بين المكونات الثلاثة (الوطنية والعروبة والإسلام)، فإنها احتفظت بسمة الصدام مع المشروع الصهيوني ومقاومته، تحت عنوان الثورة الفلسطينية المعاصرة.

بعد هزيمة 67 ،وسيطرة حركة "فتح" على منظمة التحرير التي نشأت كتعبير عن الكيانية الفلسطينية، بدأ النفس الوطني يأخذ شكل "فلسطنة" القضية، وظهور شعار القرار الوطني المستقل، وحتى البعد القومي خرج من المشهد، وتم تغيير الميثاق من "ميثاق قومي" أسس منظمة التحرير إلى "ميثاق وطني" فلسطيني. كان هذا هو الطور الثالث "للوطنية الفلسطينية" التي ظلت محتفظة بسمة الصراع مع المشروع الصهيوني ومقاومته، وهو طور سيشهد في نهاياته بروز التيار الإسالمي: "الجهاد الإسالمي" أولا، والتي كان لها السبق في عودة الإسلامي إلى ساحة النضال، ثم "حماس"مع اندلاع الانتفاضة الأولى في سنة 1987.

وهنا، وليس من باب مديح الذات، وإنما للتاريخ، لا بد من أن نسجل أن ظهور حركة الجهاد، يتلوها "حماس"، شكل إضافة نوعية، بل مهمة جدا إلى مسيرة النضال الوطني، من أجل تصحيح الخلل الذي أصاب الوطنية الفلسطينية، وذلك باستعادة الانسجام بين مكوناتها الثلاثة (الوطنية ـ العروبة ـ الإسلام)، وتعزيز سمة الكفاح بتكريس نهج المقاومة ضد المشروع الصهيوني.

وكي لا يفهم بروز التيار الإسلامي على أنه يأتي في سياق مفهوم الإزاحة والبديل، طرحت "الجهاد الإسلامي"، وفي وقت مبكر، في الانتفاضة الأولى، مفهوم "الجماعة الوطنية" التي تنصهر فيها الأبعاد الثلاثة السابقة. لكن الجميع لم يمهل

"الوطنيةً الفلسطينية" لتستعيد توازنها، ورأوا في بروز التيار الإسلامي بعبعا هربوا منه كي يشقوا لنا طريقا توصلنا إلى التسوية مع إسرائيل، بدءا بمدريد وانتهاء بأوسلو في سنة 1993 . بل إن اتفاق أوسلو تم الوصول إليه عبر نفق سياسي سري شقه رئيس السلطة، السيد محمود عباس، بعلم المرحوم ياسر عرفات وقراره، كي نصل بموجبه، إلى إنشاء السلطة الفلسطينية في سنة 1994 . وهنا دخلت "الوطنية الفلسطينية" طورها الرابع وأي طور؟! فمنذ ذلك الحين و"الوطنية الفلسطينية" تتعرض لعملية تفكيك لكل شيء، بل لتجريف ساحق! وإذا كانت "الفلسطنة" قادت إلى تغيير الميثاق القومي إلى ميثاق وطني، فإن ما سماه البعض "الأسرلة"، في ظل أوسلو، أدى إلى شطب الميثاق الوطني أو بنوده الكفاحية، وحل قانون السلطة محمله !

خلال هذه المرحلة، جرى العمل على محو السمتين اللتين لازمتا الحركة الوطنية: الانسجام في أبعاد الشخصية الوطنية (الوطنية ـ العروبة ـ الإسلام) والحضور الإسلامي في المشهد، والمقاومة ضد الكيان الصهيوني، بل إنه، وعلى خلفية تمسك التيار الإسلامي بالمقاومة، جرى تصوير الإسلاميين على أنهم الخطر وليس إسرائيل! وبعد الانقسام، صارت "حماس" في نظر "فتح" هي العدو، والعكس صحيح.

ولم ينتبه أهل أوسلو إلى أن إغلاق باب الجهاد والصراع مع العدو المحتل، سيفتح باب الجهاد والصراع على الهوية والانتماء والنفوذ كي تنفجر الحركة الوطنية من داخلها. ولهذا السبب، كان موقف "الجهاد" بعدم المشاركة في السلطة، لا يستند إلى الزهد فيها ًتحت الاحتلال فحسب، بل إلى الوعي بخطورة حرف البوصلة أيضا، والانزلاق إلى لعبة اختراع "العدو البديل" داخل الساحة الفلسطينية، والتي أصبحت تجتاح المنطقة اليوم، ولا سيما في اعتبار البعض أن إيران هي العدو البديل من إسرائيل ! وإذا أردت أن أخلص من هذا العرض كله إلى شيء ما أقول: لا يمكن للوطنية الفلسطينية أن تعيش بشكل سوي أو يكتب لها النجاح، إذا انسلخت عن عروبتها وإسلاميتها، أو تخلت عن مقاومة المشروع الصهيوني ما دامت فلسطين محتلة.

وإذا اقتربنا بشكل محدد من التيار الإسلامي وعلاقته بالقوى العلمانية، كما في السؤال، نقول إن هناك عبئا كبيراً على الطرفين: الإسلامي، لأنه مطلوب منه ألا يستبدل، في أي لحظة من اللحظات، صراع الهوية بالصراع مع الاحتلال، وأن يكون الحوار هو طريق التفاهم والتعايش بين الجميع، أما "العلماني" فعليه أن يدرك أن وجود "الإسلامي" ضرورة وحاجة وطنية، كي تستعيد الوطنية الفلسطينية انسجامها وتوازنها الذي عاشته عند نشأتها، وهذه حاجة أصبحت اليوم أكثر إلحاحا في ظل ما يجري في المنطقة.. أي أن وجود "حماس" أو "الجهاد الإسلامي"، بما يمثلانه من وسطية واعتدال، هو ضرورة وحاجة لـ "فتح" وقوى اليسار، كي نحمي الساحة الفلسطينية من تيارات التطرف.. والذي لا تعجبه "حماس" أو "الجهاد" اليوم فقد يجد بديلاً مرعبا غداً.

س: هل لك أن تضيء أكثر على فكرة "الجماعة الوطنية" ؟

كما قلت هذه الفكرة طرحتها الحركة في مرحلة مبكرة، وكانت الحركة الإسلامية بجميع تياراتها متأثرة بفكرة الأممية الإسلامية وأفكار أبو الأعلى المودودي وموقفه السلبي جدا من القومية، وسيد قطب وفكرة "جنسية المسلم عقيدته".. كانت الفكرة لدينا بسيطة وهي أنني مسلم وأعتز بانتمائي إلى الإسلام، لكن الانتماء إلى الدين أو الرابطة الدينية لا يلغي الروابطُ الأخرى، سواء القومية، أو الوطنية، أو الإنسانية، والرسول صلى الله عليه وسلم، وضع في المدينة دستوراً في المدينة هو المسمى "الصحيفة"، وأسس وفقه مجتمعاً متعدد الأديان والأنساب والأعراق، حيث الافتراق في الدين لم يمنع من بناء كيان سياسي أساسه "المواطنة"، لأهله حقوق وواجبات نص عليها الدستور. والمعروف أن دستور أو وثيقة المدينة عرَفت المسلمين بأنهم "أمة من دون الناس"، وهذه أمة العقيدة التي تحدث عنها سيد قطب. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها المجتمع العربي جماعة على أساس الإيمان، من دون النظرُ إلى أصولهم القبلية أو أنسابهم. لكن، في فقرات أخرى، تحدثت الوثيقة عن اليهود بأنهم "أمة مع المؤمنين" أي المسلمين، وهذه أمة المواطنة السياسية. وبشكل أوضح نصت الوثيقة على

أن "لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم". ولم تكن هذه التجربة النبوية في المدينة مجرد حدث صغير في تاريخ الإسلام، غير أن التيارات الإسلامية لم تتوقف عندها كثيرا إلا في الأعوام الأخيرة ، فقد كان لدى الإسلاميين ولا زال حساسية عالية تجاه فكرة بناء الأوطان على أساس الجغرافيا، كما هي في الدولة القومية الحديثة في أوروبا، وذلك بخلاف الإمبراطوريات التي قامت على أساس الدين أو العرق. حركة الجهاد قالت ببساطة إذا كان هناك جغرافيا - في نظر البعض - لا تصلح رابطا للعلاقة بين أهلها، فهذا إن كان ينطبق على أي بلد، فلا ينطبق على فلسطين، لأن الجغرافيا ضائعة مغصوبة، الأمر الذي يتطلب تأكيد الانتماء إليها، وليس التنكر لهذا الانتماء، أو اعتباره منافيا للدين، لأن الدين اعتبر الجهاد لتحرير الأرض المغصوبة من فروض الأعيان، وخصوصية فلسطين إسلاميا معروفة.

"طرحت حركة الجهاد فكرة الجماعة الوطنية، من أجل بناء حركة وطنية على قاعدة الانتماء إلى الوطن، بعيداً عن أي صراع أيديولوجي أوعقائدي، لأن الصراع الوحيد الذي له الأولوية هو الصراع مع الاحتلال"

وهنا لا بد من التنويه بأن مجتمعنا، أو شعبنا الفلسطيني، يخلوان من التعدد المذهبي والطائفي والعرقي، كما هو الأمر في بلاد أخرى كسورية ولبنان والعراق وغيرها. نعم، هناك مسلم ومسيحي، وهذا لم يكن قط يمثل مشكلة، لا في تاريخ فلسطين بالمجمل، ولا في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية. الانتماء الأيديولوجي الفصائلي والحزبي هو الذي أظهر مسألة التعددية الأيديولوجية والسياسية، ومن هنا طرحت حركة الجهاد فكرة الجماعة الوطنية، من أجل بناء حركة وطنية على قاعدة الانتماء إلى الوطن، بعيداً عن أي صراع أيديولوجي أوعقائدي، لأن الصراع الوحيد الذي له الأولوية هو الصراع مع الاحتلال.

س: هل تقترب حركة الجهاد بهذا الطرح من موقف حركة "فتح" بشأن مفهوم الجماعة الوطنية؟

هناك تشابه بيننا في القبول بالتعددية الفكرية، لكن داخل المجتمع، وليس داخل التنظيم الواحد. وهنا نلحظ الفارق في الطرح في نقطتين جوهريتين. أولا، على صعيد الجماعة الوطنية، أي المجتمع أو الدولة، فإن رؤية حركة "فتح" تستند إلى التجربة الأوروبية التي تشترط تلازم العلمانية والديمقراطية في بناء المجتمعات، بمعنى أن المجتمع كي يكون ديمقراطيا لا بد من أن يكون علمانيا، وهذه فكرة ليست من المسلمات حتى في التاريخ والواقع الأوروبي والغربي، اللذين لا يخلوان من نماذج أو تجارب "ديمقراطية مسيحية"؛ ثانيا، على صعيد التنظيم، وانطلاقا من رؤيتها الفكرية، فإن "فتح" تنظيم علماني يمكن أن يضم الإسلامي والقومي والماركسي، أما "الجهاد" فتنظيم عقائدي ينطلق من رؤية كونية إلى العالم هي الإسلام، فهو المرجعية، لكن ضمن رؤية مستنيرة فيها مساحة واسعة للمشترك الإنساني. ولهذا، نحن لسنا جزءاً مما يسميه الإعلام الغربي والصهيوني اليوم "الجهاد العالمي"، حتى لو كان اسمنا حركة الجهاد، بل إننا حركة مقاومة فلسطينية مرجعيتها الإسلام. ولذلك نقول إن معركتنا مع اليهود أو قتالنا لهم ليس لأنهم يهود، فنحن لا نقاتلهم لاختلافهم عنا في الدين، وإنما نقاتلهم على أرض فلسطين، لأنهم اغتصبوا أرضنا وأخرجونا من أرضنا بقوة السلاح والإرهاب. نحن مقاتلون من أجل الحرية، وليس من أجل فرض عقيدتنا أو ديننا على الآخرين، لأن تعاليم ديننا تقول: "لا إكراه في الدين".

II - غزة قبل العدوان

س: ماذا عن الحصار المتمادي، وتأثير سقوط الإخوان في مصر في الحصار وفي الحالة الشعبية في غزة، وإلى أي مدى عجلت حكومة التوافق الوطني في العدوان على غزة؟

أولا، بالنسبة إلى الحصار فإنه واحد من أبشع الجرائم الإنسانية بحق ما يقرب مليوني إنسان، وهو مستمر منذ ثمانية أعوام تقريبا. إسرائيل تحدث الناس عما تعرض له اليهود في غيتو وارسو في أوروبا، بينما قطاع غزة أكبر غيتو في التاريخ، بل أكبر سجن وقفص حديدي من الجهات كافة، والناس يتعرضون فيه للموت البطيء.

لكن الأخطر في مسألة الحصار أن أعوام الانقسام حولت الحصار من مسألة وطنية إلى شأن محلي يخص غزة، ويخص حماس تحديداً، كأن هذه الأخيرة هي المحاصرة، وننسى أن الذي يدفع الفاتورة هو الشعب الفلسطيني كله، أكان ذلك أهل غزة الضحية المباشرة للحصار، أو بقية الشعب، وخصوصاً بالنسبة إلى موقع غزة وطنيا وصلة القطاع بالضفة وموقعه ودوره في مستقبل القضية برمتها.

ومع أننا مل نبدأ الحرب في غزة، بل إن إسرائيل هي التي بدأت العدوان، إلا إنني أذكر بما فعلته إسرائيل في سنة 1967 ،عندما أغلق جمال عبد الناصر مضائق تيران في وجه السفن الإسرائيلية. إسرائيل اعتبرت ذلك حصاراً عليها، على الرغم من أن سماءها ومياه المتوسط كانتا مفتوحتين على العالم، فشنت حرب 1967. قطاع غزة، في المقابل، غير مسموح له أن يصرخ من وطأة الحصار وآلامه!

أما تأثير سقوط الإخوان في مصر في الحصار، فالمهم فيه هو نظرة مصر إلى "حماس" في غزة. فمصر اعتبرت "حماس" جزءاً من الإخوان المسلمين، وبالتالي ساءت العلاقة معها، وتراجعت عما كانت عليه حتى في زمن حكم مبارك، ومرة أخرى دفع الشعب الفلسطيني فاتورة هذه الأزمة بين "حماس" والحكم الجديد في مصر. ومن جانبنا، حاولنا نحن في "الجهاد" إقناع الإخوة في مصر بالتعامل مع "حماس" كحركة فلسطينية، وتحييد العامل الفلسطيني عن الشأن الداخلي المصري، لكن الشرخ بتقديرنا كان عميقا وأدى إلى حالة من عدم الثقة، ربما تحتاج إلى وقت أطول للتغلب عليها.

ومن جهة تعجيل حكومة التوافق في العدوان، فهذا صحيح، لكن كيف؟ هناك مفارقة آمل ألا يُساء فهمي فيها، وهي أن المصالحة وتأليف حكومة التوافق أنهيا سكوت إسرائيل عن ترسانة السلاح وقوة المقاومة في غزة. فإسرائيل كان همها الحصول على الأمن، وكانت تعتقد أن حكومة "حماس" ملتزمة بالتهدئة ومنضبطة والأمن مستتب.. لكن بعد توقيع المصالحة وتأليف حكومة الوفاق لم يعد لدى إسرائيل حاجة أمنية إلى

التهدئة مع غزة. وهذا ما قاله عاموس يادلين رئيس الاستخبارات العسكرية السابق في أول أيام الحرب. وهذه هي المفارقة، إما المصالحة وينتهي سكوت إسرائيل عن قدرات المقاومة العسكرية، وإما يبقى الانقسام. وأظن أن هذا عكس ما كانت تفكر فيه "حماس" عندما أقدمت على المصالحة، فباعتقادي أنها ظنت أن حكومة الوفاق ستشكل لها مظلة حماية وتمنع الضربة الإسرائيلية عن غزة، لكن من الواضح أنها عجلت بها، لأن حصول إسرائيل على الأمن هو المعيار الأول الذي تخضع له السياسة الإسرائيلية.

س: كيف قرأت "الجهاد" الواقع في ظل الحروب والهدنات التي أعقبتها، وما هي عالقة الاستعداد الميداني القتالي بالأفق السياسي الذي تسعون لتحقيقه؟

قراءة وضع قطاع غزة منذ انسحاب الجيش الإسرائيلي في خريف سنة 2005 مسألة معقدة جدا. فمع مرور الوقت، بدا واضحاً أن خروج إسرائيل من غزة كان يهدف إلى إخراجها من الصراع ومن الخريطة السياسية والجغرافية وطنيا، وجاء الانقسام كي يزيد الطين بله، والأمور تعقيداً. وكان هذا ثمرة التنافس على السلطة في سنة 2006 ،ولذلك نأت "الجهاد" بنفسها عن المشاركة فيها، خشية أن يتحول الصراع مع الاحتلال، إلى صراع داخلي على من يمسك بزمام السلطة تحت الاحتلال، وهذا ما وقع للأسف.

لقد كان خروج إسرائيل من القطاع إعادة انتشار أكثر منه انسحابا، إذ سحبت إسرائيل المدافع من داخل غزة ونصبتها على الحدود، وبقيت تحتفظ بالسيادة والسيطرة على حركة الناس والبضائع على المعابر،وسجل السكان، ومن يدخل ومن يخرج، تماما كأنه سجن كبير.

عسكريا، أرادت إسرائيل أن يصبح القطاع مثل لبنان بعد الانسحاب الإسرائيلي.. كأنه كيان مستقل، وليس جزءاً من فلسطين. ممنوع أن تخرج منه طلقة واحدة ضد إسرائيل مهما تفعل في الضفة أو القدس، وإذا حدث هذا، فغزة على موعد مع حرب

للردع، كما حدث في غزة ولبنان. وهذا تطور في نظرية الأمن الإسرائيلي، أي أنها عوضا عن التوسع الجغرافي، بعد اندحارها في لبنان وغزة، تلجأ إلى ردع الخصم باستخدام أعلى درجات القوة مثلما حدث في لبنان في تموز/ يوليو 2006 ،وغزة في سنوات 2009،و2012 و2014.

في ظل إدراكنا ذلك، كان علينا أن نعمل، وكان على المقاومة أن تعد نفسها لتحقيق هدفين: الأول، الدفاع عن القطاع وتحقيق قدر من الردع في مواجهة العدو، وقد استفادت في المقاومة من فترة التهدئة كثيرا في الإعداد؛ الثاني، تأكيد عدم إخراج القطاع من خريطة النضال الوطني الفلسطيني، أو فصله عن بقية الجسم الوطني. لكن تحقيق هذين الهدفين بنجاح، يرتب على الكل الفلسطيني عبئا كبيراً، بأن نحدد موقع غزة ودورها في المشروع الوطني، إن كان هناك مشروع وطني. هذا هو الذي يحدد الأفق السياسي، بمعنى: هل غزة محررة أم تحت الاحتلال؟ هل هي قاعدة للمقاومة، أم جزء من مشروع السلطة؟ هل مطلوب منها أن تدافع عن نفسها، أم إنها أصبحت قاعدة ومنطلقا لتحرير فلسطين كلها، أو لتحرير الضفة والقدس فقط، كما قالت بعض أصوات المقاومة في لحظة الابتهاج بالانتصار والإنجاز في غزة؟ هذه أسئلة كبيرة يجب أن يتوقف الجميع عندها، ويجيبون عنها، لأنها، كما قلت، هي التي تحدد أي أفق سياسي يمكن الوصول إليه.

III - غزة خلال الحرب

س: ما هي العوامل التي سمحت للمقاومة بأن تبدي قدرة على الصمود والمبادرة، في ظل تفوق الآلة العسكرية الإسرائيلية من جهة، والغطاء الإقليمي والدولي الذي حظي به العدوان في الأسبوعين الأولين من جهة ثانية؟

هذا موضوع كبير ويمكن أن يطول فيه الحديث، لكن سأكتفي بالإشارة إلى نقاط محددة: أولاً، الذي ساعد المقاومة على تحقيق هذا الإنجاز، بعد توفيق الله عز وجل، هو إرادة الشعب الفلسطيني، والتي هي من إرادة الله. العدو حاول إحداث

شرخ عميق بين المقاومةّ والشعب الذي هو حاضنة المقاومة، كما أن المقاومة هي درعه الحصين، فوجه ضربات وحشية مؤملة، وبالغ في القتل والتدمير وضرب البنية التحتية وجميع مظاهر الحياة فيّ غزة، كي يجعل الشعب يصرخ وينفض عن المقاومة، لكن هذا لم يحدث، وإنما بالعكس، ازداد الشعب التحاماً بالمقاومة ودفاعا عنها، حتى إن العدو واجه شعباً مقاوما، لا فصائل مقاومة!

ثانيا، الإعداد والتجهيز والإبداع الذي قامت به المقاومة مستفيدة من تجارب الحروب السابقة، بينما أظهر العدو أنه لم يستفد من تجاربه السابقة في معاركه مع المقاومة وكرر الأخطاء نفسها. وقد أثبتت المقاومة أن استعدادها كان شاملاً، سواءً في إعداد الإنسان المقاتل من ناحية بدنية، ونفسية روحية، وعسكرية مهنية، أو في تصنيع السلاح، أو في عقيدة القتال وأدواته وخططه، كي تتغلب على التفوق الساحق للعدو في الميزان العسكري أو تعدل منه. وقد نجحت، والحمد لله، نجاحاً باهرا في حدود المتوفر لها من إمكانيات.

ثالثاً، وهذا عامل مهم، وهو وحدة الموقف الفلسطيني والتحرك السياسي المشترك، من خلال وفد موحد في المفاوضات غير المباشرة، في القاهرة، لوقف العدوان، على الرغم من جميع التباينات بين مكونات الوفد. لقد كان لهذا الأمر أثر كبير في شعبنا ومقاومتنا من جهة، وفي العدو من جهة أخرى، إذ إنه كان يراهن على انقسامنا، بينما هو الذي كانً منقسماً مرتبكاً وحكومته وجبهته السياسية تعانيان تجاذباً واضطراباً.

س: كيف تقومون استراتيجيا الأنفاق ـ الصواريخ، وما هو مستقبل هذه الاستراتيجيا في المستقبل؟

بالنسبة إلى الأنفاق في هذه المعركة فإنها كانت مفاجأة الحرب. غزة في عقل العدو لا تملك جغرافيا قتالية، كما هي الحال في الجنوب اللبناني أو مناطق الضفة الغربية، أي أنه يعتبرها ساقطة عسكريا. لكن غزة فاجأت العالم بأنها صنعت الجغرافيا الملائمة للقتال، ونقلت المعركة إلى خلف خطوط العدو، ووفرت فرصة للالتحام معه من نقطة

الصفر. وإذا كانت الأنفاق هي مفاجأة المعركة، فالصواريخ هي ديمومتها التي أبقت أكثر من خمسة ملايين إسرائيلي قرب الملاجئ على مدار 51 ً يوما. المهم في الصواريخ في هذه الجولة، أنها، أو أغلبيتها، صُنعت بأيد فلسطينية في ظل الحصار وانقطاع طريق الإمداد، ووصلت إلى مدى لم يكن يتوقعه العدو بالمطلق، بل إنك، ولأول مرة في تاريخ الصراع، لا تجد مدينة أو بلدة ضرب بنار إسرائيلية لا تُستهدف أو تُضرب بنار المقاومة، كما أنها ظلت تنطلق طوال 51 ً يوما، فحتى الدقائق الأخيرة من دخول وقف النار، قصفت المقاومة - "سرايا القدس" و"القسام" - مدن تل أبيب والقدس وحيفا وغيرها. بالمجمل، كانت استراتيجيا المقاومة ناجحة، كما شهد العالم كله، لكن مستقبلها يتوقف على قدرة المقاومة على تعويض ما فقدته على الرغم من قلته، وهنا يجب ألا ننسى الحصار، ولا مسار الصراع أيضا، فأي منحى وأي اتجاه سيأخذ بعد هذه المحطة المهمة والمميزة؟

س: كيف تستطيع المقاومة التعامل مع صراعات المحاور الإقليمية عبر عدم السماح لها بتحويل فلسطين من قضية العرب المركزية إلى إحدى ساحات الصراع الإقليمي؟

لقد سعينا جاهدين لأن نُخرج معركة غزة، وأن نحمي شعبنا وقضيتنا، من لعبة المحاور والصراعات الإقليمية. ففلسطين كقضية، هي أسبق في المنطقة من هذه المحاور كافة، وهي بحاجة إلى الجميع، لكن الانفجار الذي تشهده المنطقة يجعلنا نستشعر الخطر ليس على صعيد ضياع فلسطين وطي صفحتها نهائياً ً فحسب، بل إن هناك خوفا وخطراً ُ حقيقين على أقطار أُخرى وبلاد أُخرى مهددة بالضياع والسقوط، فهناك أكثر من بلد عربي يقف في طابور الانتظار ليقع فريسة التقسيم والانهيار. ولذلك، نحن لدينا حرص شديد على إخراج فلسطين من قصة المحاور، وهذا يتطلب إجماعاً ً فلسطينياً، وبشكل أوضح، أن تتوافق قوى المقاومة والكل الفلسطيني على ذلك، ثم أن تتفهم الأطراف العربية والإقليمية ذلك، وتقدَر خصوصية فلسطين وظرفها.

س: مـاذا عـن الموقـف المـصري؟ ومـا تقويمكـم للعلاقـة المسـتقبلية المصريـة ـ الفلسـطينية؟

مـصر، منـذ بدايـة العـدوان عـلى غـزة، طرحـت نفسـها في دور الوسـيط. نحـن نقول إن مـصر، بحكـم تاريخهـا وموقعهـا وجـوار غـزة، يجـب ألا تكـون مجـرد وسـيط، بـل يُفترض أن تكـون طرفـا يقـف إلى جانـب الشـعب الفلسـطيني، لأن الحريـق في غزة ليس بجـوار البيت المـصري، وإنـما داخـل البيـت، وهـذا مـا أكدتـه مـصر يـوم دخـل الجيـش المـصري فلسـطين بعـد نكبـة 1948 ، وعليـه قامـت العقيـدة القتاليـة للجيـش المـصري، بـأن قطـاع غـزة جـزء مـن الأمـن القومـي المـصري، وهـذا مـا قالـه المشـير الطنطـاوي بعـد ثـورة 25 ينايـر، ولا أظـن أن هـذا محـل خـلاف في المؤسسـة السياسـية أو العسـكرية في مـصر.

باختصـار، نحـن نريـد دوراً أكـبر لمـصر يلائـم حجمهـا وثقلهـا، وأظـن أن المسـألة الفلسـطينية، باختصـار، وليـس قطـاع غـزة فقـط، هـي بوابـة اسـتعادة الـدور المـصري الـذي يليـق بمكانـة مـصر ووزنهـا الإقليمـي والـدولي.

س: كيف تقوَمون الأداءين العسكري والسياسي الإسرائيلي خلال الحرب؟

عسـكرياً، إسرائيـل لـم تحقـق شـيئا مـن أهدافهـا في هـذه الحـرب، سـواء تدمـير الصواريـخ، أو تحقيـق الأمـن، أو نـزع سـلاح المقاومـة، أو تصفيـة قياداتهـا، وإنـما كل مـا حققتـه هـو إحـداث أكـبر قـدر مـن الدمـار وقتـل النسـاء والأطفـال، الأمـر الـذي ألحـق بهـا خسـارة سياسـية فادحـة في العـالم. وهنـاك مقولـة فحواهـا:" إن القـوي إذا لم ينتـصر فهـو مهـزوم، والضعيـف إذا لم يهـزم فهـو منتـصر." نحـن نـدرك الاختـلال الكبـير في موازيـن القـوى بيننـا وبـين إسرائيـل، لكننـي أسـتطيع القـول، بـكل ثقـة، إن دولـة تملـك مـا تملـك مـن جـبروت القـوة، ولم تسـتطع هزيمـة غـزة، هـي دولـة قابلـة للهزيمـة النهائيـة أمـام أي دولـة تملـك نصـف أو ربـع قوتهـا العسـكرية. أنـا لا أنكـر أن إسرائيـل تسـتطيع أن تحتـل قطـاع

غـزة بالكامـل، لكنهـا لا تسـتطيع تحمَـل تكلفـة ذلـك، وعـدم القـدرة عـلى تحمـل التكلفـة هـو جـزء مـن الميـزان العسـكري. إسرائيـل لا تتحمـل الهزيمـة، ومـا حـل بجيشـها الـذي خسـر المعركـة البريـة أمـام المقاومـة فضـح قـوة وسـمعة هـذا الجيـش ووحـدات النخبـة فيـه. فمـرة تلـو أُخـرى، تكـسر المقاومـة في فلسـطين ولبنـان. مقولـة "الجيـش الـذي لا يُقهـر"

أمـا عـلى الصعيـد السـياسي، فلـن أخـوض في التفاصيـل والتداعيـات عـلى مسـتوى تركيبـة الحكومـة وعلاقـات الأحـزاب، وإنـما أذهـب إلى الاسـتراتيجي فأقـول: إن هـذه الحـرب سـتُحدث نوعـاً مـن كـي الوعـي لـدى الجمهـور الإسرائيـلي.. بـل يجـب أن تُدخـل إسرائيـل كلهـا في "حسـاب مـع النفـس" تمامـا كـما حـدث بعـد حـرب تشريـن الأول / أكتوبـر 1973 . لـو كان هنـاك قـادة في إسرائيـل بـوزن بـن-غوريـون وبيغـن ورابـين وشـارون، فإنهـا سـتدخل في مراجعـة شـاملة، عـلى قاعـدة أن عـدم النـصر في معركـة بهـذا المسـتوى هـو مقدمـة للهزيمـة. وهـذه الحـرب سـتطرح أسـئلة كـبرى عـلى كل عقـل إسرائيـلي، لأن إسرائيـل تقـف الآن في أخطـر مفـترق طـرق في تاريخهـا: لا هـي قـادرة عـلى تحقيـق انتصـارات في حروبهـا مـع المقاومـة، ولا هـي قـادرة عـلى تحقيـق السـلام في مسـيرة التسـوية.

بتقديـري، لقـد تعـرَض المجتمـع الإسرائيـلي لهـزة تجعلـه يفكـر مجـدداً في المصـير : مـاذا لـو كانـت الحـرب مـع مـصر؟ أو مـصر وسـورية؟ أو سـورية ولبنـان وغـزة ومـن خلفهـم إيـران؟ مـا حـدث في غـزة بتقديـري شيء كبـير وأكـبر مَـا نتصـور.

س: في ضـوء تجربـة غـزة، والوحـدة الوطنيـة في المعركتـين العسـكرية والتفاوضية،هل يمكـن البنـاء عـلى تجربـة الوفـد المفـاوض الموحـد في تأسـيس ممارسـة ملموسـة للوحـدة الوطنيـة؟

للأسـف، لا يمكـن البنـاء عـلى تجربـة الوفـد، لذلـك قلـت هـو تحـرك سـياسي، ولـه مهمـة محـددة في فـترة محـددة. وعـلى الرغـم مـن أزمـة ومـأزق الوضـع الفلسـطيني برمتـه،

فنحـن أمـام مشـكلة العلاقـة بـين "حمـاس" و"فتـح". الآن انتهـت المعركـة، لكـن الحـرب بنظـري لم تنتـه، وإنـما ستسـتمر ـ كـما قلـت في مناسـبة سـابقة ـ بـأدوات وأشـكال مختلفـة. إن مواجهـة تحديـات وتهديـدات مـا بعـد معركـة غـزة تحتـاج، في نظرنـا، إلى أمريـن: الأول، اسـتكمال المصالحـة بـين "فتـح" و"حمـاس"، بملفاتهـا العالقـة كافـة؛ الثـاني، عقـد الإطـار القيـادي المؤقـت لمنظمـة التحريـر، والـذي تحـضر اجتماعاتـه "حمـاس" و"الجهـاد"، لبحـث تحديـات المرحلـة، والاتفـاق عـلى اسـتراتيجيا وطنيـة شـاملة تلحـظ انسـداد أفـق عمليـة التسـوية ووصـول خيـار المفاوضـات إلى طريـق مسـدودة، وانفتـاح أفـق جديـد أمـام الشـعب الفلسـطيني بالإنجـاز الـذي حققتـه المقاومـة في غـزة.

IV- ما بعد العدوان

س: هـل نسـتطيع أن نضـع قائمـة موجـزة بالإنجـازات والخسـائر؟ ومـاذا عـن مسـتقبل غـزة والترابـط بينهـا وبـين الضفـة؟ وكيـف يمكـن توظيـف معركـة المقاومـة في غـزة في سـياق النضـال العـام مـن أجـل الحريـة والاسـتقلال؟

هـذا سـؤال مهـم، وأود أن أشـير في بدايـة الإجابـة إلى نقطتـين: الأولى، أننـا يجـب ألا نقـع في فـخ تضخيـم الإنجـاز أو التهويـن منـه، وأن يكـون موقفنـا متوازنـاً؛ الثانيـة، ألا نقيـس إنجازنـا بحجـم مـا ألحقنـاه مـن ضرر بالعـدو فقـط، وإن كان هـذا مـن حقنـا، وهـو جـزء مـن الصـورة، لكـن بقيـة الصـورة أن نـرى مـا لحـق بنـا مـن ضرر، مـن دون تهويـل أو تهويـن أيضـا.

في الإنجـازات، أهـم إنجـاز هـو الصمـود وعـدم قـدرة العـدو عـلى كـسر إرادة الشـعب والمقاومـة. الأمـر الثـاني، أن هـذه المعركـة أعـادت الاعتبـار إلى قضيـة فلسـطين، بـل إنهـا أكسـبت شـعبنا احـترام العـالم قبـل تعاطفـه؛ انظـر إلى موقـف دول أمـيركا اللاتينيـة التـي وصفهـا البعـض بالـدول العربيـة في هـذه الحـرب! وفي ظـل مـا يجـري في المنطقـة كان الحديـث عـن فلسـطين نوعـا مـن الـترف لـدى شـعوب ودول تعيـش حالـة صراع داخـلي.

غـزة وملحمتهـا أعادتـا فـرض فلسـطين عـلى أجنـدات السياسـة والاهتـمام في المنطقـة والعالم. والإنجـاز الآخـر هـو مشـهد التوحـد في التحـرك السـياسي والوفـد الموحـد، بغـض النظـر عـن أي ملاحظـات. وهنـاك إنجـاز فشـل العـدو، ومـا صنعتـه المقاومـة مـن ميـزان للـردع معـه، ومـا أوقعتـه بـه مـن خسـائر بشريـة، ماديـة ومعنويـة، واقتصاديـة وسياسـية، وهـذا كلـه يصـب في طاحونـة الإنجـاز الفلسـطيني. وهنـاك اتفـاق التهدئـة نفسـه، فقـد تـم تثبيـت اتفاق 2012 الـذي كان العـدو يتهـرب مـن جميـع بنـوده، فقـد كان يريـد الهـدوء في مقابـل الهـدوء فقـط، عـلى أن يبقـى الحصـار بتعبيراتـه كافـة. أُضيـف إلى ذلـك مسـألة إعـادة الإعـمار وحريـة الحركـة والصيـد في البحـر لمسـافة 6 أميـال بحريـة وصـولاً إلى 12 ميـلاً. . أمَـا معـبر رفـح، فظـل عـلى مـا هـو عليـه ليعالـج مصريـاً ـ فلسـطينياً، لكـن ليـس ثمـة إلى ضمانـة حقيقيـة لإلزام العـدو بهـذه الأمـور. وتبقـى مسـألة قطـاع غـزة أكـبر مـن هـذه التفاصيـل، عـلى الرغـم مـن أهميتهـا لحيـاة النـاس وقدرتهـم عـلى الصمـود والمواجهـة.

مـن ناحيـة الخسـائر، نعـم هنـاك خسـائر والتكلفـة عاليـة، سـواء بالشـهداء والجرحى، أو البيـوت المهدمـة، أو البنيـة التحتيـة المدمـرة، أو بـكل مـا حلـق بغـزة مـن ضرر أو دمـار.. هـذا يجـب ألا يُنسـى أو نغفـل عنـه بـأي حـال مـن الأحـوال. ومعالجـة آثـار الحـرب يجـب أن تتصـدر سـلم أولوياتنـا الآن، ّ وإلا فلـو أدرنـا ظهرنـا، كفصائـل فلسـطينية وسـلطة ومنظمـة، للشـعب الـذي احتضـن المقاومـة ومكَنهـا مـن الصمـود والقتـال طـوال 51 يومـا، فسـيقع الـشرخ بـين الشـعب والمقاومـة وتحقـق إسرائيـل هدفهـا، ولـن تسـتطيع المقاومـة الاسـتمرار مـن دون حضـن الشـعب .

أمـا عـن مسـتقبل غـزة والترابـط بينهـا وبـين الضفـة، فهـذا يؤكـده ويحققـه أن تنتقـل تجربـة المقاومـة إلى الضفـة، وكـما قلـت سـابقاً، وبلغـة النـاس: "أهـل الضفـة ليسـوا أقـل مراجـل مـن أهـل غـزة"، وتجربـة غـزة تفتـح أمامنـا أفقـاً جديـداً، وظـروف النجـاح بنظـري متوفـرة أكثـر مـن غـزة.. لكـن القـدرة عـلى توظيـف هـذه المعركـة في سـياق النضـال الوطنـي

العام، تظل مرهونة بقدرتنا على التوافق على مهمات محددة في هذه المرحلة، مثل إعادة اللحمة الفلسطينية واستكمال المصالحة، والعمل معاً على فك الحصار نهائيا عن قطاع غزة، والبدء بإعادة الإعمار، والتصدي للاستيطان في الضفة وتهويد القدس، وإعادة بناء منظمة التحرير كي تستوعب الجميع، والعمل على صوغ استراتيجيا وطنية شاملة.

س: ما هو دور حركة الجهاد كجسر وحدوي بين مختلف الفصائل؟ هل ترون أنكم قادرون على الدفع في اتجاه بناء وحدة الحركة الوطنية المقاومة، فأنتم تتمتعون بعلاقات جيدة مع "فتح" و"حماس"، كما أنكم خارج لعبة تقاسم السلطة؟ وكيف تنظرون إلى مستقبل موقعكم في منظمة التحرير الفلسطينية؟

لقد أشرت إلى بعض ما يميز "الجهاد" من غيرها، وخصوصا في رؤيتها إلى العلاقات الداخلية، لكن قدرتنا على النجاح في القيام بدور جسر وحدوي تتوقف على رغبة الطرفين، "حماس" و"فتح"، في إنجاح جهودنا، أو جهود غيرنا في ذلك. وهنا أقول، إن النظر إلى أي فصيل في الساحة الفلسطينية من طرف أي فصيل آخر، يتم من وجهين أو زاويتين: وجه المنافس، ووجه الشريك. فإذا اعتبرك أي طرف منافساً له للأسف لن يكون حريصا على إنجاح أي دور لك، حتى لو كان في ذلك مصلحة له، ومصلحة للكل الفلسطيني، ونحن لدينا تجربة في ذلك. وللأسف إن النزعة الفصائلية والحزبية هي التي تحول، مع أسباب أُخرى، دون تحقيق شراكة حقيقية بين الجميع. والمؤسف أكثر أن الشراكة فلسطينيا، تعني المحاصصة، ولا تعني التعايش والتفاهم والتكامل وتوزيع الأدوار، أو المشاركة في صنع القرار. أما عن المنظمة ودورنا فيها، فالمهم المبادرة، وللأسف، لا نشعر بأن هناك نية أو جدية لدى الإخوة في "فتح" أو الأخ أبو مازن في فتح ملف منظمة التحرير والعمل بجد على إعادة بنائها على أسس جديدة، بحيث تستوعب جميع القوى، وتكون فعلاً إطاراً للشعب الفلسطيني كله.

س: البعض يضعكم في محور الممانعة، استناداً إلى علاقاتكم الجيدة بإيران، فهل أنتم جزء من محور إقليمي؟ وما هي انعكاسات ذلك على الوضع الفلسطيني؟ أم إنكم تبحثون عن صيغة تعود فيها فلسطين هي البوصلة العربية والإقليمية؟

بالنسبة إلينا كفلسطينيين، فقد كنا تاريخياً، ولا نزال، نبحث عن حاضنة لقضيتنا باعتبار أن فلسطين هي قضية العرب والمسلمين، وأن إسرائيل خطر على الأمة العربية والإسلامية كافة. الآخرون هم الذين ابتدعوا لغة المحاور وفرضوها في السياسة العربية. وأقول، بكل صراحة، إن الخلافات والنزاعات العربية والإقليمية بين هذا الطرف أو ذاك، أكثر مما هي بين أي واحد منهم وفلسطين، وخذ السعودية وقطر مثلاً وكلاهما أعضاء مجلس التعاون الخليجي!

أعود وأقول: نحن ننظر إلى الجميع بمنظور الحاجة إلى من يحتضن قضية فلسطين، ويدعم شعبها وحقوقه، ويدعم مقاومته المشروعة. تاريخيا، هناك عدة دول عربية قامت بهذا الدور بدرجات متفاوتة. وفي العقدين الماضيين، تصدى لهذا الدور سورية وإيران ومعهما حزب الله، وجميعهم كانوا مع فلسطين، واحتضنوا المقاومة ودعموها بكل ما يستطيعون، فسُمَوا، ومعهم "حماس" و"الجهاد" وفصائل أخرى، محور المقاومة والممانعة، تمييزاً من جهات أُخرى عُرفت بمحور الاعتدال، وكان رهانها وخيارها مشروع التسوية في المنطقة، والذي عبرت عنه عربيا المبادرة العربية. اليوم مر على المبادرة العربية 12 ً عاما، وإسرائيل لا تقبل بها، وتضع كل يوم شروطا وعراقيل جديدة في وجه رهان السلام الموهوم.

نحن فعلا ّنريد أن تكون فلسطين هي البوصلة، ونحن نمد أيدينا إلى الجميع كي نوفر الحاضنة للقضية والمقاومة، ولسنا جزءا من أي اصطفاف إلى جانب أي قضية أخرى غير فلسطين،

وإن كنا ندرك، للأسف، أن واقع كثير من الأنظمة العربية يقول لنا، بصراحة، "فلسطين ليست قضيتنا". وأكثر من ذلك، يتحدث رئيس حكومة العدو عن "حلف عربي - إسرائيلي" ضد المقاومة، ولا أحد يرد عليه!

س: كيف سيعاد بناء ما دُمر في غزة؟ وما هو أفق العلاقة بالشعب الذي قدم تضحيات هائلة؟

أشرت إلى ذلك من قبل، لكن أعود وأقول بشكل أوضح: مسؤولية إعادة إعمار غزة هي مسؤولية العالم كله. غزة بمفردها بحاجة إلى مشروع مارشال جديد! وقد قلت سابقا وأكرر، شعبنا ربما يسامح من لم يمد له يد العون ليدافع عن نفسه في وجه العدوان، لكنه لن يسامح من يملك القدرة والإمكانات ولا يمد له يد العون لإعادة بناء ما دمرته الحرب.

وفي الآليات، لا بد من أن يكون هناك مؤتمرات دولية وإقليمية لحشد وتعبئة الموارد وتوفير التمويل اللازم، ولا بد من أن تُفتح المعابر لإدخال مواد ومستلزمات الإعمار. ولا مانع لدينا، بل من الطبيعي، أن تتولى السلطة الفلسطينية هذه المهمة، على أن يكون هناك هيئة وطنية يكون لها دور رقابي تضمن نزاهة وعدالة سير هذه العملية بعيدا عن الاستئثار أو الاستحواذ الجهوي من هذا الطرف أو ذاك، ولحماية العملية من الفساد. وإذا لم يحدث هذا كله، لا سمح الله، وتُرك الشعب الفلسطيني في العراء بلا مأوى، فهذا يعني أن المسؤولين عن ذلك يهدون إسرائيل نصراً مجانياً، ويحققون هدفها بإحداث وقيعة بين الشعب المضحَي والمقاومة.

س: كيف تقوَمون الهبة الشعبية في الضفة والقدس خلال العدوان، وما هو أفق ديمومتها،وهل يمكن الافتراض أن المعركة المقبلة مع الاحتلال ستكون في غزة والضفة في الوقت نفسه؟

أحد أهداف العدو وإعلامه هو التركيز على "حماس"، وعلى أنها حرب ضد "حماس" وليست ضد الشعب الفلسطيني كله، هو تحييد الضفة وبالذات حركة"فتح". لكن الضفة تحركت، وفوتت على العدو فرصة الحصول على مشهد فلسطيني تُذبح فيه غزة، وتكون الضفة لا مبالية، لكن التحرك الأهم كان للقدس وشباب القدس الذين فاجأوا العدو وأثلجوا صدورنا. وبالنسبة إلى دور الضفة في أي معركة، أقول بصراحة، إن غزة، على الرغم من معاناتها كلها، أصبحت في متناول اليد، لكن المعضلة هي الضفة، والمعركة الأهم يجب أن تكون على الضفة وفيها، غير أن الكرة ما زالت في يد السلطة وحركة "فتح". متى يعلن أبو مازن اليأس من الرهان على التسوية والمفاوضات؟! متى يدرك أن مشروع السلطة تحول إلى مظلة لاحتلال المريح لإسرائيل؟!

مشروع التسوية هدفه المعلن إقامة دولتين، والإسرائيليون أقاموهما فعلاً، الأولى لهم، وهي إسرائيل في 78 % من أراضي فلسطين المحتلة منذ سنة 1948 ، والثانية لهم أيضا، وهي للمستوطنين في الضفة الغربية!

كل يوم يمر يتوسع الاستيطان ويتمدد، ولن يبقى لنا أي متسع لا لدولة ولا لخيمة! والذي يربط قيام الدولة في حدود 67 باعتراف فلسطين "بالدولة اليهودية"، يريد أن يصادر تاريخنا وروايتنا للصراع، بعد أن صادر واحتل أرضنا، ويفتح الباب أمام مزيد من يهود العالم كي يهاجروا إلى فلسطين.

اليوم بعد حرب غزة، نحن أمام فرصة تاريخية. لقد أثبتت المقاومة مجدداً أن إسرائيل ليست مكاناً آمناً ليهود العالم، وإنما هي آخر مكان يصلح لذلك، والمهم

أن نعلـن ذلـك ونرفـع الغطـاء عـن الاحتـلال. مـشروع السـلطة في الضفـة يكـرر تجربـة الانتـداب البريطـاني الـذي وفَـر مظلـة لقيـام "إسرائيـل الأولى" عـلى أرض فلسـطين، وهـذا المـشروع بالتنسـيق الأمنـي يوفـر مظلـة للاسـتيطان، ويمنـع المقاومـة، ويسـاهم في إقامـة "إسرائيـل الثانيـة"في الضفـة، دولـة المسـتوطنين لا الدولـة الفلسـطينية. هذا ما يجـب أن ندركه كفلسـطينيين، فنسـارع إلى أخـذ زمـام المبـادرة كـي تشـق المقاومـة طريقهـا في الضفـة، جنبا إلى جنـب مـع غـزة في مسـيرة كفاحيـة واحـدة، وشـعبنا قـادر عـلى هزيمـة الاحتـلال ودحـره بـلا قيـد أو شرط.

V - التطرف.. "القاعدة" و"داعش"

س: في ظـل الصراعـات الطائفيـة والمذهبيـة الممتـدة، بـدت "القاعـدة" وتنظيـم "الدولـة الإسـلامية" ("داعـش") كأنهـما تحتـلان المشـهد السـياسي الإسـلامي، مـا هـو بديلكـم لإخـراج المنطقـة مـن هـذا الجحيـم؟

مـا يجـري في المنطقـة أكـبر مـن قـدرة أي طـرف، وخصوصـاً إذا كان متواضعـا بحجـم حركـة الجهـاد، عـلى أن يخـرج المنطقـة مـن هـذا الجحيـم أو يحميهـا مـن حمـم البركان. عـلى الكبـار الذيـن أخرجـوا العفريـت مـن القمقـم أن يعيـدوا حسـاباتهم، ويهرعـوا لإنقـاذ ما يمكـن إنقـاذه، قبـل أن يعـم الطوفـان الجميـع.

للأسـف، المشـكلة لا يمكـن اختزالهـا في عناويـن مثـل "داعـش" أو "القاعـدة"، فالـشرق كلـه ينفجـر، ولـذا، فـإن كل شيء بحاجـة إلى مراجعـة: علاقـات الشـعوب بالحكومـات؛ موقـع إسرائيـل ووجودهـا؛ علاقـات القـوى السياسـية والمكونـات الاجتماعيـة ونظـرة كل طـرف إلى الآخـر داخـل مجتمعاتنـا؛ مشـاريعنا؛ براجمنـا؛ مناهجنـا التربويـة؛ منابعنـا الثقافيـة. هنـاك خلـل كبـير في كل شيء أدى إلى هـذا الانفجـار، كأن كل شيء كان مركبـا على غـش وخـداع. ومـن أكثـر المشـاهد إيلامـا لي في أثنـاء حـرب غـزة أني اسـتمعت إلى تقريـر

في القناة العاشرة الإسرائيلية عن "داعش"، عرض كل ما يخطر في بالكم، وفي النهاية ختم التقرير بالقول: "إنهم (داعش) يقولون إن ما يفعلونه هو ما كان يفعله النبي محمد" صلى الله عليه وسلم " لقد كان وقع هذه العبارة علي شخصيا لا يقل عن وقع القنابل والصواريخ التي كانت تلقيها إسرائيل علي رؤوس أهلنا وشعبنا في غزة. عندها تذكرت عالم الاجتماع الأميركي مايكل هارت الذي ألف كتابا عن أكثر 100 شخصية في التاريخ أثرت في الإنسانية، ووضع النبي محمد صلى الله ً عليه وسلم على رأس تلك القائمة، وقال، بلغته طبعا ، إنه أسس دينا ً عالميا ودولة، فكان نبيا ً ورجل دولة، وأضاف أن الإسالم انتشر في العالم كله وحقق خلال ثمانين عاما، ما لم تحققه الإمبراطورية الرومانية في 800 عام. وتحدث عن الحضارة الإسلامية التي قادت العالم 1000 عام من القرن السابع الميلادي إلى القرن الثامن عشر. هل كان هذا الانتشار الحضاري والريادة في الإنسانية بمثل ما نشاهده ونسمعه اليوم؟ لمواجهة هذا الطوفان، نحن بحاجة إلى عملية إصلاح شاملة تبدأ بنظرة الحكومات والدول والنخب إلى الإسلام ودوره في الحياة. إن التيارات المتطرفة تعتقد أن الحكومات والنخب العلمانية تحارب الإسلام، وأنها هي هبت لنصرته. وأيضا يجب تغيير نظرة الدول والحكومات إلى الإنسان، وتصحيح العلاقة بين الشعوب والحكومات لإنهاء الاستبداد وبسط الحريات وتحقيق العدالة، فغياب الحريات والعدالة يولد الانفجار. وكذلك تصحيح العلاقة بين مكونات وأبناء الأمة كافة، من مختلف الديانات والمذاهب والأعراق، واعتماد "المواطنة" قاعدة للبناء الاجتماعي، ليس استنساخا عن الآخر، وإنما بشكل يراعي خصوصية مجتمعاتنا، ويستفيد من التجربة التاريخية للأمة التي قامت على التعايش والتسامح بين الجميع.

قراءة في كتاب«أفول الغرب» .. لحسن أوريد

بقلم:د. إدريس لكريني
مدير مُختبر الدراسات الدوليّة في جامعة القاضي عياض - المغرب

(صدر حديثا للمفكر المغربي حسن أوريد كتاب بعنوان «أفول الغرب» يتضمن تأملات نقدية في واقع الأزمة التي يعيشها الغرب حاليا، محذرا من تداعياتها على راهن ومستقبل العالم العربي، بالنظر إلى ارتباط نخبه وبنياته السياسية والاقتصادية بالمركز الغربي. والفكرة الناظمة للكتاب الصادر عن المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت) في ٢٠٧ صفحة، هي أن الأزمات المستعرة في العالم العربي إنما هي إلى حد ما انعكاس لأزمة الغرب الذي يبدو أنه فقد البوصلة وروح القيادة والانسجام بين سياسات القوى المؤثرة فيه).

عل الرّغم من مرور أكثر من عقدَين ونصف العقد على التبشير الأميركيّ ببروز نِظام دوليّ جديد، ما زالت المُناقشات الفكريّة والفلسفيّة جارية بصدد حقيقة هذا النظام المزعوم ومآلاته. وفي هذا السياق يندرج المؤلَّف الذي أصدره المغربيّ د. حسن أوريد والموسوم بـ «أفول الغرب».

ينطوي المؤلَّف على قدرٍ كبير من الأهميّة بالنظر إلى التساؤلات العميقة التي يطرحها الباحث بصدد حقيقة هذا النظام الذي برز في أعقاب سقوط جدار برلين ونهاية الحرب الباردة، ومظاهره وتداعياته ومآلاته، فضلاً عن رصْد مكانة العرب والمُسلمين من ضمن هذا النظام. كما يتميَّز المؤلَّف بالكثافة في المُعطيات، فقد اعتمد الكاتِب مُقاربَةً شموليّة للموضوع، موظِّفاً في ذلك الجوانب النظريّة والتاريخيّة وعِلم السياسة والعلاقات الدوليّة، فضلاً عن استحضار مُعطياتٍ اقتصاديّة.

أوّلاً – الغرب.. بين الريادة المُتجدّدة وتحدّيات المُستقبل

في أعقاب انهيار المُعسكَر الشرقيّ ونهاية الحرب الباردة، سعت الولايات المتّحدة الأميركيّة مدعومةً بحُلفائها إلى استثمار هذه الأوضاع والتحوّلات في إرساء علاقات

دوليّة مبنيَّة على توازنات ومَفاهيم جديدة تنسجم ومصالحها، حيث برزت مقولات سياسيّة و»أكاديميّة» تُفسِّر هذه المُتغيّرات وتتنبّأ بطبيعة الصراعات العالميّة المُرتقَبة؛ من قبيل مقولة «نهاية التاريخ» لـ «فرانسيس فوكوياما» و «صدام الحضارات» لـ «صامويل هانتنغتون» التي اختزلت الصراعات المُقبلة في الجوانب الدينيّة والثقافيّة.

تعدّدت التعريفات الواردة بشان النظام الدولي، كما تنوّعت أيضاً واختلفت بصدد حقيقته، ويَعتبر الباحثُ أنّ الأمرَ ما هو إلّا «كناية لانتصار الولايات المتّحدة وعنوان سؤددها، وتورية لانهزام الاتّحاد السوفييتي». كما يعتبر أنّ «قاطرة العالَم ظلّت لأكثر من أربعة قرون مقترنة بالغرب، فهو لم يصل إلى هذا المستوى الحضاري من دون صراعات مع حضارات كانت مشعّة، قبل أن يزاحمها ويدفع بها نحو ردود الفعل، وبعدها إلى الانزواء».

إنّ بِناء نِظام دوليّ كما بشّر به الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في بداية التسعينيّات من القرن الماضي عشيّة إرسال قوّاتٍ أميركيّة إلى الشرق الأوسط لمُواجَهة غزو العراق لدولة الكويت، لا يخلو في عالَم اليوم من تحدّيات وإشكالات، ويسرد الكاتب مجموعة من المؤشّرات في هذا الخصوص.

على المستوى التنظيري، يتوقّف المؤلِّف عند أهمّ المقولات التي أفرزتها تحوّلات ما بعد الحرب الباردة، كما هو الأمر بالنسبة إلى نهاية التاريخ، ليؤكِّد على هشاشتها، بالنّظر إلى أنّ عهد الإيديولوجيّات لم ينقضِ بعد.. ويشير إلى أنّ التطوّرات التي شهدها الغرب، رفعت من «قيمة الخبير في تدبير مؤسّسات ضخمة، على حساب العالِم والمفكّر والمثقّف، ليترسَّخ هذا الانزياح مع اللّيبراليّة الجديدة، ويُصبح العالَم العصري يقوم على لبنة التكنوقراطي كحجر الزاوية».

وعلى المستوى الاقتصادي، يرى الباحث أنّ تحرير المُبادلات التجاريّة أفضى إلى تهديد قطاعات بأكملها في كثير من البلدان وإلى تداعيات كارثيّة، نتيجة الوصفات الجاهزة.. فيما كرَّست المُبادلات التي أفرزتها العَولمة أساليب جديدة لاستغلال الضعفاء من قِبَلِ الأقوياء.

أمّا في ما يتّصل بالمستوى السياسي، فيتوقّف الباحث عند عيوب الديمقراطيّة، حيث «يظلّ جانب المال وعلاقته بالسّياسة محجوباً ومضروباً بسورٍ صفيق من الصمت

المُتآمِر» .. كما يُبرِز أيضاً الأدوار المُنحرِفة لوسائل الإعلام في العبث بهذه الديمقراطيّة.
وفي الجانب الاستراتيجي، يورِد الكاتِب الكثير من الوقائع والمؤشّرات التي تُبرِز أنّ التوجّهات الاستعماريّة للقوى الدوليّة الكبرى ما زالت قائمة، بخاصّة أنّ الكثير من النُّخب الحاكِمة لم تتحرّر بعد من ميراث الاحتلال والهَيمنة وتبعاتها.
وعلى مستوى العلاقة بشعارات العمل الإنساني التي راجت بشكل واسع مع بداية الحديث عن النظام الدولي الجديد، نبَّه الكاتِب إلى أنّ عمليّة إعادة الأمل في الصومال تحوّلت إلى مآسٍ حقيقيّة، فيما حذَّر أيضاً من أنّ الإنسان إذا لم يقبل بحدودٍ لمجال تدخّله، فإنّه يحوم حول ذاته ليُجهِز عليها، وخصوصاً أنّ الإنسان في عالَم اليوم أصبح مُحاطاً بسَيلٍ جارف من المعلومات، من دون القدرة على التمييز بين الصالح والطالح منها.. مع انشغال شبكات الإنترنت بهاجس الإعلان، كبديل لمجّانيّة المعلومات.
لا يخفي الباحث تشاؤمه بصدد مستقبل هذا النظام، فوصول فلاديمير بوتين إلى الكرملين عام ٢٠١٢، يشكّل - في اعتقاده - مُعطىً جديداً في مسرح العلاقات الدوليّة، بما يحيل إليه الأمر من رغبة في الثأر لما تعرَّضت له روسيا من إهانةٍ على الساحة الدوليّة على امتداد سنواتٍ خلت، ما يعني عَودةً إلى الحرب الباردة في صيغة جديدة؛ بل يذهب أكثر من ذلك عندما يؤكِّد أنّ ثمّة إرهاصات عميقة لعالَم جديد لم تتحدّد مَعالمُه بعد، بخاصّة أنّ الغرب باعتقاده يمرّ بأزمة وجوديّة قد يتأثّر العالَم بمُجرياتها.
إنّ الحذَر الذي يُبديه الباحث بصدد مُستقبل النظام الدولي الرّاهن الذي فرضته الولايات المتّحدة من جانبٍ واحد، يجد مُبرّراته في عددٍ من المؤشّرات، ففضلاً عمّا سرده الباحث من مُعطيات، هناك الكثير من القوى الدوليّة التي بدأت تُنافِس بشكلٍ جدّي مَكانة الولايات المتّحدة، فيما تزايدَ حضور القوى الدوليّة الصاعدة، علاوة على بروز خلافات واضحة بصدد عدد من القضايا والأولويّات الإقليميّة والدوليّة بين الولايات المتّحدة من جهة، وبعض الدول الأوروبيّة كألمانيا وفرنسا من جهة أخرى.

ثانياً – العرب والمُسلمون ومُتغيّرات النّظام الدوليّ

في الوقت الذي شهد فيه الكثير من الدول تحوّلات اقتصاديّة وسياسيّة كبرى انسجاماً مع الديناميّة الدوليّة الجديدة التي أفرزتها نهاية القطبيّة الثنائيّة وصراعات الحرب الباردة في كلٍّ من أميركا اللّاتينيّة وأوروبا الشرقيّة وآسيا وإفريقيا، ظلّت المنطقة العربيّة من أكثر مناطق العالَم التي تفاعلت بصورة سلبيّة مع هذه المتغيّرات، الأمر الذي يعكسه حجم الأزمات والنزاعات التي عمّت المنطقة منذ تسعينيّات القرن الماضي (في الصومال والعراق والسودان وليبيا والأراضي العربيّة المحتلّة..).. فالعرب في نظر الكاتِب لم يستوعبوا التحوّلات الكبرى التي شهدها العالَم أخيراً، ويسوق مثالاً على ذلك، سقوط الرئيس العراقي الأسبق صدّام حسين في الفخّ بسبب «عدم الانتباه إلى قواعد اللّعبة التي تغيّرت». ولم تفلح الولايات المتّحدة في إرساء ديمقراطيّة داخل العراق، ومن ثمّ في منطقة الشرق الأوسط، بل إنّ الوصفات التي أخذت طابع الطائفيّة والمُحاصَصة، كانت تغذّي التوتّر وتحمل بذور العنف الذي سينتهي بداعش. فيما تحوَّل العديد من أقطار المنطقة إلى دول فاشلة أو عاجزة أو دخلت في حروبٍ أهليّة.. مع ظهور قوى جديدة بمرجعيّات جديدة تباينت بين جماعات مسلَّحة ومُتطرِّفة، وخطابات عرقيّة وانتماءات جهويّة ودعوات للانفصال.

ويعرّج الكاتِب على الحراك الذي شهدته المنطقة، سواء في الشرق الأوسط أم في بلدان المغرب (شمال إفريقيا) الذي اعتبره يتهدّد المنظومات القائمة، ويضيف أنّ الأسوأ سيأتي، إذا لم يستوعب العالَم العربي التحوّل الجاري في العالَم، ولم يوظِّف إيجابيّاً الديناميّات بداخله.

يُنبّه الكاتب إلى أنّ العلاقة المُلتبِسة بين الغرب والعالَم الإسلامي تمتدّ لقرون عدّة، عكستها جملة من الأحداث والمحطّات التاريخيّة، وهو ما أعطى للحرب على الإرهاب التي تكرّست بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) بُعداً ميتافيزيقيّاً، أو مانويّاً، أي تجزيئيّاً ما بين الخير الذي يمثّله جانب، والشرّ الذي يسكن جانباً آخر.. بعدما أضحى العالَم مسكوناً بهاجس الأمن، حيث سَيطرت أولويّة مُكافَحة الإرهاب على قائمة الأجندات الدوليّة، ما جعله يلعب دَوراً في التنفيس عن تناقضات الغرب بعد تفكُّك الاتّحاد السوفييتي، بخاصّة بعد ربطه بالعالَم الإسلامي، وهو الأمر الذي

ترسَّـخ مـع مجموعـة مـن الأحـداث الإرهابيّـة التـي شـهدتها بعـض الـدول الأوروبيّـة (فرنسـا وإسـبانيا وبريطانيـا وبلجيـكا..) لاحقـاً.. مـا يجعـل الإرهـاب - بنظـر الكاتِـب - اسـتمراريّة لـ «الحـرب الحضاريّـة» بوسـائل أخـرى.. ، والتـي تتحكّـم فيهـا اعتبـارات جغرافيّـة وتاريخيّـة.

في جانـبٍ آخـر، يؤكّـد الباحـث أنّ الإسـلاموفوبيا هـي نِتـاج لأزمـة داخليّـة للغـرب، وأنّ فَشَـلَ سياسـات الهجـرة والإدمـاج، جعـلَ المُسـلمين والجاليـات المُسـلمة تعيـش في مـا يشـبه «غيتوهـات» داخـل الغـرب، حيـث أضحـى خطـاب العـداء للإسـلام أحـد مكوّنـات المشـهد الثقـافي، بـل السـياسي والمُجتمعـي في أوروبـا، ويسـتفحل هـذا الخطـاب مـع مـا يغذّيـه مـن سـلوك (اعتـداءات وضرب مجّـاني وعنـف رمـزي..) مـع الأزمـة الاقتصاديّـة وتواتُـر الأعـمال الإرهابيّـة.

إلى جانـب النظـرة المُتشـائمة بصـدد العلاقـة بـين الغـرب والإسـلام التـي يسـوقها الكاتـب، بنـاءً عـلى مـبرّرات تبـدو موضوعيّـة في جـزءٍ كبـير منهـا، إلّا أنّ هنـاك مُعطيـات أخـرى تفـرض قـراءة مُوازيـة، ذلـك أنّ جـزءاً مـن التوتّـر القائـم بـين الجانبَـين يجـد أساسـه في أنّنـا بصـدد غـربٍ متعـدّد وعـالَمٍ إسـلامي مُتعـدّد أيضـاً، يمتـزج فيـه الـصراع بالتواصُـل، مـا يفـرض بلْـورة حـوارٍ داخـلي بنّـاء وهـادئ بـين المُسـلمين أنفسـهم.

كـما أنّ التشـابُك الـذي يطبـع العلاقـات الدوليّـة، بفعـل تطـوُّر التكنولوجيا وتزايُـد الاعتماد المُتبـادَل، وتزايُـد الوعـي بخطـورة المَخاطِـر الدوليّـة العابِـرة للحـدود كالأمـراض الخطـرة والإرهـاب والجريمـة المُنظَّمـة وتلـوُّث البيئـة، والتـي تُلقـي بتداعياتهـا عـلى الإنسـانيّة جمعـاء، سـتُعزِّز مـن إمكانيّـة التواصُـل بـين مُختلـف الحضـارات.

The US - China Cold War Has Already Started

الحـرب البـاردة بيـن الولايـات المتحـدة والصيـن.... هل بدأت بالفعل ؟!

• الكاتب :د_آلان دوبونت
زميل أبحاث في مؤسسة هينريتشو المدير التنفيذي لشركة الاستشارات في مجال المخاطر الجيوسياسية
ترجمة: جهاد رياض أبو راس
المحامي والمترجم القانوني

الطموحات الجيوسياسية المتصادمة للدولتين تغذي خصومة قد تكون أشد خطورة من الحرب الباردة الأصلية» .

إن الصدع بين الولايات المتحدة والصين يهدد بالتحول إلى هوة شاسعة ، فبالكاد يمر يوم واحد دون تبادل انتقامي للانتقادات اللاذعة أو الإتهامات أو أي أعمال تجعل الحياة صعبة على الدولة الأخرى ،و لا يخلو الأمر أيضا من التغنيبتفوق الأنظمة السياسية لكل منها على الأخرى .

فلقد انتقدت الولايات المتحدة الصين بشدة بسبب التعقيم القسري لنساء الايغور؛ ومارست الضغوط على أوروبا لحملها على حظر شركة الفحص الأمني الصينية « نوكتيك» ؛ وفرضت قيوداً على منح تأشيرات الدخول على المسؤولين الصينيين الذين يحملون المسؤولية عن قانون الأمن القومي الجديد في هونج كونج؛ وفرضت أيضا قيوداً لمدة تسعين يوم على تأشيرات العمل الخاصة بالصحافيين الصينيين، و في مقابل ذلك وصفت وزارة الخارجية الصينية الانتقادات الأميركية لسياسة الايغور بأنها «لا أساس لها من الصحة» في حين تقول لواشنطن بكل وضوح أن لا تتدخل في شؤون هونج كونج ، وكانت بكين قد سحبت في وقت سابق أوراق الاعتماد الصحفية للصحفيين في ثلاث صحف أمريكية بارزة وهددت بوضع الشركات الأمريكية على قائمة الكيانات الأجنبية المحظورة.

ولقد تفاجأ كثيرون بهذا الانحدار السريع إلى الصراع بين الدولتين ، فالمنافسة الصينية الأميركية كانت في هذا القرن خاضعة لإدارة الحاجة إلى العمل الجماعي في إطار مجموعة من القضايا الاقتصادية والمالية والجيوسياسية العالمية التي أجبرت كلا الدولتين على التعاون المشترك ، ولكن هذه الدوافع التعاونية اختفت بالكامل تقريبابفعل تبادل الاتهامات بشأن المسؤولية عن وباء فيروس كورونا، الذي كشف عن عمق انعدام الثقة المتبادل بين الطرفين.

وترى بكين أن واشنطن عازمة على احتواء الصين لإطالة أمد انحدار سلطة الولايات المتحدة مع حرمان الصين من مكانتها التي تستحقها في العالم ،ويعتقد الأمريكيون بشكل متزايد أن بكين تهدد المصالح الأمنية الأمريكية، وتقوض ازدهارها، وتتدخل في ديمقراطيتها، وتتحدى قيمها ، و يرون أيضا أن المشاعر المناهضة للصين توحد بين واشنطن المنقسمة والحزبية.

ومن بين المفاهيم الخاطئة الشائعة أن الاختلافات المتصاعدة بشأن التجارة والتكنولوجيا مسؤولة في المقام الأول عن ارتفاع حدة الأعمال العدائية ، ولكن على الرغم من أهمية الحروب التجارية والتقنية بين الولايات المتحدة والصين في حد ذاتها، إلا أنها تشكل عَرَضاً واحدا فقط لانقسام جيوسياسي أعمق وأكثر خطورة يضرب بجذوره في الطموحات الاستراتيجية المتضاربة والأنظمة السياسية المتباينة.

بالنسبة للرئيس الأمريكي دونالد ترامب، فإن السباق مع الصين يدور حول معالجة أوجه عدم المساواة الملحوظة من خلال تسوية مجالات التجارة والتكنولوجيا وتعزيز الموقف الأمريكي كقوة عالمية عليا ، ويريد « شي جين بينج « أيضاً أن يصحح مظالم الماضي وأن ينتهز الفرصة في إعادة الصين إلى مكانتها «المستحقة» بوصفها الدولة المهيمنة في آسيا وفي نهاية المطاف العالم ، ولكن الوقت ينفد من « شي « لكي يحقق شيئا من هذا الطموح فيهرب من فخ الدخل المتوسط بسبب الانحدار الديموغرافي، وانخفاض الإنتاجية، وانحدار قوة السياسة الخارجية الواثقة، و إن التحول من التعاون إلى التنافس الاستراتيجي كان سبباً في إثارة مناقشة متزايدة الحِدة حول ما إذا كان العالم على حافة الهاوية بعد اندلاع حرب باردة جديدة ، ويدحض المتشككون هذه الحقيقة، ولكنهم مخطئون.

و تجدر الإشارة أن هنالك ست حالات تشابه واضحة مع الحرب الباردة ، الأولى : أن المنافسة بين الولايات المتحدة والصين تدور بين الدولتين الأكثر قوة على مستوى العالم، إحداهما ديمقراطية ليبرالية والأخرى شيوعية ، و الثانية :أنها مسابقة على مستوى النظام بالكامل للفوز، و الثالثة :أن الأمر يدور حول القيم والقوة، و الرابعة : أنه سوف يكون هنالك نضال دائم لعدة عقود من الزمان في سبيل فرض الهيمنة العالمية ، و الخامسة : أنه من المحتمل أن تكون هنالك حالة ثانية من الغضب الجيوسياسيفي العالم ، و السادسة :ان كلا من الجانبين لا يريد مواجهة عسكرية شاملة ، باختصار، ليس هذا هو صراع القوة الأعظم الذي من الممكن إدارته و التحكم فيه.
و هناك بطبيعة الحال اختلافات كبيرة بين البلدين فقد حلت الصين محل روسيا باعتبارها التهديد الرئيسي ، و لعبت المنافسة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي دوراً كبيراً في المجالين السياسي والعسكري؛ ولم يكن هناك أي قدر يُذكَر من التجارة بين الكتلتين المتنافسين ، ولكن المنافسة الرئيسية بين الولايات المتحدة والصين هي المنافسة الاقتصادية، وهذا يعني أن التجارة والاستثمار والتكنولوجيا والصناعات الاستراتيجية تشكل أهمية مركزية في المنافسة اليوم، وعند أعلى نقطة في هذا الصدد، كان الناتج المحلي الإجمالي للاتحاد السوفييتي ٤٠٪ فقط من الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة ، ولكن الصين بلغت بالفعل ٦٥٪ من إجمالي النمو، وهي تنمو بسرعة، وبين هذه الدول تشكل الولايات المتحدة والصين نحو ٤٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، وإذا عطس أي من هذين العملاقين فإن بقية العالم يصاب بالبرد وهو ما يحدث حرفياً في حالة الصين، مع استمرار تأثير فيروس كورونا ومساهمته في إهدار الموارد على صحة ورخاء الملايين.
ورغم أن الحرب الباردة الجديدة بدأت تتجسد في مختلف أنحاء العالم، فسيظل مركز ثقلها الجغرافي يتمثل في منطقة الهند و المحيط الهادئ ، وليس أوروبا، وذلك لأن مركز التجارة العالمية انتقل من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ ، الأمر الذي يعكس صعود آسيا وانحدار أوروبا ،فالولايات المتحدة والصين قوتان من قوى منطقة المحيط الهادئ ، لذا فإن الخصومة بينهما سوف تكون أكثر حدة في الهند والمحيط الهادئ ، وخاصة في البحر، حيث تتصادم مصالحهما وهناك العديد من الدوافع

المحتملـة لمواجهـة عسـكرية، وتُعَـد كوريـا الشـمالية وبحـر الصـين الشرقـي والجنـوبي المرشـحين الأكثـر ترجيحـا ، ولكـن تايـوان وهونـج كونـج من المحتمـل أن تكون سـاحات للصـراع أيضـا، وليـس فقـط بسـبب أهميتهـا السياسـية ،فتايـوان دولـة منتجـة للتكنولوجيـا الحيويـة بالنسـبة للولايـات المتحـدة والصـين ،و هونـج كونـج هـي البوابـة الماليـة الصينيـة إلى العـالم والـدولار الأميركـي، الـذي يظـل العملـة المهيمنـة عـلى التجـارة الدوليـة.

ورغـم أن الحـرب البـاردة أصبحـت أدنـى مـن عتبـة حـرب «سـاخنة» كـبرى، ولكنهـا قـد تسـفر بسـهولة عـن حـرب مـا لم تـدار بعنايـة ، و كثـيراً مـا تسـبق التوتـرات بـين القـوى الصاعـدة والقـوى القائمـة صراعـا عسـكريا أو فـترة مطولـة مـن المواجهـة وعـدم الاسـتقرار، وبـدون إخمـاد للشـرارة المتقـدة، فـإن تصعيـد التوتـرات الصينيـة الأميركيـة قـد يـؤدي إلى تفاقـم الحـرب البـاردة الناشـئة سـوءاً، الأمـر الـذي ينـذر بعـصر مـن المنافسـة الاسـتراتيجية المتصاعـدة التـي قـد تـؤدي إلى اضطرابـات هائلـة في التجـارة الدوليـة والنظـام العالمـي.

ويشـير السـجل التاريخـي للـصراع بـين الطرفـين إلى أنـه بالرغـم أن الحـرب السـاخنة ليسـت حتميـة و لكنهـا احتـمال وارد ، ولكـن الأرجـح أن هـذا الـصراع المتقيـح سـوف يسـتمر بـين الولايـات المتحـدة والصـين، والـذي سـيظل أدنـى مـن عتبـة الحـرب الكـبرى ولكـن سـيتخلله صراعـات بالوكالـة، وخاصـة في الفضـاء الالكـتروني، ورغـم أن هـذا قـد يكـون أكثـر تـآكل مـن تفجـر، إلا أنـه قـد يـؤدي إلى فـترة مطولـة مـن المنافسـة عـلى السـلطة العظمـى، والتـي قـد تدخـر المكاسـب الناجمـة عـن أكثـر مـن سـبعين عامـاً مـن تحريـر التجـارة، وتعطـل سلاسـل الإمـداد العالميـة، و تفريـق الإنترنـت، وتقسـيم العـالم إلى نظامـين سياسـيين متعارضـين.

إن المشـكلة الأساسـية في العلاقـات الأميركيـة الصينيـة تتلخـص في الأنظمـة السياسـية والقيـم المرتبطـة بهـا، والتـي تتعـارض بشـكل تـام مـع هـذا الحـس، والتـي تفاقمـت بفعـل شـعورها بالاسـتثنائية ، فمنـذ الأزمـة الماليـة التـي اندلعـت في الفـترة ما بـين ٢٠٠٨-٢٠٠٩ أصبـح قـادة الصـين أكثـر انتقـادا لنقـاط الضعـف الملحوظـة في الأنظمـة الديمقراطيـة ، وأكثـر إقتناعـا بتفـوق نموذجهـم الاسـتبدادي، الـذي يميـز الاسـتقرار السـياسي و النظـام الاجتماعـي عـلى حقـوق الفـرد وحريـة التعبـير.

وتصبح المشكلة أكثر حدة عندما يشك كل منهما في وجود منافس له يريد فرض عناصر غير مرغوب فيها من نظامه على الآخر أو الترويج لها دوليا ، وهذه التصورات تزيد من حدة التوترات بين الولايات المتحدة والصين، مما يزيد من صعوبة حلها ، لقد ظل قادة الصين لفترة طويلة حانقين إزاء ما يرون أنه تدخل غير مبرر في شؤونهم الداخلية وميول الأميركيين إلى إلقاء المحاضرات عليهم بشأن سلوكهم ونظامهم السياسي ، ولكن الأمر قد انعكس كليا مع انتقاد إدارة ترامب للصين بسبب تدخلها في السياسة الداخلية الأميركية، ولإدارتها للحرب السياسية، ومحاولة تصدير نموذجها الاستبدادي إلى آخر .

كان الرئيس السابق باراك أوباما عادة يقلل من شأن القوة المتبقية الهائلة التي تتمتع بها الولايات المتحدة، الأمر الذي غذى بشكل خاص الأسطورة التي تزعم أن صعود الصين أصبح مكبلا سلفا ، ولكن ترامب استولى على أرض نفسية عالية، فسيطر على موجات الأثير، فأرغم الصين على اتخاذ موقف دفاعي وأثبت أن أي دولة أخرى لا تستطيع أن تضاهي القوة الاقتصادية والمالية والعسكرية التدميرية التي تحت تصرفه ، والضعف الذي يعتري هذا التوجه يتلخص في ارتباط القوة الأميركية بسياسات «إفقار الجار» العقابية التي تعمل على تنفير الأصدقاء والخصوم والإسهام في زعزعة الاستقرار الشامل، و إن الاعتراف الصريح بأن الولايات المتحدة والصين خصمان الآن يشكل شرطاً أساسياً لازماً لتحقيق تسوية استراتيجية واقعية تعمل على تقييد خصومتهما وتتجنب أسوأ النتائج.

ومن حسن الحظ أننا ما زلنا في موطئ قدم حرب باردة ثانية و بالرغم من إرتفاعها البارد إلا أن الوقت قد حان لاتهام منحنى العداء الحاد وعكس مسار الزخم نحو الصراع ، وهؤلاء الذين يزعمون أن الديمقراطية والدولة الاستبدادية لا يمكنهم أبداً أن يجدوا التسهيلات المطلوبة ويتجاهلوا دروس التاريخ ، وعلى الرغم من الخلافات بينهما وعدد قليل من الدعوات الوثيقة، إلا أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي عملا معاً لتجنب اندلاع حرب كبرى أثناء مواجهتهما التي دامت عدة عقود من الزمان.

ولنا لقاء

• بقلم: مدير مركز فلسطين

وماذا تبقى للعرب!!!

قُـدر للعـرب في مرحلـة مـن مراحـل التاريـخ، أن يتربعـوا عـلى عـرش العـالم حضاريـا، دون أدنى منافسـة، وأن يعيـدوا صياغـة الانسـان بـما يتوافـق مـع حاجاتـه الماديـة والروحيـة والاجتماعيـة.

وفي ضـوء هـذه الحقيقـة، لم يكـن مستغربا أن تعـترف المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكـه) بهـذه الحقيقـة، وتقـدم اعترافهـا مـن خـلال كتابهـا الهـام والخطـير (شـمس العـرب تسـطع عـلي الغـرب) في شـهادة لا تقبـل الالتفـاف أو الجـدل، مؤكـدة عـلى أهـم حقائـق التاريـخ.

والسؤال ... أين غابت شمس العرب اليوم؟!!!

هـل تحولـت إلي نجـم معتـم يختفـي خلـف النامـوس الكـوني دون أي تأثـير!؟ حتـى بـات الاعـتراف بهـم كأحـد الاجنـاس البشرية مصـدر شـك!!! إلي الدرجـة أن أحـد زعـماء الغـرب، وهـو يـرد عـلى منافسـيه ... يقـول لـه: هـل تظـن أننـا عـرب نسـكت عـن حقنـا؟!!!

وهـل تحـول العـرب إلي مثـل للسـخرية والاسـتهزاء، وبـات يُنظـر إليهـم أنهـم أمـة عابـرة في التاريـخ، لا تمتلـك مقومـات الثبـات والإقامـة بـين أمـم العـالم الحـر، لهـم فقـط خيمتهـم وقطيعـا مـن الإبـل والاغنـام.

وبعد ... ماذا تبقى للعرب؟ ومادوهم؟!

مـا تبقـى لهـم ... أن يجلسـوا متفرجـين في ميـدان الـصراع يشـاهدون خيـول السـباق وهـي تتنافـس للحصـول عـلى المركـز الأول ... وهنـا تسـتفزهم كرامتهـم أن يقدمـوا للفائـز مـا تجـود بـه أيدهـم، وينتهـي دورهـم بالتهليـل والتصفيـق والـصراخ ... ثـم تقبيـل يـد الفائـز، والانحنـاء أمامـه، إمـا ضعفـا أو إعجابـا ... أو الاثنـين معـا.

يا أمة ضحكت من عارها الأمم.

إلي اللقاء